ndu spirit
آذار ٢٠١٢ عدد ٥٤

حيّوا الثّلجَ يغمرُ القمم، يَبسُطُ رداءَه الأبيضَ على السّفوحِ، يعمّمُ القراميدَ والشّجر.

حيّوا هذا الحلوَ الأنيق، يَغنُجُ في الضّبابِ وفي ضوءِ القمر؛ وحين الشّمسُ تُشرقُ يصيرُ أسرابَ الحمام.

حيّوه هابطًا كفَراشِ أحلامِ الطّفولةِ وفَتيتِ اللؤلؤ الرّيّان، وكيف يَستلقي كالمليحةِ لا خِمارٌ ولا طَيلسان.

حيّوه في حَيائه وفي كبريائه، وحين يَتشكّلُ أشكالاً، ويَسيلُ السّلسبيلَ في عروقِ التّرابِ وشقوقِ الصّخورِ وتلك السّواقي تَصيرُ أنهارا.

حيّوه يُبهجُ العيونَ، ويَشرحُ النّفوسَ، ويُهيجُ في الخيالِ صورَ الخصبِ في حقولٍ وبساتين.. وأعيادَ الرّبيع.. يحدّثُ بالهواءِ يأتينا غدًا.. لطيفًا عليلا.

حيّوه يذكّرُنا بالبراءةِ والطّهارةِ والنّقاء، بالضَميرِ الحيِّ والنيّةِ الحسنةِ والسّيرةِ القويمةِ والصّيتِ الطيّب،.. ويذكّرُ بمجّانيّةِ العطاء.

الله الله على الثّلج، ما أكثرَه ما أجملَه، حَلَّ لدينا، السَّنةَ، نعمةً من السّماء- وكم من نعمةٍ تُحِلُّها علينا السّماءُ، ونُشيحُ عنها نُذري بها ونُهملُها!

أَما لبنانُ كلُّه نعمةً كبرى، مَنَّ بها الله علينا، بل خصّنا بها دون سوانا، فإذا نحن نَستهينُ به ونُنـزلُ بطبيعتِه وتاريخِه ومصيرِه العَسْفَ والهوانَ؟!

وإذا قلنا «الآخرون»، جاءنا قولُ أبي الطيّب منبّهًا مُنذرًا يَصفعُ:

كلّما أنبتَ الزّمانُ قناةً
ركّبَ المرءُ للقناةِ سِنانا

وإنّنا «هذا المرءُ»، يا عيبَنا!

التّحرير

NDU Spirit دوريّة حول علامات الحياة في عالم جامعة سيّدة اللويزة

رئيس التّحرير
جورج مغامس

التحّرير بالانكليزيّة
كينيث مورتيمر

تَتَبُّع أَنشطة
تاتينا روحانا

تنضيد بالعربيّة
ليديا زغيب

تصوير
عبدو بجّاني و ملحم بو شبل

تصميم وإخراج
ريبيكا موراني

طباعة
مطابع معوشي وزكريّا

هاتف: ٩٩٦ ٢٠٨ (٠٩)
هاتف /فاكس: ٢٠٥ ٢١٤ (٠٩)
موقع الكترونيّ: www.ndu.edu.lb/research/ndupress/spirit

المحتوى

كلمة

إقرأْ مزاميرَك يا داود
جورج مغامس
٠٦

مدارات الجامعة

٠٨ ٢٠١٢ يوبيلها الفضيّ
٠٩ ورش عمل حول الإصلاح الانتخابيّ
١٠ اليوم العالميّ لحقوق الإنسان
١١ وفدٌ عراقيّ لاستكشاف إمكانات التعاون
١٢ ريمون جباره مع «إنّ وأخواتها»
١٤ رونزا تغنّي سعيد عقل من ألحان إياد كنعان
١٥ سهيل مطر: كتابان وتحيّة
١٦ من حصاد العمل الرّعوي الجامعي

ملفّات

١٩ **هل تعقبُ «الأنارشيّة» عندنا أنظمة الديكتاتوريّة والديمقراطيّة المقنّعة؟**
د. أنطوان يوسف صفير

٢٥ **الأصوليّة الإسلاميّة: ماهيّتها ودورها المتجدّد مع الثورات العربيّة**
طلّاب بإشراف د. إ الهندي

أبحاث

٢٩ **مريم العذراء في التقليد والتراث الشعبيّ اللبنانيّ**
د. جميل الدويهي

مقالات

٣٧ الإصلاح الديمقراطيّ في لبنان والعالم العربيّ
د. أمين ألبرت الريحاني

٤٠ دراسة في وثائق الأزهر حول الحريّات وعلاقة الدين بالدولة
محمّد السمّاك

٤٣ الدّولة العلمانيّة بين المسيحيّة والإسلام
الأب فرنسوا عقل

٤٦ التّفاعل الإسلاميّ المسيحيّ في الأندلس
د. عصام الحوراني

٤٩ نسيب لحّود: الرهان على الشباب
كميل زياده

٥١ «الصوم الّذي أريده»، يقول الربّ.
الأب بيار نجم

٥٣ التحدّيات التي تواجه الاقتصاد اللبنانيّ
د. لويس حبيقة

٥٥ في ظلال صهيل الأغاني الحائرة
عبده لبكي

٥٧ رسالة مفتوحة إلى مَنوبية
شربل شربل

٥٨ النحّات يوسف الحويّك
بيار كرم

٦١ لماذا أحبّ يوسف حبشي الأشقر؟
فيكتوريا سلموني نصراني

٦٥ أَقلُّ الايمان لفؤاد سليمان في مئويّة مولده ١٩١٢- ٢٠١٢
تحيّة: جورج مغامس
شهادة: أنطوان رعد

٦٩ رياض المعلوف وصداقة عمر
جان كميد

٧١ إعترافات أدبيّة ثقافيّة
د. منيف موسى

٧٥ متري نَعمان.. في مئويَّة مَولده الأولى
ناجي نعمان

٧٩ البابا شنوده الثّالث

٨٠ أمّي كما عرفتها
د. جورج لبكي

براعم

٨٣ - بلسموا جراحها... طبيعتنا تنـزف
- على الشاطئ الأبيض
- أكتبني حبيبي...
نور زاهي الحسنية

٨٥ لآخرِ مَرّة!
دينا ذبيان

٨٦ لغة الشباب العربيّ: العربيّة أم الازدواجيّة؟!
ميسم الزعر

قصّة

٨٨ الغياب المضيء
إيلي مارون خليل

شعريّات

٩٠ أشتاتُ حوارٍ مع زِنجيّة في بوارتوبارِيوس
أنطوان رعد

٩٢ صورة ضبابـهُ
د. جميل الدوَيهي

٩٣ بيروت
رفيق غانم

من منشوراتنا

- أيها الأصدقاء (٢)
Tout simplement c'est moi
سهيل مطر
- فخر الدين
صلاح مطر
- العربيّة الفصحى الميّسرة
- العذراء مريم في لبنان - قضاء المتن
جان صدقه

Maronite Catholic Lebanese K-13 School (1682 - 2005): A historical and institutional analysis
Ziad Antoun, OMM

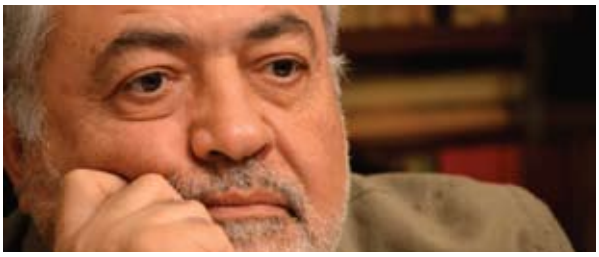

جورج مغامس

إقرأْ مزاميرَك يا داود

أيًّا تَكنْ مكابداتُنا والجراح وما لمّا نَزلْ نعانيه ونعاني منه، منذ عقودٍ أربعةٍ ويَزيد، فإنّنا لا نستطيعُ، وبلزومِ ما يَلزمُ ويُلزِمُ، إلاّ أَن نُعيرَ ما يَجري حولَنا السَّمْعَ والبصرَ ونباهةَ الفؤاد. وحَريٌّ أن يكونَ الأقربونَ أَوْلى بجُمْعِ جوارِحنا!

فما في واسطةِ عِقدِ العروبةِ، اليومَ، من تلبّدِ سماءٍ وقصفِ رعودٍ وولولةِ عواصفَ، يُنذرُ بشَرٍّ مستطيرٍ.. بسوءِ المصير.

فمن أفقٍ تندفعُ هَبواتٌ سُودٌ هُوجٌ تُطبِقُ بوَاواتِ النُّدبةِ على البَرمكيّات، ومن آخرَ رُجَمٌ حُمرٌ سَحّاءَ شَعواءَ تُرمِّدُ التُّرَبَ.. تدثّرُ الشّجرَ بسِباخِ نَزٍّ وملح.

ويا الله لِعمرَ ونزار وبدوي الجبل، وللماغوطِ وأدونيسَ وحنّا مينا، ولكوليت خوري وغادة السمّان، ولديكِ الجنِّ والمعرّيِّ أبي العلاء، ولليَاسمينِ والأَنيسونِ وتلك القُدودِ ولياليها الطّوال...

يا الله لِعَقيدِ الوردِ وكَمْءِ الباديةِ وفستقٍ مرسومٍ بعين المَهاةِ وشقيقِ أقحوانةٍ ورُمّانة...

يا الله، لا تَمتحنْهم بمحنِ أيّوبَ، ولا بالطَّفِّ وكربلاء؛ فالصّدورُ عارمةٌ بمراثي إرميا، ومجالسُ العزاءِ تَختنقُ من غَصَص.

أللهمَّ، رُدَّ عنهم النَّحيبَ.. رُدَّ الألم.

رُدَّها الأهوالَ أَقبلْنَ يَضربْنَ: إرثًا تراثًا وميراثًا.. ماضيًا نبراسا، وآمالاً كدِمَقْسٍ ودَمالجَ من تاجٍ تَدمرَ فاءَ إلى السّيوفِ الزّينبيّة والسُّعُفِ الخضراء، أو كطُهرِ ذيلِها زينبَ الأخرى بنتِ أبي عبدِالله والشّهادتَين ستِّ النّساء.

رُدَّ للبيوتِ أنوالَها ومعاولَها والقِرطاسَ والقلمَ. رُدَّ لها عيالَها.. فتيانَها المُرْدَ والرّجالَ، وراحةً للبال. فَلَشِدَّةُ الشّدائدِ أَثقلُ من حجرِ الرَّحى في الرّقابِ، وطَميمُ الفواجعِ يَسُدُّ الدّروبَ بالشِّلْوِ إلى الشِّلْوِ وبالذُّهولاتِ المُعولات؛

فثمَّةَ المضَرَّجونَ والمكَفَّنون، ونعوشٌ مبَلولةٌ مَسلولةٌ من عيونٍ سَحّاحةٍ وأَغمادِ تَكبيرٍ وغضبٍ شاسعٍ فالِج..

وثَمَّةَ مَن في المحافلِ وعلى المنابرِ يَبسُطونَ رُقعَ الرّهاناتِ ويَقترعونَ على ثوبِ البلادِ.. على أثوابِ للبلاد..

أمّا مَن بناقوسٍ يَدُقُّ أو بمئذنةٍ يَصيح، فدعواه دعوى الجاهليّةِ، تَعِدُ وتُعِدُّ لحربٍ تُنتِجُ فتُتئم، يُؤخَذُ فيها عَمروٌ من بابِه، وخُضرٌ من صَهوتِه، وكلُّ بَشِمٍ من كَرْمٍ ووَجْر، والمساكينُ كالأطفالِ من لقمةِ العيشِ ودُميةِ الأحلام..، فالحاراتُ والأحياءُ لا تتبيّنُ خيطَها الأبيضَ من خيطِها الأسودِ في تلك الأزمنةِ الحالكة!

آهٍ الموتُ، لقد صارَ خَبرًا وصورةً وأرقاما. فمنذ كلِّ صباحٍ إلى كلِّ مساء، تَتوالى الأعدادُ في هذا العَدّادِ أو ذاك، وتُنشَرُ وقائعُ وتوقّعات، وتُشاعُ شائعات، وتُدَسُّ دسائسُ وخِدعٌ وأضاليل؛ ويبقى الموتُ رابضًا لدى الأبوابِ، وفي مفارقِ الطّرقات..، يأتي النّاسَ فُرادى وجماعاتٍ، من جوٍّ، ومن حاجزٍ ومتراس، ومن قنّاصٍ يقايضُ فصولَ الأعمارِ بالدّرهمِ أو الدّرهمَين.

آهٍ الموتُ، كيف يُدَجَّنُ، يُعلَّقُ صورًا شُهداءَ هنا وهُناك.. في الخالديّاتِ والشّواغيرِ والنّواعيرِ وأريافِ المدائنِ الصّابرةِ وقلعةِ سيفِ الدّولةِ وسورِ بولسَ الرّسول!

أَما ما يوقِفُ هذا الجنونَ، ويَعقِلُ تلك الرّياحَ من سابعِ أرضٍ أو من سابعِ سماء؟!

بلى.

ساعةَ تَستقيمُ الدّيمقراطيّة، وأوّلاً بتداولِ السّلطةِ، أي بالانتخاباتِ، أي بالتّجدّدِ، أي بالتّجربةِ والخبرةِ، أي بالغربلةِ تَفصِلُ ما بين قمحٍ وزؤان...

فلا شيءَ يبرّرُ أن يكونَ الحكمُ حكمَ نُظُمٍ دينيّةٍ أو عَقديّةٍ، كلّيّةٍ شموليّةٍ، بل ديكتاتوريّةٍ بوليسيّةٍ وعسكريّة،.. نُظُمٍ تدومُ وتدومُ وتدوم...

إذًا،

كلُّ شيءٍ يبرّرُ الاحتقاناتِ والانتفاضاتِ.. يبرّرُ التَّمرّدَ.. يبرّرُ الثّورةَ.. يبرّرُ الفوضى!

ووحدَهم الأدعياءُ المكابرون، آنَ الدّينونةُ دانيةٌ شبرًا شبرًا وتجلجلُ بخيولٍ صواهل، يُنكرون على المعارضين معارضتَهم، ويُصرّون على نَصبِ ميزانِ المعادلةِ ما بين الشّعبِ والنّظام.

أَلا بئسَ المعادلةَ، وكأَنْ هو النّظامُ يَعْدِلُ الشّعبَ وصِنُوه، أو هو الشَّعبُ في خدمةِ النّظام.. أُكُلُ النّظام!

وأَعجبُ العَجبِ أَن يعيّرَ الأسوأُ السيِّئَ بسوئه!!

ولكنْ، لا يحاولَنَّ محاولُ الاستقواءَ بقولِ المتنبّي:

وإذا أَتتكَ مذمّتي من ناقصٍ

فهي الشّهادةُ لي بأَنّيَ كاملُ.

وبَعدُ بَعد،

نحن اللبنانيّين في لبنان، وقد ذُقنا الّذي ذاقوه هم مرّتين.. ومرّات، مِن ومِن ومِن.. مِنهم هُم وهمُ الآخرين، أَما نَعتبرُ ونَرعوي.. ونَتحصّن؟! هل نتورّطُ.. نغامرُ المغامراتِ القاتلةَ.. نَهبِطُ إلى جحيمٍ جديدةٍ سحيقة؟!

إقرأْ مزاميرَك يا داود.

إقرأْ.. ولكَ الجوارحُ الصّوادي كحقولِ الصّيفِ تَشَهّتِ المطر.

قُلْ لنا الكلمةَ التي تُحيينا وتَحمينا وتُحِمُّ فينا حُبّ الوطن.

قُلْ لنا اجتمعوا على خيركم، وأَصلحوا منكم القولَ والعمل، وانظروا معًا بعينٍ واحدةٍ وإرادةٍ واحدةٍ إلى مستقبلِكم، وابنوا الكاتدرائيّةَ الّتي تليقُ برجعِ أزمنةِ الحرفِ والرّقمِ وما شيّدتِ العبقريّاتُ عليها من عَماراتِ نهوضٍ بالانسانِ والأوطان. كونوا القدامسةَ الجدد. جدّدوا وجهَكم.. وجهَ لبنان.. وجهَ الأرض.

وقلْ بَعدُ يا داود. قلْ أَبعدوا كأسَ الثّاراتِ وكأسَ الحزازاتِ وكأسَ النّعراتِ.. حَنظلَ الفتن. ولا تَشمُتوا ولا تتشفّوا. بل سامحوا وسالموا وباركوا في حدودِ الحقوقِ والكرامات، وقدّموا للعطاشِ حبّةَ ماءٍ، وللجياعِ كِسرةَ خبزٍ، وللعراةِ رداءً، وللمرضى دواءً، وحاموا عن الضّعفاء، وآووا... عاملوا بما تحبّون أن تُعامَلوا. كونوا الرّحماء.

إقرأْها مزاميرَك يا داود، وزدْ على الآيةِ السيّديّةِ «عبثًا يبني البنّاؤون ما لم يَبنِ ربُّ البيت»، قولَ عامّتِنا: جارك بخير أنت بخير، وقولَ شاعرِنا الأَشَمّ:

لا تَقلْ: أمّتي» وتسطو بدنيا

نحن جارٌ للعالَمين وأهلُ!

فهل من لبيبٍ يَفهمُ؟!

٢٠١٢ يوبيلها الفضيّ

سنة ٢٠١٢ هي سنة يوبيل جامعة سيّدة اللويزة الفضيّ. هذا ما أعلنه رئيسُ الجامعة **الأب وليد موسى** في ٢٠١١/١٢/١٦، في ما اعتبره «لقاءً عائليًّا يجمع بين أهل العلم والأهل الإعلام، وكلاهما من مصدرٍ واحد: عَلِم وعَلّم، ويعملان في خدمة الانسان: تربيةً وثقافةً وقيمًا سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة»، عَبّر عن شكره وتقديره لجهود الإعلاميّين في تغطيتهم الدائمة لأخبار الجامعة ونشاطاتها، وقال:

من الطبيعيّ أن تكثر النشاطات والفعاليّات الثقافيّة والاجتماعيّة، خلال هذه السنة، وهي من صلب عملنا الجامعيّ؛ ولكنّني، أؤكد أنّنا سننصرف، خلال هذه السنة، إلى مراجعة شاملة وعميقة لأوضاع جامعتنا ولشؤون التعليم العالي في كلّ لبنان. فصحيحٌ أنّ جامعتنا تضمّ اليوم /٧١٠٠/ طالب، من كلّ لبنان، من كلّ الطوائف، ومن جنسيّات متعدّدة؛ وصحيح أنّ فروعنا الجغرافيّة تمتدّ من دير القمر إلى برسا الكورة؛ وصحيح أنّ مساحة هذا الحرم الجامعيّ- ذوق مصبح، هي من أكبر المساحات للجامعات العاملة في لبنان؛ وصحيح أيضًا أنّنا نعدّ طلاّبنا في اختصاصات تبلغ حوالى المئة اختصاص، وتتدرّج من الإجازة إلى الإجازة التعليميّة إلى الماجستير ثمّ إلى الدكتوراه في بعض الاختصاصات؛ إلاّ أنّني أؤكّد أنّنا سنُعنى خلال هذه السنة، وبعد المراجعة الدقيقة للأوضاع بثلاثة أمور:

١. تجديد حياتنا الأكاديميّة، أساتذةً وطلاّبًا ومناهجَ ومراجع، بحيث نعالج بعض نقاط الضعف التي يمكن أن تتسرّب إلى الجامعة.

٢. السعي إلى دراسة أوضاع الطلاّب، نفسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وروحيًا وتربويًا، والعمل على تجنّب كلّ المشاكل والآفات التي تعترض طريقهم، ولاسيّما المشاكل التي تتأتّى من ضآلة الثقافة وحقارة السياسة وجنون المخدّرات والسرعة الرعناء وفوضى التكنولوجيا الحديثة.

٣. العمل على إنهاء موضوع الاعتماد Accreditation؛ وأنا اليوم عائد من الولايات المتّحدة الأميركيّة حيث تبيّن لنا أنّنا نسير في الطريق السليم وصولاً إلى الحصول على هذا الاعتماد الأكاديميّ الذي يشرّفنا كما يضع طلاّبنا وخرّيجينا في مصافّ المتفوّقين والبارزين في سوق العمل.

وختم: إلاّ أنني اليوم، وفي معرض إطلاق هذا اليوبيل الفضّي، أتساءل، كما تتساءلون: وهل جامعتكم تعيش مستقلّة في جزيرة بعيدة؟ ألا تقلقكم الأوضاع السياسيّة والأمنيّة في لبنان والمنطقة؟ ألا تشعرون ببعض الهزّات والارتدادات؟ أُجيب: هذا هو قدر الجامعة أن تنتصر على التحدّيات والصعوبات.

وعطفًا على كلمة الأب الرئيس، قدّم نائبه للثقافة والعلاقات **الأستاذ سهيل مطر** عناوينَ في مشروع الاحتفالات اليوبيليّة، ومنها:

خيريّة وروحيّة ومحاضرات وندوات ومؤتمرات... والآفاق مفتوحة!

وقد كان في هذا المؤتمر الصحافيّ كلمة لنقيب الصحافة **الأستاذ محمّد البعلبكيّ**، منها هذه الشهادة:

وقد شقّ خرّيجوها دروبَهم داخل لبنان وخارجه، ووظّفوا طاقاتهم في خدمة كليهما. وفي يوبيلها الفضيّ هي أمام انطلاقة جديدة؛ فمرحى بهذا اليوبيل، وإلى أعوام مشرقة بمجد العطاء الخلاّق.

أطلاق سلسلة ورش عمل متخصّصة حول الإصلاح الانتخابيّ

محاضرة للوزير زياد بارود حول: «المفاعيل السياسيّة للقوانين الإنتخابيّة المقترحة»

أطلق قسم العلوم السياسيّة في الجامعة، سلسلة ورش عمل متخصّصة حول الإصلاح الانتخابيّ تتناول بحثًا تقنيًا معمّقًا مع اختصاصيّين في مختلف المواضيع الإصلاحيّة المطروحة. إطلاق السلسلة كان مع وزير الداخليّة السابق **الأستاذ زياد بارود** في ٢٠١٢/٠١/٢٥ بمحاضرة تحت عنوان «المفاعيل السياسيّة للقوانين الانتخابيّة المقترحة». **الأستاذ سهيل مطر** مرحّبًا رأى في الوزير بارود مختلفًا عن سائر رجال السياسة، لأنّ المصلحة الوطنيّة تفوق مصالحه الشخصيّة.

أمّا **بارود** فاعتبر أنّ قانون الإصلاح الانتخابيّ لا يحتاج إلى خبرات وتقنيّات بقدر ما يحتاج إلى الخيار. فالإصلاحات الانتخابيّة ظاهرها تقنيّ، ولكنّ باطنها سياسيّ بامتياز. ثمّ قدّم لمحة تاريخيّة منذ قانون أيّار ١٩٤٧ الذي أتاح إعادة انتخاب الرئيس بشارة الخوري إلى الـ٢٠٠٥ حين أدخلت هيئة فؤاد بطرس النظام النسبيّ إلى النقاش الفعليّ، وانتهت إلى سلّة إصلاحات، منها: إيجاد هيئة مستقلّة (عن وزارة الداخليّة) للإشراف والإعداد للانتخابات (مثل العراق وتونس...)، رفع السريّة المصرفيّة منذ تقديم المرشّح ترشيحه، ومراقبة المؤسّسات والجمعيّات الخيريّة التي تنشط في فترة الانتخابات. وعن اقتراع العسكريّين قال: حرمانهم تمييز وغير دستوريّ. ثمّ سلّط الضوء على الكوتا الجندريّة، وتسهيل اقتراع ذوي الاحتياجات الخاصّة، وإمكانيّة اقتراع المغتربين. لكنّه أبدى خشيته من الإبقاء على قانون ٢٠٠٨ أي قانون ١٩٦٠ الذي يقوم على الأكثريّة، مصرّحًا: إذا لم يتمّ تبنّي قانون إصلاحيّ جديد، فانتخابات الـ٢٠١٣ ستجري بموجب القانون القديم.

عميد الكليّة **د. شاهين غيث** شكر للوزير تلبيته الدعوة، ورأى في دخوله العملَ السياسيّ علامةَ نضج في المجتمع اللبنانيّ. وتناول من جهته المساوئ المحتملة لقانون النسبيّة من حيث فرط التجمّعات السياسيّة الكبرى وصعوبة تشكيل التحالفات وبالتالي الحكومات المستقرّة، ومن دون أن يتيح فعليًا أيّ تغيير جذريّ في الطبقة السياسيّة أو في تحكّم مجموعة قليلة من الزعماء بمصير البلاد كلّها. على الأثر جرى نقاشٌ بين الوزير والطلاّب حول هواجس المرحلة المقبلة، وتطرّقوا لقانون الانتخاب الطلاّبيّ في الجامعة.

اليوم العالميّ لحقوق الإنسان في الجامعة

أحيت كليّة العلوم الإداريّة والسياسيّة والدبلوماسيّة، بالتعاون مع نادي حقوق الإنسان في الجامعة، اليوم العالميّ لحقوق الإنسان بعنوان «لبنان نموذج للربيع العربيّ».

شارك في النشاطات المختلفة عشر جمعيّات غير حكوميّة رائدة كلّ في مجالها: منظّمة العفو الدوليّة، والجمعيّة اللبنانيّة للتعليم والتدريب (ALEF) ، عدالة بلا حدود، أبعاد، حركة السلام الدائم، مؤسّسة حقوق الإنسان والحقّ الإنسانيّ، المركز اللبنانيّ لحقوق الإنسان، كاريتاس (المهاجرين)، وغيرها، فضلاً عن مكتب الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في لبنان.

عرّفت هذه الجمعيّات بأهدافها ونشاطاتها وبرامجها التي يمكن أن تستقبل الطلاّب كمتدرّبين، أو متطوّعين، أو عاملين.

وتطارح المجتمعون موضوع «الإخفاء القسريّ ORCED DISAPPEARANCE» في لبنان مع نائب مفوّض الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في لبنان **السيّد رينو ديتال**، ومدى مساهمة الحكومات في استرداد الأشخاص المفقودين، وكيفيّة مساهمة المنظّمات الأهليّة في ذلك.

ثمّ ناقشوا مضمون وثائقيّ «مخطوفين» للمخرج بهيج حجيج والوضع في لبنان وانعكاسات الخطف على العائلات مع ممثّلة لجنة متابعة أهالي المفقودين **السيّدة حسّانة جمال الدين**.

وفي الختام، كان نقاش مع ممثّلي النوادي في الجامعة حول الوجود المسيحيّ في الشرق من ناحية حقوق الإنسان، ودورهم المحتمل في خضمّ الثورات العربيّة، بإدارة جمعيّة مبادرات السلام وبمرافقة **د. زياد فهد** والسيّد **ماهر بطيش**.

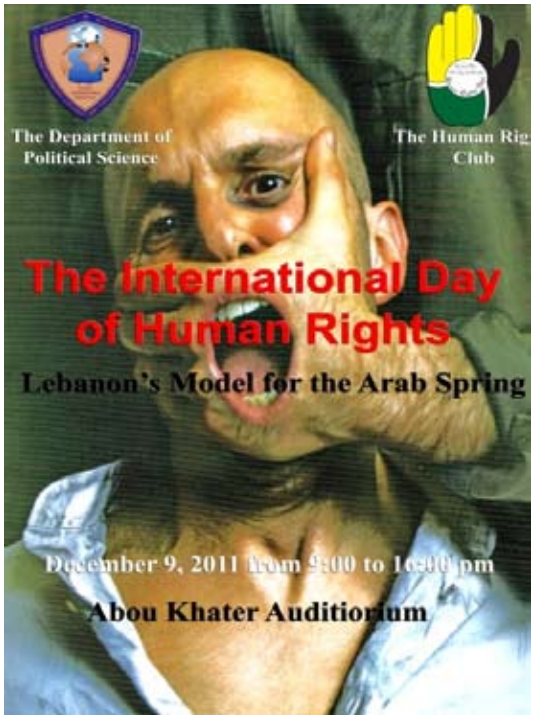

وفدٌ عراقيّ للتعرّف على اختصاصات كليّة العلوم السياسيّة واستكشاف إمكانات التعاون

ضمن زيارة استكشافيّة تدريبيّة إلى لبنان من تنظيمِ شركة تنمية المعرفة وتمويلٍ من الأمم المتحدة، حضر وفد عراقيّ مؤلّف من نوّاب وموظّفي برلمان ورؤساء جمعيّات وناشطين في المجتمع المدنيّ إلى جامعةَ سيّدة اللويزة، بهدف التعرّف على الاختصاصات المرتبطة بعملهم، وخبرة الجامعة في آليّات التعاون والشراكة بينها وبين المنظّمات غير الحكومة أو الجهات الحكوميّة.

نائب الرئيس للثقافة والعلاقات العامّة الأستاذ **سهيل مطر** الذي رحّب بالحضور، رأى أنّ مرحلة العيش المشترك كطوائف وثقافات مع أبناء المنطقة، أصبح أمرًا طبيعيًا.

وعرض عميد الكليّة **د. شاهين غيث** لرؤية الكليّة ومقاربتها للاختصاصات، ولتجارب الجامعة الناجحة في مجال الشأن العامّ في قضايا الناس، ولتبادل الطلاّب وبرامج التدريب اللاصفيّة، وسواها.

أمّا مدير مكتب العلاقات الدوليّة **د. ميشال نعمه**، فتحدّث عن تخصّص إدارة المنظّمات غير الحكوميّة، نشأتها وأهدافها.

ثمّ كانت مداخلة للأستاذ المحاضر، خبير شؤون الإدارة العامّة **د. فارس الزين**، تناول فيها إختصاص الإدارة العامّة ودور الجامعة في صناعة السياسات، إضافة إلى أهميّة منهجيّات التدريس التشاركيّة المعتمدة ولاسيّما في الدراسات العليا.

والماجستير في حقوق الإنسان سلّط الضوء عليه مدير قسم العلوم السياسيّة **د. إيلي الهندي** قائلاً إنّه ناشئ عن الحاجة إلى الجمع بين الخبرة الأكاديميّة والتطبيقيّة، بهدف تعاون ناجح مع المنظّمات غير الحكوميّة.

ودار النقاش أخيرًا على إمكانات التواصل والتعاون.

ريمون جباره مع «إنّ وأخواتها» على خشبة الجامعة

استهلّت الجامعة الاحتفالات بيوبيلها الفضيّ بإنتاج مسرحيّة للأستاذ ريمون جباره، نصًا وإخراجًا، مثّلها ثلاثيٌّ مشهودٌ له: **جوليا قصّار ورفعت طربيه وغبريال يميّن.**

هذه المسرحيّة العارية من حيث الديكور والملابس والموسيقى والأضواء، هي كوميديّة صحيح، ولكنّها أيضًا ودائمًا موجعة بما فيها من واقعيّةٍ مرّة أو عبثيّةٍ صفراء. فثمّة صالة انتظار في مدرسة، يلتقي فيها سكرتيرة خرّيجة مسرح (جوليا) وأستاذ في الألسنيّة (رفعت) ووالد تلميذ سنكري (غبريال). الوالد حضر ليصطحبَ ابنَه «المزروب لأنّه عملها تحتو.. والتنين معًا»، والأستاذ الدكتور ينتظر أن تستقبله الرئيسة الرافضة لاستقباله، وما بينهما السكرتيرة تفتح قلبها وتكشف عن عقدها وتتلقّى ما أَنزل به الألسنيّ على السّنكري من ويلات علمِه حتّى الضربة القاضية؛ وكان في الأثناء حريق الديون وأخواتها يلتهم بيتَ السنكري، ولَهَبُ الخطابة الفارغة يلتهم جمهورًا غائبًا...

الصحافة، كيف استقبلت العمل؟ بعضُ العناوين تُنبئ بالمضامين...

النهار

الثلاثاء 2012-01-10 العدد 24613

18

مسرح

ريمون جبارة قدّم مسرحيته في جامعة سيدة اللويزة

"مقتل إن وأخواتها" وثيقة عيادية تضيء على أمراض المجتمع وعوراته

المستقبل AL-MUSTAQBAL

الثلاثاء 2012-01-10 العدد 4222

21

جديد المخرج الكبير ريمون جبارة على مسرح جامعة اللويزة:

أسئلة تصادمية في نبرة واقعية حادة وجامحة

الحياة
AL HAYAT
الخميس 12-01-2012 العدد 17814

ريمون جبارة يقتل «إنّ وأخواتها» مسرحياً

اللواء
الخميس 12-01-2012 العدد 13369
17

جامعة اللويزة أنتجت المسرحية تقديراً لـ ريمون جبارة ومسيرته

من «قتل إن وأخواتها» في ليلة تكريمية تحتفي بالمخرج يمّين، قصّار، طربيه، الهبوا الأكف مع ضحكات لم تهدأ

ريمون جبارة يَغتال «... إنّ وأخواتها»!

لمناسبة يوبيلها الفضي، قدّمت جامعة سيدة اللويزة مسرحية «مقتل إن وأخواتها»، وهي من تاليف ريمون جبارة وإخراجه، وبمشاركة نخبة من نجوم التمثيل، من بينهم: جوليا قصار، رقعت طربيه، غبريال يمين...

الجمهورية
الثلاثاء 10-01-2012 العدد 256
29

L'Orient LE JOUR
jeudi 19 janvier 2012 | N°13359
7

Une mordante satire sociale de Raymond Gebara

رونزا تغنّي سعيد عقل من ألحان إياد كنعان

في إطار مئويّة سعيد عقل (٢٠١١- ٢٠١٢)، وبرعاية وزير الثقافة **الأستاذ غابي ليّون**، قدّمت جامعة سيّدة اللويزة، من موسيقى **الأستاذ إياد كنعان**، كونشرتو: «نغمات من دفتره»، أحيته **الفنّانة رونزا**، بصحبة **دولسي لاوون** على البيانو وجوقة الجامعة بإدارة **الأب خليل رحمه**؛ وكان ذلك في قصر المؤتمرات- ضبيّه، مساء الخامس من تشرين الثاني ٢٠١١.

القصائد التي غنّتها رونزا: شبّاكه- دلال- مليك الجان- كتبت لي- هموم الياسمينة- الحبّ العجب- أسمع صوته من الجنينة.

وأنشدت رونزا مع الجوقة، ومن قصيدة فخر الدين الثاني: يا اندفاع الأمواج- وتنادوا من الشمال- بينما الناس هُيّمٌ بعليّ- داس في أرضه الأمير- نكست بهامها الجبال- وحوالى الأمير.

تخلّل ذلك مشاهد من إعداد **ماجد بو هدير**. وقدّمت الاحتفال **تاتيانا روحانا بو هدير**.

أمّا الحضور من رسميّين ومثقّفين ومحبّين وأصدقاء، فكان غفيرًا وفي الذُرى العليا من مقامات الغبطة!

وعلى ما جاء في كلمة **الأستاذ سهيل مطر**: سنتابع هذه السنة مئويّة سعيد عقل؛ نحن لن نحتكره، ولن نصادر الاحتفالات به. من شاء منكم، من المدارس والجامعات والمؤسّسات، من الأندية والمراكز، من وسائل الإعلام، من الفرق الفنيّة والفولكوريّة، من أهل الطرب والموسيقى، من جميع اللبنانيّين في لبنان ودنيا الانتشار،.. من شاء الاحتفال بسعيد عقل، بأيّ شكل من الأشكال، فنحن مستعدّون لكلّ تعاون ونشاط.

سهيل مطر:
كتابان منه.. ومن الجامعة تحيّة

«أيّها الأصدقاء ... من القلب إلى القلب»- الجزء الثاني، والترجمة الفرنسيّة لكتاب «عفوًا هذا أنا» (...Tout simplement c'est moi)، هما العنوانان اللذان تحلّق حولهما أصدقاء وأهل وقادرون للأستاذ سهيل مطر، في لقاء «ورد، حبّ وبخور»، ضمن نشاطات السنة اليوبيليّة للجامعة، مساء ١٥ شباط ٢٠١٢.

في البداية، كان عرضٌ لوثائقيّ عن مسيرة الأديب والشاعر سهيل مطر، من إعداد الإعلاميّ **ماجد بو هدير**، وإنتاج قسم المنشآت السمعيّة والبصريّة في الجامعة، تخلّله شهادات، وقراءات من مختلف إصدارات المحتفى به: جهاد الأندري، مي منسّى، هنري زغيب، ريما نجم، جهاد الأطرش، رافقتهم عزفًا على البيانو الآنسة دولسي لاوون.

كما كانت مداخلة غنائيّة لجلال بوسيك، وإنشاديّة للمرنّمة جومانا مدوّر في ترتيلتين من كلمات الأستاذ مطر وألحان الأستاذ جوزف خليفه عن البابا الطوباويّ يوحنّا بولس الثاني والقديسة رفقا.

وجالت الإعلاميّة الصاعدة **جويس عقيقي** على الحضور مستفتيةً، فإذا شهاداتٌ تُجمعُ أنّ "اسهيل" صيغةٌ جماليّةٌ من صيغ السهلِ الممتنعِ على مسرحِ الحركةِ الثقافيّةِ في لبنان.

وفي المناسبة قال مطر: «بعد ما سمعت وما شاهدت، وما قرأت في عيونكم، يحقّ لي أن أقف على أعلى صخرة، في أعلى قمّة، من جبل صنين، وأن أصرخ: هؤلاء أصدقائي، هؤلاء أحبّائي، هؤلاء أهلي، هؤلاء زملائي وطلاّبي وأولادي، وشكراً لك... يا زمان».

ثمّ شكر الجامعة والزملاء والأصدقاء وسائر الوجوه الكريمة، مضيفًا: «إن سفّرتني الانفعالات إلى تنّورين، الصبيّة الجرديّة المخمّرة بالأرز والتفّاح والكرامة، فلأنحني على باب تلك المقبرة، أبوس يدَي أمّي وأبي، ووجنتَي شقيقتيّ ليلى وضياء، وترابات نابضة طريّة، فهذا أنا، لأنّهم هم، هنا وهناك، المدرسة والصلاة وزهرة الفرح والحياة».

وأخيرًا قدّمت له أسرة مكتب العلاقات منحوتة «الصراع» لجبران بريشة الفنّان رودي رحمة، وجرى توزيع الكتابين الجديدين على الحضور وسط نخب المناسبة.

من حصاد العمل الرعويّ الجامعيّ

Shawarma day

لتغذية صندوق النّشاطات، حضّر طلاّب العمل الرعويّ الجامعيّ لبيع شورما في حرم الجامعة في ١٦ و١٧ تشرين الثاني.

اللقاء السنويّ

في ٢٢ تشرين الثاني ٢٠١١ شارك حوالى ١٥ شخصًا من جامعتنا في اللقاء العامّ لشباب العمل الرعويّ الجامعيّ في جامعة الروح القدس- الكسليك.
تخلّل اللقاء مسرحيّات ثمّ إطلاق موضوع السّنة ٢٠١١-٢٠١٢ «حان الوقت... آمنوا بالبشارة»، فضلاً عن التّعريف بالعمل الرعويّ.

Katayef day

في زمن الميلاد المجيد، وبهدف التبرّع لِدعم مشروع الميلاد، جالَ العمل الرعويّ بالقطايف على أهل الجامعة، وذلك يومَي ٣٠ تشرين الثاني و١ كانون الأوّل.

زيارة الأخ إميل من Taizé

في ٢ كانون الأوّل، وتحت إشراف د. زياد فهد من مكتب الشّؤون الطلاّبيّة والأب فادي بو شبل المريميّ مُرشد شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ، حضر الأخ إميل من فرنسا ليشركَنا في خبرته في Taizé، فعُرض فيلم وثائقيّ وشهادات حيّة، وطُرحت أسئلة، وأُنشدت ترانيم اشتُهِرت بها الجماعة.

رياضة الميلاد، وعيد البربارة

في ٢ كانون الأوّل ٢٠١١، أقام شباب العمل الرعويّ حفلة ترفيهيّة بمناسبة عيد القدّيسة بربارة، في دير الآباء اللعازريّين في بحرصاف شارك فيها ٤٥ شخصًا، بعنوان: «خضرا وفواكه».
تضمّن البرنامج عرضًا تنكّريًا أمام لجنة تحكيم، وفيلمًا قصيرًا صغير عن حياة القدّيسة بربارة، وعشاءً وألعابًا ترفيهيّة.
وبقي الشّبيبة في الدّير للرياضة الروحيّة، التي انضمّ إليها موظّفون وأساتذة وآباء من الجامعة، في إطار «صار وقتها».
كان البرنامج مُنوّعًا من مواضيع روحيّة وتأمّلات إلى مسرحيّة قصيرة حضّرها الشباب والصّبايا عن خلاصنا الذي تمّ بواسطة يسوع المسيح. وتابع الشّبيبة رياضتهم الروحيّة إلى ظهر الأحد.

السّهرة المريميّة السّادسة: «البهيّة منارة الطوباويّين»

نظّم العمل الرعويّ الجامعيّ، سهرة صلاة مريميّة للسنة السادسة على التّوالي، تكريمًا لوالدة الإله أمّنا مريم العذراء، بمناسبة عيد الحبل بلا دنس في ٨ كانون الأوّل ٢٠١١، تحت عنوان «البهيّة منارة الطوباويّين». كانت كلمة الإفتتاح للمرشد العامّ الأب فادي بو شبل المريميّ، تلتها صلاة لمسبحة مع تأمّلات في الطوباويّين: زيلي مرتان، الأب يعقوب الكبّوشي، الأمّ ماري ألفونسين، البابا يوحنّا بولس الثاني والأمّ تريزا دي كالكوتا؛ وجسّد أعضاء العمل الرعويّ الطوباويّين الخمسة. تلا ذلك ريسيتال للآنسة غريس مدوّر يرافقها على العزف السيّد إيلي حردان. وانتهى اللقاء بالتّطواف والتكرّس للعذراء مريم.

جاء في كلمة الأب بو شبل ما يلي:

كُلّما نظرتُ إليكِ أيّتها البتولُ الطّاهرة، إستضاءت عيناي بجمالك، وفرحَ قلبي بطُهرك، وهتفتُ معكِ: حقًّا هو القديرُ الذي صنعَ بكِ العظائم، قدّوسٌ إسمُه.

أمامكِ أيّتها البهيّة، أتيتُ مع أخواتٍ وإخوة لي بالإيمان، لنتأمّلَ مع الطوباويّين الذين أنتِ منارتُهم في عملِ النّعمة الإلهيّة في شخصِكِ الكريم.

فأنتِ وحدَكِ وبإنعامٍ فريد، وُجدتِ من دونِ الخطيئةِ الأصليّة، لأنّكِ تُحفةُ الآبِ الخالق وأروعُ خلائقه على الإطلاق، وهديّةٌ للإبن الوحيد ولنا نحن المؤمنين باسمه.

جمالُك أيّتها البهيّة، لا وصفَ له، وقد زيّنكِ الروحُ القدس بالمواهبِ والعطايا، فغدوتِ عروسَه الطّاهرة وأُمّ إلهنا.

إليكِ أَلتجئُ ويلتجئ البشر دومًا، ونحوكِ أَنظُرُ وينظر الملائكة في كلّ حين.

السّماء تُقرُّ ببهائكِ والأرضُ تُعلنُ مجدَكِ، فأنتِ المُستحقّةُ بعد ابنِكِ كلّ شكرٍ وإكرام، كلّ حُبٍّ ومديح.

ومع الكاتب بوسّويه، نقول: «إنّك أمُّ الله لكي تنالي كلّ شيء، وأُمُّ البشر لكي تهَبي كلّ شيء». كيف لا وأنتِ مُوزّعةُ النّعمِ كلّها، والأُمّ الشّفيعةُ على الدّوام.

كُلّما تأمّلتُكِ ازداد قلبي فرحًا وحُبًّا وامتنانًا. فأنتِ أيّتها البهيّة، سببُ سرورِنا، وملجانا وعَزانا؛ وتاريخُ كنيستِنا حافلٌ بالنِّعَمِ التي تستمدّينها من الله لِنا.

فأنتِ أنقَذتِ الكثيرَين من الكوارث، وانتزعتِ أشخاصًا من حبائلِ الموتِ الغادر، وخرقتِ سُننَ الطّبيعة لِتُلبّيَ نداءاتِ مَن استغاثَ بكِ، وناشدَكِ أن تهبّي لمعونته.

واليوم نحنُ بدورِنا جئناك، ولنا ملءُ الثّقة بأنّكِ ستُلاقينا وتُصغي إلينا، ونحن نهتِفُ كُلّنا بصوتٍ واحد: شبابُنا لكِ.

نعم يا أُمّنا، علّمي شبابَنا حُبّ الطّهارةِ والنّقاوة، علّميهم حُبّ السّلامِ والتّضامُنِ والأمانة.

علّميهم أن يعرفوا ابنَكِ الإلهيّ، إنّه هو وحدَه الطّريقُ والحقُّ والحياة، وإنّه هو هو أمسِ اليومَ وإلى الأبد.

تعالَي يا طاهرة، فأنتِ منارةُ الطوباويّين، كوني الآن أمّنا، وأَظهري معونَتكِ وإنعاماتِكِ وألطافَكِ نحونا.

باركينا ببركتكِ الأموميّة، وألهمي كلّ واحد منّا عملَ الخير، فيأتيَ ربيعُ الكنيسة الجديد، ويؤمنَ العالمُ بمن أرسله الآبُ لخلاصنا. إقبلي يا عذراء نوايا قلوبِنا، فَجُلُّ ما نستطيعُ أن نقومَ به هو أن نقدّمَ لكِ الإكرام، ونلتمسَ منك الحماية لنا ولشبابنا، فأنتِ حقًّا الشفيعُ الأكرمُ عند ابنكِ يسوعَ المعظّم.

ومع إخوتنا وأخواتنا الطوباويّين، نعلن ونقول إنّك يا مريمُ بهاءُ المسيحيّين وفرحُ الملائكةِ والخلائق أجمعين.

تحنّني في هذا الوقت علينا، وأَظهري حبّكِ نحونا، واحمي شبيبتَنا يا من أنتِ أطهرُ من الطاهرات والطاهرين، وأنقى من البتولات والبتولين، وأقدسُ بلا قياسٍ من القدّيسات والقدّيسين، وأكثرُ مجدًا من الملائكةِ وسعادةً من بَني البشر.

يا عذراءُ، شبابُنا لكِ، اشفَعي بِنا.

يا أمُّ، شبابُنا لكِ، صَلّي معنا.

يا بهيّة، شبابُنا لكِ، أنتِ لنا.

Charity tree

أقام شباب العمل الرعويّ شجرة المحبّة في كافيتيريا الجامعة من ٩ إلى ٢١ كانون الأوّل، كي يجمعوا التبرّعات والهدايا لحوالى ١٠٠ طفل تهتمّ بهم جمعيّة «Dame de Secours». (سيّدات المعونة). وقد أُقيمت حفلةٌ لهؤلاء الأطفال مساء ٢٣ الجاري، تضمّنت فضلاً عن الصلاة والترانيم، عشاءً راقصًا وتقديمَ الهدايا.

قدّاس الميلاد

في ٢٣ كانون الأوّل ٢٠١١، إحتفلت عائلة الجامعة بقدّاس الميلاد، ترأّسه الأب المُدبّر جورج ناصيف، شاركه فيه لفيف من آباء الجامعة، وقدّم عدد كبير من الموظّفين النّوايا.

حفلة العمّال

في ٢٣ كانون الأوّل ٢٠١١، أقام العمل الرّعويّ حفلة ميلاديّة خاصّة للعمّال الأجانب في الجامعة، تخلّلها الرّقص والغناء والضّيافة وتوزيع الهدايا.

رحلة

في ١١ شباط ٢٠١٢، ولمناسبة اليوم العالميّ للمريض في عيد سيّدة لورد، قمنا برحلة صلاة إلى كنيسة سيّدة لورد في غدير، وتناولنا الغداء في حريصا، ثمّ عدنا والد الأب فادي السيّد سعد بو شبل (المرحوم) في المستشفى.

رحلة الثّلج

في ١٣ شباط ٢٠١٢، أمضى شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ يومًا ثلجيًا ترفيهيًا في الأرز وتناولوا الغداءَ في بشرّي.

بانوراما الألفيّة الثالثة

أضواء في نفق الربيع العربيّ..
هل تعقبُ «الأنارشيّة»عندنا أنظمةَ الديكتاتوريّة والديمقراطيّة المقنّعة؟

د. أنطوان يوسف صفير

أُتخِمَتْ ذاكرة الفكر السياسيّ عبر العصور بترداد، وأَكادُ أقول باجترار مفهومين متوارثين للحكم أُشبعا درسًا وتنظيرًا، ودُبّجت حولهما عشرات المصنّفات والمؤلّفات، وتناوب على الحكم بموجب أحكامهما وفلسفتهما حكّامٌ وملوكٌ وسلاطين أباطرة، فسادوا وحكموا وتحكّموا وتسلّطوا . عنيتُ بهما نظامي الديكتاتوريّة والديمقراطيّة في تفرُّع أشكالهما وتنوّع تجلّياتهما.

في مستهلّ العقد الثاني من بدايات الألفيّة الثالثة، لوجئنا نستشرف من علُ ما آلتْ إليه تلك اللوحة البانوراميّة لأنظمة الحكم في العالم لأدركنا بما يشبه اليقين أنّ جُلّ ما أورثتنا إيّاه الألفيّة الثانية على هذا الصعيد، لا يعدو كونَه خليطًا هجينًا مقنّعًا من سموم الديكتاتوريّة ورحيق الديمقراطيّة في سياسة أمور الشعوب والأمم. فكم ثمّةَ من استبداد وديكتاتوريّة تلبّسا ثوب الديمقراطيّة، وكم من ديمقراطيّة أخفت في باطنها طبائعَ استبدادٍ وديكتاتوريّة؟

منذ ما قبل حمورابي وبعده، ومنذ ما قبل أرسطو وأفلاطون وبعدهما، مرورًا برهطٍ كبيرٍ من المنظّرين والبرغماتيّين من الفلاسفة والعقائديّين ومن المصلحين والحكماء في مشارق الأرض ومغاربها وعبرَ الزمان والمكان.. منذ تلك الأزمنة والبشريّةُ مصيرُها نَهبُ هذين التيّارين الجامحين؛ فهل هي ذاهبةٌ تحت تأثير «تروما» اليأسِ والفشل إلى الانزلاق في مهاوي «الأنارشيّة» والفوضى بعد أن أدركتْ ذاتها على رصيف الزمن معطّلةَ الفكر والإدارة؛ لا سرابُ الديمقراطيّة أروى ظمأها ولا مبضعُ الديكتاتوريّة، وإن متنوِّرةً، استأصل أورامها؟

في دوّامة هذا الواقع المأزوم، هل تبرزُ «الأنارشيّة» بمفهومها الفوضى العارمة أو الفوضى المنظّمة كما يحلو للبعض تسويقها، كقوّةٍ ثالثة تتدبّرُ مصائرَ الشعوب باتجاه خلاصها وانعتاقها، أم تمضي بها إلى جحيم نهاياتها الأبوكالبتيّة؟

وعندنا في الشرق العربيّ، وفي زحمة ما أسمَوْه «بالربيع العربيّ» المتمثّل في عجقة المتغيّرات اللامنتظرةِ سرعةُ تواترها وتزامنُ حَراكِها وإحداثيّاتها، هل سوف نشهد على مساحة العالم العربيّ، الانزلاقَ الكبير نحو «الأنارشيّة» البرج بابليّة، النذير الشؤم لمصير شعوب الشرق بشكل خاصّ، أم أنّ مسيرة التاريخ الحتميّ تقدُّمها وإن تباطأت زمنًا عند بعض الشعوب، يحدث فجأةً أن يتسرّع مسارُها لتعوّضَ هذه الشعوب ما فاتها من تقدّمٍ وتطوّر في فترات انكفائها وانحطاطها؟

في سياق هذا المسار الفكريّ التفكّري، رأينا من الضرورة بدايةً أن نعيد التعريف بهذا المولود القديم الجديد الآتي عائدًا إلى بلاد العرب على صهوةِ جيادٍ مطهّمة من حدود مغرب العرب إلى مشرقهم، بعد أن أُنيخت رقابُ شعوبهم تحت مطرقة الدكتاتوريّات، أو تخدّرت عقولُهم بمسكِرات سَراب بعض الديمقراطيّات. هل نحن داخلون اليوم عصر «الأنارشيّة» في أعقاب فشل أنظمة الحكم على تنوّع أشكالها، وهل جاءت العولمة مقدّمةً سابقة للأنارشيّة؟

الأنارشيّة.. ما هي؟ المفهوم والدلالات

مصطلح الأنارشيّة منقول عن اللفظة اليونانيّة

وهي اسم موصوف مذكّر يتكوّن من السابق Préfixe للنفي ومن كلمة ومعناها السلطة. إذًا لغويًا، الأنارشيّة هي نفْيٌ للسلطة. والأنارشيّة كعقيدة سياسيّة ترمي إلى إحلال المبادرة الفرديّة مكان سلطة الدولة ونشر دعوتها بجميع الوسائل. والأنارشيّة عند شعب من الشعوب تعني مناهضة الدولة أو تعطيل عملها الشرعيّ؛ ومن مخلّفاتها وإسقاطاتها إرباكُ السلطات الحاكمة وبلبلةُ المجتمع، وهي في بُعدها الفلسفيّ تعمل على إلغاء الدولة وتعطيل أيّ ضغط يُمارَس على الأفراد. وترى الأنارشيّة أنّ حريّة سلوك الإرادات عند

Etymology

New Latin *anarchia*, from Ancient Greek ἀναρχία (*anarkhiā*), from ἀν- (*an-*, "not"), + ἀρχή (*arkhē*, "power, authority").

الأفراد وتصرّفاتهم الكيفيّة وحدها، هي الأساسُ الضامن لسعادة المجموعة وللنظام الاجتماعيّ الحقيقيّ. وكعقيدة فلسفيّة تحملُ الأنارشيّة إيدولوجيّة موزّعة الاتجاهات بتنوّع أقلام من أرْسَوا مبادئَ كيانها وصاغوا أُطروحتها. وهي على العموم موقفٌ فكريّ يتّسم بأقصى حدود الفرديّة، تلك المولّدة للفوضى والبلبلة في المجتمع وفي مؤسّسات الدولة حيث يجنح الأفراد إلى التصرّف على كيفهم وهواهم.

علم الأنارشيّة في أوكرانيا.
غريزة البقاء وكره السلطة والتسلّط دفعا بالفلاّحين والشغّيلة في أوكرانيا إلى الأنارشيّة.

مبادئ الأنارشيّة ومرتكزاتها

«الطبيعة لم تخلق عبيدًا ولا أسيادًا. لا أريد أن أُعطي ولا أن أتلقّى قوانين».هذا ما أكّد عليه Diderot، أحد كبار الفلاسفة الفرنسيّين الموسوعيّين Encyclopédistes في القرن الثامن عشر. وعلى مرتكز هذا المبدأ يقوم كلّ فكرٍ أنارشيّ، ومنه ينطلق كلّ رفضٍ ونكرانٍ للسلطة والحكم. هل هي هنا الواقعيّة أم الأوتوبيّا؟

إنّ الفكر الأنارشيّ يستمدّ أصوله ومنابعه من ذلك الحدث الجلل في الغرب: الثورة الفرنسيّة (١٧٩٣)، وقد أفسحتْ المجال واسعًا أمام المفكّرين والبحّاثة في نقد وتشريح الحكم والدولة كسلطة، وفي شكل مباشر نقد الحكم الثوريّ والسلطة الملازمة له على نحو ما تطوّع له نفرٌ من الثوريّين الفرنسيّين المعروفين يومذاك بـ «المسعورين» les Enragés، والمناهضين للحكومة الثوريّة، المناوئين، الرافضين لها والعاملين على استبدالها بالديمقراطيّة المباشرة، بدءًا من الداعية الإنكليزيّ William Goldwin [١] في كتابه: «بحث في العدالة والسياسيّة وتأثيرها على المناقبيّة والسعادة الجامعة».

Une enquête sur la justice politique et sur son influence sur la vertu et le bonheur universel.

فإنّه من تداعيات الثورة الفرنسيّة وإسقاطاتها نَسَلَ غولدوين خيوط نقده فنَقْضه لسلطة الدولة أو كما أسماها «شبكات الخنوع» filets de l'obéissance الواقفة حاجزًا في طريق التطوّر الحرّ للفرد البشريّ. وعليه فإنّ رفض ديكتاتوريّة أيّ حكمٍ والعمل على إحلال الديمقراطيّة المباشرة مكانه، إنّما يعني تبنّي موقف أنارشيّ فوضويّ بحت، يحمل في طيّاته بذور نشوء ديكتاتوريّة تابعة. وهكذا ندخل في دوّامة دورةٍ مقلقة من ديكتاتوريّة شموليّة إلى ثورة انقلابيّة فديمقراطيّة مباشرة، فأنارشيّة، فعَوْدة إلى ديكتاتوريّة فرديّة أو حزبيّة أو عسكريّة من خلال مجالس عسكريّة تستلم الحكم بصفة المؤقت وتعمل على استدامة حكمها أطول فترة زمنيّة ممكنة. ولنا في ليبيا مع القذّافي وجماهيريّته وكتابه الأخضر ونهايته المأسويّة، وفي تونس مع زين العابدين، وفي مصر مع حسني مبارك وتوالي فصول الثورة في ميدان التحرير، وفي اليمن السعيد ماضيًا، مع عبدالله صالح، لنا مع كلّ هؤلاء وغيرهم من الأقربين والأبعدين خيرُ مثال وعبرة. وهل مَن يعتبر؟.. وهل مَن سوف يعتبر أوانَ تعصف رياح الثورة والتغيير في دوحة أنظمة الحكم الشموليّة في أرض العرب من الخليج إلى المحيط؟

وفي عودة إلى تفشّي ظاهرة الأنارشيّة في أصول نشأتها ومنابعها، نقول إنّ مردّ ذلك إنّما يعود إلى الثورة الفرنسيّة في ما تساقط عنها من تيّارين سياسيّين إشتراكيّين تجاذبا الفكر السياسيّ في ما بعد: تيّار تسلّطيّ عُرف بتيّار Les Jacobins وآخر تحرّريّ متفلّت Libertaire تمثّل بالأنارشيّة بحسب مقولة أحد روّاد الأنارشيّة D. Guérive.

(١) William Goldwin (1756- 1836), Une enquête sur la justice politique et sur son influence sur la vertu et le Bonheur universel.

Sebastien Faure (١٨٥٨- ١٩٤٢)
مبتدئ يسوعيّ ثمّ أصبح من أكثر المناضلين حماسةً للعقيدة الأنارشيّة التي بشّر بها في فرنسا.

Kropotkine (١٨٤٢- ١٩٢١)
رفض في البداية العقيدة الماركسيّة ثمّ أصبح منظّرًا وداعية للأنارشيّة العلميّة.

Bakounine (١٨١٤- ١٨٧٦)
أنارشيّ روسيّ ملتزم. برهن في كتابه (الدولة والأنارشيّة) (L'Etat et l'Anarchie) أنّ كلّ سلطةٍ، حتّى الثوريّة منها، تخون الشعب.

دعاة الأنارشيّة أو نحو المجتمع المثاليّ

انتشر التيّار التحرّريّ المتفلّت على يد دعاة ملتزمين أشهرهم Auguste Blanqui (١٨٠٥- ١٨٨١) مؤسّس وناشر جريدة Ni Dieu ni Maître، ومعه Victor Considérant (١٨٠٨- ١٨٩٣) الداعي إلى مجتمع مثاليّ رافض لكلّ الضغوط والقوانين، فكتب يقول: «نعم.. المجتمع البشريّ ذاهبٌ باتجاه الاستغناء عن النظم والقوانين والسلطة، ولن يقيّض له الارتقاء إلى كماله العضويّ إلاّ بوصوله إلى هذه المرتبة... التوافقيّة والحريّة يحلاّن مكان السلطة».

«Oui, la société humaine se passera des lois et de pouvoir. Elle n'aura atteint sa perfection que quand elle en sera là... l'Accord et la liberté remplaceront le pouvoir».

وثالثهم الأثافيّ كانت مع Proudhon وكانت له اليد الطولى في بلورة مبادئ الفكر الأنارشيّ من خلال مؤلّفاته.(٢)

في ٢٨ أيلول ١٨٦٤ انعقد في لندن اللقاء التأسيسيّ للمؤتمر الدوليّ الأوّل للشغيّلة، وبرز فيه للتوّ التنافس الحادّ بين مختلف التوجّهات، فتعرّضت الماركسيّة لانتقادٍ لاذع من قِبَل إحدى أقوى الشخصيّات الأنارشيّة ميشال باكونين(٣) (Michel Bakounine) الذي ركّز في مداخلته على الفكرة القائدة والموجّهة للعقيدة الأنارشيّة وهي الرفض القاطع للسلطة. إنّه يرفض جازمًا تحويل الدولة البورجوازيّة إلى دولة حكم البلوريتاريا، لأنّ ذلك يعني ببساطة الانتقال من ديكتاتوريّة البورجوازيّة إلى ديكتاتوريّة البلوريتاريا. في كتابه Dieu et L'Etat يؤكّد باكونين على مبدأ محوريّ أساسيّ أن لا إمكانيّة لوجود دولة من دون دين، فإذًا مع نقض الدولة إنّما وجب أيضًا نقض الله، ذلك أنّ فكرة الله تستدعي الاستسلام: استسلام العقل واستسلام الحريّة الانسانيّة. فكرة الله هي النفي الأكثر حدّةً للحريّة الانسانيّة، وأنّه باسم الحريّة وجب رفض الدولة وإلغاؤها؛ فالدولة يقول باكونين، ما هي إلاّ مجرّد أداةٍ للاستعباد وليس لنموّ الانسان وازدهاره. الهدفُ هنا بسيط يقول باكونين: « امتلاك الحريّة امتلاكًا كاملاً وتحقيق التقدّم الماديّ والفكريّ والأخلاقيّ عن طريق إشاعة التضامن الاقتصاديّ والاجتماعيّ بطريقة عفويّة وحرّة، وضمن حدود الممكن بين جميع الكائنات البشريّة المقيمة على هذه الأرض». ما يطمح إليه باكونين هو تنظيم وانتظام المجتمع في إطار وحدات Communes وأقاليم وأمم تتشارك بعضُها مع بعض من داخل اتحادات فدراليّة Fédérations وبحريّة تامّة كاملة، وليس تحت تأثير حكم فوقيّ ضاغط يتجاوز هذه الاتحادات. أمّا كيف نقيم هذا المجتمع وما هي الآليّة الناجعة

(٢) Proudhon (Pierre Joseph) (1809- 1965)
Qu'est- ce que la propriété ? 1840
Philosophie de la misère. 1846
De la Justice. 1858

(٣) Michel Bakounine (1814- 1876)
L'Appel aux slaves 1848.
Dieu et L'Etat

المعوّل عليها؟.. عن طريق الكفاح الثوريّ، يجيب باكونين، وعلى وجه خاصّ من ضمن النقابات: «تنظيمات طبيعيّة للجماهير والوسيلة الوحيدة الصالحة والمفيدة حقًّا». وعلى ضوء هذه التوجّهات قام باكونين بتأسيس «التحالف الدوليّ للديمقراطيّة الاشتراكيّة» L'Alliance Internationale de la Démocratie socialiste، وبعده أنشأ حركة «الأخوّة الدوليّة» La Fraternité Internationale.

وانتهى به الأمر في أواخر حياته إلى دعم ونصرة مبدأ العمل الإرهابيّ. وقياساً، جديرٌ بنا هنا- وقبل متابعة البحث- أن نقول بأنّ مبادئ الأنارشيّة وما تنتجه من سلوكيّات الفوضى، مهما أدلجها المنظّرون وفلاسفة الفكر العقائديّ ورفعوها إلى مرتبة العقيدة الشاملة، لا بدّ وأن تنتهي بمعتنقيها وتابعيها إلى مهاوي العمل الإرهابيّ، وهذا ما هو حاصلٌ في ما نسمّيه اليوم بالأصوليّات والإرهاب في العالم.

ولقد يبدو واضحًا في خلاصة القول أنّ أفكار باكونين ومواقفه جاءت متأثّرة إلى حدٍّ بعيد ببراغماتيّة الفكر الماركسيّ المتصلّب، في حين أنّ خلفاءه انتهجوا نهجًا مغايرًا ومختلفًا أمثال[٤] Pierre Korpotkine و[٥] Malatesta. فقد اتّبع الأوّل، ولقبُه «أمير الأنارشيّة» النهج العلميّ الصرف في كتاب له بعنوان: «العلم المعاصر والأنارشيّة» La science moderne et l'anarchie. والكتاب في واقعه أعمالٌ تطبيقيّة لمبادئ وقواعد مستوحاة من سَبنسَر داروين وأوغست كنت. يقول Kropotkine: «إنّ الكون مادّةٌ في تطوّر حرّ ومستديم. الذرّات والكواكب كما الكائنات البشريّة تتآلف وتتشارك على قاعدة الأنارشيّة».

إلى هنا.. ولا بدّ اليوم من التوقّف والرهبة لنقول ونعتبر: أليست العولمة اليوم وما تساقط عنها من نظريّات ومبادئ وشعارات من مِثل النظام العالميّ الجديد والشرق الأوسط الجديد أو على الأخصّ ما أسموه بالفوضى المنظّمة.. أليس هذا وذاك من تركة الفلسفات الأنارشيّة ومخلّفاتها الإرثيّة. إنّ أنظمة الحكم في العالم، لاسيّما في المشرق العربيّ ومغربه، تلك المتداعية أو الآخذة بالتداعي والمترنّحة بين عصف الدكتاتوريّات ولفحات الديمقراطيّات الخادعة.. كلّ هذه الأنظمة، إنّما تسلك هي اليوم مهاوي الانحدار والانزلاق والتهافت في فوضى الأنارشيّات المتنوّعة كمًّا ونوعًا. أليس هذا ما سوف نشهده ونشهد عليه بعد أن تهدأ عاصفةُ الحراك المريب والغليان المقلق في غير مكان من الأقطار العربيّة شرقًا وغربًا؟!.. ثمّ أليست العولمة وما تساقط عنها من نظريّات ومبادئ وشعارات من مثل النظام العالميّ الجديد أو الشرق الأوسط الجديد، أو على الأخصّ ما تسمّى بالفوضى المنظّمة.. أليس كلّ ذاك وذلك من تركة الفلسفات الأنارشيّة ومخلّفاتها الإرثيّة.

ونعود إلى Kropotkine. فإنّ أفكاره قد تشكّل موضوع نقدٍ ونقاشٍ ومجادلة، وذلك يبيّن لنا كم من اتّجاهات يأخذها الفكر الأنارشيّ في حال توسّعنا في بسط مضامينه. يبقى الثابت أنّ ماركسيّة Bakonine والاتجاه العلميّ الصرف عند Kropotkine يلتقيان عند المنعطف ذاته: الشعور المتنامي بعد الرضى مع الرفض والمقاومة ومنهما إلى الانتفاضة فالثورة.

في سيبريا يكتشف Kropotkine ما يعانيه المنفيّون والمحكومون من ذلّ أوضاع مذرية، الأمر الذي ولّد في داخله حالة الرفض لنظام هذه السلطة التي تذلّ الكائن البشريّ وتستهين به. كلّ هذا دفعه بدءًا من ١٨٧٢ إلى أن يتبنّى الالتزامَ بالكفاح والنضال الثوريّ. في عام ١٩١٩ يلتقي لينين فيُفصح له عن معاداته لأيّ شكلٍ من أشكال ديكتاتوريّة البرولتاريا. في أعقاب هذا الرفض للسلطة المتسلّطة، أصدر Kropotkine كتابه «أخلاقيّات الأنارشيّة La Morale Anarchiste».

الموضوع بسيط. ما هو هذا الشعور الأخلاقيّ الذي يأتينا عند كلّ خطوة؟ الجواب كذلك بسيط: الأخلاقيّة هذه، ما هي إلاّ لؤم ومخادعة. ويتابع مفسّرًا: الأخلاقيّة هذه التي يبشّر بها الدين ويدعو إليها القانون والشرع لم تفعل سوى تحوير المبادئ الأساسيّة للتضامن الانسانيّ بغية تحرير تعاليم تصبُّ في مصلحة المتحكّم والمستثمر ورجل الدين. مثل واقع هذا الأمر يفرض أن نعود فنمتلك هذا المبدأ الأخلاقيّ في جوهره. هنا تكمن خصوصيّة ميزة الفكر

(٤) Pierre Kropotkine (1842- 1921)
Paroles d'un révolté 1885
L'Anarchie, sa philosophie, son idéal 1896

(٥) Jules Vallès (1832- 1885)
Le Cri du peuple
L'Argent, La Rue

بعد مرحلة أفول، عادت الأنارشيّة لتظهر مع المدافعين عنها، لاسيّما في الأوساط العمّاليّة والطلاّبيّة الرافضة. إلى اليمين كوهين بنديت أثناء مؤتمر Carrare.

الأنارشيّ. فالمقصود في الأمر ليس الهدم والتدمير بهدف نشر الفوضى والعدم، بل الهدف المرتجى أن يستعيد الناس ملءَ كينونتهم الانسانيّة الحرّة، وفي وضعيّةٍ كهذه استرجاع ملء أخلاقيّاتهم الحقيقيّة التي تقضي لا بالانصياع والانقياد الكامل والخضوع للتسلّط، بل وعلى العكس تمامًا بلزوميّة الحراك والتحرّك والعمل كي نترك لدفق الحياة في الفرد أن ينمو ويزدهر. هذه الفكرة تنبع من مفهوم معيّن خاصّ لمكامن الطبيعة البشريّة. ولمزيد من التبصّر والتأكّد يكفي الاطّلاع على ما ورد على لسان Malatesta في كتابه بعنوان «الأنارشيّا» حيث يرى الكاتب أنّ جوهر الانسان يكمن في طبيعتين: الطبيعة الأولى أي الصراع والكفاح، غير مؤهّلةٍ لتوفير الأمان وهناءة العيش للأفراد، وحدها الثانية- طبيعة التعاون- كفيلة بذلك.

ويبقى هناك من يتساءل ويسأل ما إذا كان من الممكن الإلغاء الكامل لنـزعة التسلّط والسيطرة... أفلا يدلّ التاريخ على تعذّر هذه الإمكانيّة؟

ويجيب Malaltesta بما معناه: الهيمنة أو السيطرة خاضعة لمبدأ المشاركة Association. أمّا الأوضاع الراهنة فليست سوى انحرافٍ عن مسار تطوّر البشريّة ومبدأها الجوهريّ الذي هو التضامن Solidarité.. «.. التضامن، أي الانسجام بين المصالح والمشاعر، إنّما هو تعاون الواحد لخير المجموع، وتعاون المجموع لخير الواحد الفرد. مثل هذه الوضعيّة تبقى الحال الوحيدة التي يتمكّن الانسان من خلالها أن يفسّر طبيعته وبواسطتها يرتقي إلى أسمى درجات التقدّم والتطوّر وهناء العيش، وباتجاه هذه الغاية تمشي مسيرة التطوّر البشريّ».

أمّا الهدف الذي تسعى الثورة لبلوغه، فهو بحسب Malaltesta: «إلغاء الحكومات والملكيّة الفرديّة والأخذ بالحلول الأنارشيّة لفِكّ المشكلات المتعلّقة بالحياة الاجتماعيّة، ما يعني التحرّك والعمل المباشر من قِبَل من يهمُّهم الأمر أسوةً بما يجري في الاتفاقات التوالفيّة الحرّة».

عن هذا الواقع انبثقت الحركة الأنارشو- نقابيّة Anarcho-Syndicalisme أو النقابيّة الثوريّة Syndicalisme révolutionnaire. ومضتْ عقود من الزمن أفل خلالها نجم الحركات الأنارشيّة، ثمّ ما لبثتْ أن استعادتْ حراكها في أوساط الشبيبة، وكان لها مناصروها في أوساط العمّال والطلاّب وأبرزهم دانيال كوهين بنديت. وتابع الفكر الأنارشيّ في الغرب مسيرته. فإلى جانب كبار العقائديّين المنظّرين لهذا الفكر أمثال Sterner- Proudhon- Bakounine- Kropotkine، نجد في الحقبة الزمنيّة ذاتها شخصيّات، وإن لعبتْ دورًا ثانويًا على مستوى التفكير الفطريّ، إلاّ أنّها بقيتْ تجسّد المثال المحتذى به لفهم جوانب من الفكر والمواقف الأنارشيّة. هذا كان شأن Sebstian Faure, Louise Michel. وهذا الأخير المختزن وهج أنوار إيمانه الكاثوليكيّ راوده في البداية حلم الرحيل للتبشير بالانجيل في أوساط شعوب آسيا وأفريقيا، فترك مبتدئيّة اليسوعيّين في Clermant- Ferrand

لأسباب عائليّة، وانخرط في الحياة المدنيّة المجتمعيّة. وهنا كانت لحظة ارتداده الحقيقيّ. وأمام مشهد الظلم والتظلّم الاجتماعيّ واستثمار العمّال الشغّيلة وفقراء المجتمع، وجد نفسه ينقاد إلى الحركة الاشتراكيّة فينتسب إلى حزب العمّال بقيادة Jules Guesde. ثمّ ينفصل عنه رافضًا آليّة الانتظام التراتبيّ الهيارشيّ وقبضة الحكم التسلّطيّ. من هنا راح يحلم بمجتمع لا وجود فيه للدولة والجندرمة ولا للتراتبيّات المؤسّساتيّة ولا للجيوش المستنفرة، مجتمع يرتكز على التضامن الواعي المنشود من قِبل جميع أعضاء المجتمع. قصارى القول كان Sebastien Faure داعيةً للحريّة بلا حدود، تلك التي نادى بها Jules Vallés، ويقول في كتابه La Douleur Universelle أو «الوجع الجامع»: «... هذا الوجع المعمّم هو من ثمار تلك الشجرة التي تنمو باسقةً انطلاقًا من جذع السلطة وفي شكل تظلّمات ثلاث، اقتصاديّة، سياسيّة وأخلاقيّة. وعلى أنقاض هذا الوجع يريد أن يقيم حال السعادة الشاملة ويبني بيئة اجتماعيّة صالحة وسليمة تؤمّن لكلّ فرد نموّه وازدهاره وترقيّه الذاتيّ».

الخلاصة الخاتمة

تداعيات العقيدة الأنارشيّة

في منتهى هذه الدراسة (التي شئناها كافيةً وافيةً) عن المذهب الأنارشيّ في مبادئه ووقائعه، في أفول نجمه عبر الزمن وعودة طلائعه في نهايات القرن العشرين ومستهلّ القرن الواحد والعشرين، هل بقي لنا من كلام مستزاد؟.. نقول نعم! إنّنا اليوم على صعيد الواقع البرغماتيّ وعلى مساحات الممارسات الثوريّة في العالم: الأصوليّة منها والمتعقّلة، نشهد ونشاهد آثار وندوب هذا الفكر الأنارشيّ السابق وصفُه، كما نعثر على بقايا بذوره نمتْ وتنمو في خلفيّة كلّ الانتفاضات والاحتجاجات والثورات وظاهرات الرفض والمعاندة وحركات التغيير الأصوليّة والانفصاليّة من الصومال والسودان وأفغانستان إلى دول المشرق العربيّ وبعض المغرب العربيّ في تونس ومصر واليمن وسوريا، والحبْلُ على الغارب، وبعيدًا في الزمن مع بدايات الثورة الروسيّة التي لم تكن ثورة بولشفيّة وحسب، وإنّما ثورة تحرّريّة بحيث أنّنا لو استقرأنا التاريخ لوجدنا أنّه منذ ١٩٠٥ راحت تتوالد في مصانع بطرسَبوغ وبتشجيع من Voline[٦] تجمّعاتُ تنظيمات من نوع جديد تحت مسمّى سوفيات Soviets. في هذه التنظيمات يجري تطبيق المبادئ الأساسيّة للديمقراطيّة المباشرة حيث تتّخذ القرارات من قِبَل مَن يعنيهم الأمر، أو كما قال تروتسكي: «أنشطة السوفيات إنّما هي تنظيم للأنارشيّة». ولا ننسَ هنا أنّ انتفاضة أوكتوبر ١٩١٧ في روسيا إنّما جاءتْ باسم الأنارشيّة، واستجابةً لندائها ودعوتها. ثمّ يأتي لينين والحزب البولشفيّ وتصدر أوامر وتُنشر بلاغات هي من السمات الخاصّة بالأنارشيّة من مثل القول المشهور: السلطة كلُّ السلطة للسوفيات Tout le pouvoir aux Soviets.

من روسيّا إلى إيطاليا مع المجالس العمّاليّة (١٩١٩- ١٩٢١)، إلى إسبانيا الثورة كلُّها كانت محاولات جديّة لتحقيق ثمّ ترسيخ الفكرة المركزيّة للأنارشيّة، ألا وهي الإدارة الذاتيّة L'autogestion.

في ختام هذه الدراسة، وفي زوايا مجريات ما أسمَوه بالربيع العربيّ وإحداثيّات الحراك الجماهيريّ، نخلص إلى القول: يستطيع المرءُ أن يسترسل طويلاً في البحث والتحليل والنقاش والاستنتاج- والعربُ أساطين شطّار في هذا المجال..- إنّما يبقى السؤال المقلق: باسم أيّ فكر يجري نهرُ الحراك هذا، إن لم يكن باسم الأنارشيّة- فَهِمَ العربُ أم لم يفهموا! لِكلّ ذلك كانت هذه أضواء في نفق الربيع العربيّ.

[٦] Voline (1882- 1945) أنارشيّ روسيّ قُبضَ عليه ونُفي إلى سيبيريا لاشتراكه في ثورة ١٩٠٥. عضو فاعل في الحركات الأنارشيّة. ناضل لتوحيد هذه الحركات. اعتقله البولشفيّون. أُفرج عنه ونُفي إلى ألمانيا ثمّ إلى فرنسا حيثُ ساهم في تأليف وصياغة الأنسكلوبديا الأنارشيّة L'Encyclopédie Anarchiste.

الأصوليّة الإسلاميّة: ماهيّتها ودورها المتجدّد مع الثورات العربيّة*

منذ نهاية العام ٢٠١٠ شهدت المنطقة العربيّة حراكًا مجتمعيًا فريدًا من المحيط إلى الخليج سميّ الثورات العربيّة. هذا الحراك لم يأتِ بفعل أهداف فرديّة أو أطماع سياسيّة، بل كان نتيجةً لسنواتٍ من القهر، والظلم، والتعذيب. اليوم وإن كانت الثورات قد بدأت بالخمود في بعض البلدان، فنتائجها لا تزال غامضة، وعلامات الاستفهام تُطرح حول مستقبلها. قد تكون نهايتها سعيدة للبعض، فالثورات أطلقت سراح العمل السياسيّ، وبالتالي أصبحت الساحات تعجّ بتحرّكات داخليّة ومشاريع وأحلام كثيرة. أما بالنسبة للبعض الآخر فقد أدّت هذه الثورات إلى الفوضى وتجلّي شريعة الغاب وضياع فكريّ/ أيديولوجيّ، من تجلّياته بروز نجم الأصوليّات الإسلاميّة.

إنّ الربيع العربيّ لم يضع المنطقة تحت مجهرٍ سياسيّ فحسب، إنّما عمد المحلّلون أيضًا إلى النظر في التحرّكات بمقاربات حقوقيةّ، فكريّة، إجتماعيّة، ومن ضمنها موضوع أساسيّ هو دور الأقليّات الأثنيّة، الدينيّة، والثقافيّة في ظلّ هذا التغيير الكبير. في تونس، على سبيل المثال، لعبت الأقليّة اليهوديّة دورًا مهمًا في «شقلبة» الأرقام والتوقّعات، فكان لهؤلاء الذين يشكّلون أقليّة صغيرة مجرّدة من حقوقها السياسيّة، دورٌ فاعلٌ في الثورة من أجل تحقيق وتأمين حقّهم في العمل السياسيّ[١]. وهذه هي حال الأقباط أيضًا في مصر، الذين كانوا كالعديد من أقليّات المنطقة يفاوضون قبل الثورة حول حقوقهم من أجل تأمين سلامتهم وأمنهم، وانضمّوا إلى الحركة الثوريّة بعد فشل نظام مبارك في تأمين الحماية لهم لممارسة طقوسهم وحقوقهم السياسيّة[٢]. ولكنّ هذه الأقليّات كما العديدُ من المواطنين فوجئوا بأنّ ما بدأ كحركة تقدميّة إصلاحيّة في نهاية العام ٢٠١٠، انتهى إلى صعود الحركات الأصوليّة المتخفّية تحت سياسات الأنظمة الفاسدة والظالمة، ما تسبّب بقلق المواطن على مصيره ومصير المبادئ الذي ثار من أجلها.

وعليه، يحاول هذا المقال أن يوجز إجاباتٍ عن بعض الأسئلة الأساسيّة التي تتبادر إلى ذهن كلّ من يرى هذا الصعود السريع للأصوليّات: ما هي الأصوليّة تحديدًا ؟ هل هي حركة واحدة؟ ما هي أسباب هذا الظهور السريع بعد الثورات العربيّة؟ وما مستقبل المنطقة في ظلّ الشعارات الأصوليّة؟

ماهيّة الأصوليّة الإسلاميّة

لا بدّ من البدء بتحديد مفهوم الأصوليّة: مفردها أصل، والأصل في لسان العرب «سُفل كلّ شيء، وجَمعه أصول لا يُكسر على غير ذلك»[٣]. إنّ «الأصوليّة» في المطلق هي حركة الدّعوة للعودة إلى الأصول والجذور السياسيّة لدين معيّن، وهي موجودة في كلّ الأديان وكلّ المذاهب. وترتبط هذه الدعوة بإيمان غير قابل للنقاش بصحّة الدين المتّبع، وبكون كلّ شيء لا يتلاءم مع هذا المعتقد خاطئ. فالأصوليّة المسيحيّة على سبيل المثال هي اعتبار الدين المسيحيّ الدينَ الصحيح، وأنّ على كلّ أوجه الحياة أن تتأقلم مع هذا الدين ومفاهيمه ونظرته للأمور. وهنا، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ «الأصوليّة» مصطلحٌ بدأ تداوله في الغرب دلالةً على

(١) شيلفر، جيل "Tunisian Jews feel safe under new government" جيروسلم بوست، ٨ آذار ٢٠١١ http://www.jpost.com/MiddleEast/Article.aspx?id=211296

(٢) ساندرز، إدمون "Egypt's Coptic Christians fear life without Mubarak"، لوس أنجلس تايمز، ٣ شباط ٢٠١١، http://articles.latimes.com/2011/feb/03/world/la-fg-egypt-coptics-20110204

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادّة أصل.

* دراسة قام بها الطلاّب جيسيكا حلاّق، أدريانا بوديوان وجورج غالي بإشراف د. إيلي الهندي.

إيمان بعض الانجيليّين بالكتاب المقدّس ككلمة الله الخالدة، إلاّ أنّه اتّخذ لاحقًا بعدًا عالميًا، يختلف من بلد إلى آخر، ومن سياق إلى سياق. وهذه الأصوليّة، بحدّ ذاتها وبالمطلق، ليست أمرًا سيّئًا أو مؤذيًا، إلاّ إذا اقترن بتكفير الآخر غير المؤمن وإدانته أو حتّى إباحة مقاتلته أو قتله. هنا تكمن المشكلة.

فبينما يقدّم الكثير من الأصوليّين من مختلف الأديان أنفسهم كأناس مؤمنين يسعَون لعيش مفاهيم إيمانهم من دون إدانة أحد، وإن كانوا يسعَون إنطلاقًا من حرصهم على هداية الآخرين إلى الطريق القويم، فإنّ أصوليّين آخرين يسعَون الى فرض رأيهم على الآخرين أو تحليل قتلهم إذا لم يهتدوا. وما زال النوعان موجودين في عالم اليوم في مختلف الديانات، وفي عالمنا العربيّ وفي الأصوليّة الإسلاميّة تحديدًا.

من هم الأصوليّون؟

عندما نسمع بالأصوليّين، غالبًا ما يكون المقصود الأصوليّين الإسلاميّين السنّة، مع العلم أنّ الأصوليّة الشيعيّة موجودة بشكل فاعل أيضًا، وأنّها استلمت السلطة في بلدين على الأقلّ وتمارس حكمها من موقع الدولة، وهو ما لم تتمكّن الأصوليّة السنيّة من تحقيقه قبل الثورات العربيّة.

الأصوليّة الإسلاميّة السنيّة هي الدعوة للعودة إلى القرآن الكريم، والسّنة النّبويّة كونها النّصوص الإسلاميّة التّأسيسيّة. هذه الحركة تدعو إلى تفكيك البنية التأسيسيّة للتّاريخ، وإعادة بناء المجتمع الإسلاميّ وإقامة العدالة الاجتماعيّة فيه، والدّولة الإسلاميّة ونظام الحكم العادل فيها، والمسائل المتفرّعة عنها كالزكاة والضّرائب والشّورى وسلطة الأمّة والحاكميّة[٤]. إنّ الاصوليّة الإسلاميّة تستمدّ مشروعيّة طرحها من القرآن والسنّة، فهي حركة تدعو للعودة إلى أصول الدّين، وعدم الالتزام بالتّطوير التّاريخيّ للفكر الإسلاميّ، فمشاكل الأمّة الإسلاميّة لا يمكن حلّها إلاّ بالعودة إلى الينابيع الأصليّة ورفض المظاهر والأفكار غير الإسلاميّة. فهدف الأصوليّة «إعادة الإسلام بأكمله إلى السّيطرة على جميع أوجه الحياة»[٥].

الأصوليّون الأوائل هم دينيّون بالدرجة الأولى، رمت كتاباتهم إلى صيانة الدّين وإثبات أن لا تعارض بين العقائد الإلهيّة والعقل، أو سخّروا العقل ومنطقه للذبّ عن العقيدة والايمان بها[٦]. أمّا الأصوليّون اليوم فهم سياسيّون أوّلاً و أخيرًا. ترمي طروحاتهم إلى إعادة بناء المجتمعات وأنظمة الحكم فيها وفقًا لتعاليم الإسلام. فالأصوليّون بعد الصّدر الأوّل هم علماء الكلام وأئمّة الفقه، والأصوليّون بعد ثورة الإمام الخميني هم زعماء الحركات الدّينيّة الإسلاميّة وأعضاؤها الذين يدعون إلى بناء الحياة المعاصرة وفقًا لتعاليم الإسلام وأصوله.[٧]

أنواع وفصائل الحركات الأصوليّة

إنّ التغيّرات الحالية في المنطقة سمحت، بطريقة غير مباشرة، بتوسّع أو تقدّم بعض الحركات الأصوليّة، وظهورها إلى العلن بعد أن كانت في بعض الأحيان مستترة. اليوم لهذه الحركات الأصوليّة أهداف مختلفة ودور مهمّ في تحديد مصير؛ المنطقة فما هو وضعها الحاليّ، وما هي أبرز هذه الحركات الأصوليّة؟

الإخوان المسلمون هم إحدى الحركات الأصوليّة الأبرز اليوم. في مصر أنشأ الإخوان المسلمون حزبًا سياسيّا جديدًا تحت إسم: حزب الحريّة والعدالة، وأصبح حجم وجودهم وتأثيرهم أكثر وضوحًا في تحرّكاتهم بعد سقوط نظام مبارك، وبعد فوزهم بأكبر عدد من المقاعد في الإنتخابات البرلمانيّة الأخيرة.

تأسّس الإخوان المسلمون في العام ١٩٢٩ على يد حسن البَنّا ردًا على الحكم الإنكليزيّ والتغيّرات السياسيّة وفساد الغرب. الحركة مبنيّة على القرآن والحديث النبويّ، وتجسّدت في العمل الاجتماعيّ في وقت كان المجتمع المصريّ يشهد

(٤) سعد، حسن: الأصوليّة الإسلاميّة العربيّة المعاصرة بين النّصّ الثّابت و الواقع المتغيّر. بيروت: مركز مواسات الوحدة العربيّة، ٢٠٠٥.

(٥) أحمد موصلّلي، «مادّة الأصوليّة الإسلاميّة»، في: الموسوعة الفلسفيّة العربيّة،حج ٢، قسم ١.

(٦) علي سامي النشّار، مناهج البحث عند مفكّري الإسلام، بيروت، دار النهضة العربيّة، ١٩٨٤.

(٧) أحمد موصلّلي، «مادّة الأصوليّة الإسلاميّة»، في: الموسوعة الفلسفيّة العربيّة،حج ٢، قسم ١.

اضطرابات. في البداية تمسّك الإخوان المسلمون بمبدأ ألّلاعنف وتمكّنوا من كسب تأييد المجتمع المصريّ، حيث أصبحوا إحدى أكثر الجمعيّات قوّةً. تميّز الإخوان المسلمون بحسن التنظيم واستعمال أساليب الدعاية المختلفة لجذب المؤيّدين. ولكنّ محاولات البَنّا استخدام السياسة لتطبيق الشريعة الإسلاميّة جعل الجماعة تواجه الإضطهاد من قِبَلِ السلطات المصريّة في أواخر الـ١٩٤٠، واستمرّ الوضع على هذا الحال في العقود اللاحقة بحيث اتّسمت بمظاهر وحركات عنيفة من قبل الإخوان. يتواجد الإخوان المسلمون في العديد من البلدان غير مصر مثل تركيا وسوريا وفلسطين ولبنان والأردن والمغرب تحت أسماء وأحزاب مختلفة؛ ففي لبنان مثلاً يعرفون بالجماعة الإسلاميّة، وفي فلسطين بحركة فتح، وفي تركيا بحزب العدالة والتنمية الحاكم. يُعتبر الإخوان المسلمون أصوليّين معتدلين، لأنّهم يقبلون بالنظام الديمقراطيّ والنظام السياسيّ، ويسعَون للفوز بالانتخابات وتطبيق مبادئهم حيث يفوزون. هنا تجدر الإشارة إلى أنّ الإخوان المسلمين في العالم لا ينتمون إلى فكر واحد وقيادة واحدة، بل تَتنوّع تفسيراتهم ضمن الإطار العامّ، ويُحدّد تطرّفُهم بحسب القيادة المحليّة والظروف المحيطة، وقد بدأت بعض الإختلافات تظهر بين المنتمين الى هذا الفكر في كلّ من تونس وتركيا وسوريا ومصر.

إلى جانب الإخوان المسلمين ، هناك فكر أصوليّ آخر شائع في عالمنا اليوم، وهو الحركة السلفيّة أو التيّار السلفيّ. السلفيّون هم مجموعة إسلاميّة سنيّة أصوليّة تؤمن وتعمل على الرجوع إلى أنقى أوجه الإسلام، وترفض أيّ نوع من تجديد أو تحديث للدين. يلجأ السلفيّون إلى استعمال التعليم والعمل للوصول إلى أهدافهم، وليس العنف. لكنّ هناك بعضَ الأقسام من السلفيّين كالسلفيّين الجهاديّين الذين يحلّلون استعمال العنف لتحقيق أهدافهم المختلفة. هناك وجود للسلفيّين في العديد من الدول العربيّة كلبنان والسعوديّة وسوريا ومصر حيث فازوا بثاني أكبر عدد من المقاعد في البرلمان. التيّار السلفيّ أيضًا كبير ومتشعّب إلى عدّة فرق ومجموعات قد لا تتفق دائمًا في السياسة لا بل قد تتواجه عسكريًا حتّى في ظروف معيّنة، وهذا ما هو حاصل اليوم في طرابلس (لبنان) حيث ينقسم السلفيّون بين مَن هو داعم للنظام السوريّ وحزب الله وبين من هو متحالف مع الجماعة الإسلاميّة وتيّار المستقبل.

قسم ثالث من الأصوليّة هو الفكر الصوفيّ الذي يترفّع بمعظم فرقه عن التدخّل في السياسة والأمور الدنيويّة، ويكتفي بإقامة المدارس وإمامة المساجد بهدف هدي المؤمنين إلى طريق التواصل الأمثل مع الله وعيش تعاليمه على أكمل وجه.

أمّا على الصعيد الشيعيّ، فقد برز منذ أوائل النصف الثاني للقرن العشرين حركة نهضة شيعيّة تسعى إلى إعادة الإعتبار للشيعة في بلدانهم وتفعيل حضورهم الإيمانيّ والسياسيّ عبر العودة إلى جذور الدين وتطبيق أحكامه. برز في هذا الإتجاه خطّان أساسيّان نشأ أحدهما في النجف الشريف (العراق) والآخر في قم (إيران)، وسعى الإثنان إلى الهدف نفسه، ولكن مع اختلاف النظرة إلى الوسائل. فبينما اعتبرت مدرسة النجف أنّ تحقيق الهدف يكون بتثقيف الشيعة وتمكينهم وتنظيم أمورهم الدينيّة والدنيويّة بهدف تفعيل حضورهم السياسيّ والاجتماعيّ، اعتبرت مدرسة قم أنّه لا بدّ من ثورة على النظام الذي يتبع المبادئ الغربيّة للإطاحة به وإقامة ولاية إسلاميّة يقودها وليُّ فقيه، يُعِدُّ الناسَ والبلاد ويسوسها على أحسن ما يمكن إلى أن يأتيَ المهدي المنتظر. وعليه، فإنّ ولاية الفقيه تشمل مختلف جوانب الحياة من دون استثناء، وهي تَحكم بوحي إلهيّ وبالشورى بين الأئمّة. تمثّلت مدرسة النجف في لبنان بعمل الإمام الصدر في الستينيّات والسبعينيّات، بينما تتمثّل مدرسة قم بحزب الله في لبنان والمجلس الأعلى للثورة الإسلاميّة في العراق.

دور الحركات الأصوليّة بعد الثورات العربيّة

تاريخ المنطقة من الناحية الاجتماعيّة يبرّر صعود الإسلاميّين الأصوليّين بهذه السرعة والتنظيم. فللمنطقة تاريخٌ إسلاميّ شهير لا يمكن لأحد إخفاؤه ونكرانه. ولكن تمّ حجبه في منتصف الخمسينيّات يوم كانت القوميّة العربيّة الناصريّة تهزّ العالم العربيّ بأسره بمبادئها اليساريّة الساعية إلى العدالة والمساواة الاجتماعيّة. لكنّ النشاط الدينيّ السّياسيّ كان وما زال يحرّك عقارب المجتمع حيث ما زال رجال الدين يسوّقون الأفكار الدينيّة والسياسيّة. في الوقت عينه تبرز مفارقة، وهي أنّ الأنظمة القمعية القديمة وعلى مدى عشرات السنين تمكّنت من شرذمة الحركات التقدميّة، الشبابيّة، العلمانيّة الغربيّة الهوى، ولكنّ الجامع والمدرسة الدينيّة اللذين هما جزء أساسيّ من

تكوين المجتمع بقيا الملاذ الآمن للتعبير عن عدم الرضى والغضب، وبالتالي تمازجت الحركات الإسلاميّة وتماثلت مع رفض القمع والظلم والفساد من دون أن تتمكّن أيّة أحزاب أو حركات أخرى من منافستها على هذا الدور. كما ساعد في نموّ هذه الحركات تقديمها للخدمات الأساسيّة والمساعدات العينيّة التي كان يحتاج إليها المواطنون في غياب الدولة وتلهّي المسؤولين بالفساد والصراع على السلطة. ففي لبنان مثلاً نمت الحركات الأصوليّة في الضاحية الجنوبيّة لبيروت، والجنوب والشمال والبقاع والمخيّمات الفلسطينيّة.

مع سقوط الأنظمة القمعيّة لم يكن أيّ طرف مهيّأً لاستلام السلطة أو قيادة الشعب أو حتّى خوض الإنتخابات بفاعليّة سوى هذه الحركات الأصوليّة، فكانت النتيجة الطبيعيّة أن تكتسح هذه الحركات المقاعد النيابيّة وتستلم السلطة. هنا يبرز التحدّي أمام هذه الحركات في التوفيق بين ما تدعوا إليه وبين واقعية إدارة السلطة وتأمين الإزدهار وتفعيل الإقتصاد والتواصل مع المجتمع الدوليّ وغيرها من الأمور التي يسهل انتقادها ويصعب التعاطي معها من موقع المسؤوليّة. فعلى الإخوان المسلمين في مصر الاختيار، على سبيل المثال، بين الإبقاء على اتفاق كامب دايفد والحفاظ على السلام والدعم الخارجيّ من جهة، وبين نقده وتأمين البدائل الماليّة والسياسيّة من جهة أخرى. وعليهم الإختيار بين السماحِ بالسياحة والمشروبات والفنادق التي تؤمّن نسبة كبيرة من الاقتصاد المصريّ، أو إيقافِها لاعتبارهم إيّاها فسادًا أخلاقيًا وتأمينِ المدخول البديل للمجتمع والاقتصاد.

من جهة أخرى على الحركات الأصوليّة تحديد موقف واضح وطريقة تعامل مع الحريّات الفرديّة وحريّة الأقليّات. وهذا الموقف لا يزال غامضًا، ولاسيّما إثر ما تشهده بلدان ما بعد الثورات من مشاكل داخليّة وتعدٍّ على الحريّات، وهو موضوع تخوّف كبير لهذه الأقليّات وللمجتمع الدوليّ بشكل عامّ. اليهود في تونس مثلاً، وبالرّغم من مشاركتهم في عمليّة إسقاط النظام، تعرّضوا لهجمات بعد سقوطه، ما يهدّد وجود هذه الأقليّة في تونس وسيشوّه ويغيّر صورة الإنفتاح والتسامح فيها. أمّا الأقباط في مصر، ومع فشل سياسات مبارك في حماية الأقليّات وغياب سيادة القانون، فيتعرّضون من جديد للعنف وانتهاك حقوقهم، ما أجبر البابا شنودة الثالث على الطلب منهم عدم الانجرار إلى الفتنة وعدم المشاركة في الحركات الاحتجاجيّة في الشارع. وفي ليبيا كذلك تعرّضت المقابر المسيحيّة القديمة للتكسير والتخريب. وهذا ما جعل المسيحيّين في سوريا حائرين بين الإنضمام إلى الحراك الشعبيّ الداعي إلى الحريّة والديمقراطيّة وهو نداؤهم ودعوتهم التاريخيّان، وبين الخوف من مصير أسود يجعلهم يتمسّكون بالسيّئ الذي يعرفونه خوفًا من الأسواء الذي لا يعرفونه.

ختامًا، بعد الربيع، صورةٌ جديدة للمنطقة تتنازعها أصوليّة سنيّة من جهة وأصوليّة شيعيّة من جهة أخرى، تجاذبٌ يضع المنطقة على كفّ عفريت وفي عدم استقرار مستمرّ يدفع ثمنه من هم الحلقة الأضعف. إنّ هذه التغيّرات الحاصلة في المجتمع ستخلق ضررًا في العلاقة بين الأقليّات والأكثريّات في المنطقة. ومن بدون شكّ هذه التغيّرات خطرة وحاسمة في مصير المنطقة ومستقبلها. فهل سيزهر الربيع عقدًا اجتماعيًا جديدًا يحترم الحريّة، والكرامة والمساواة بين جميع المواطنين على اختلاف أديانهم وإثنيّاتهم وثقافاتهم؟ أم ستبقى الثّورات العربيّة أنصاف ثورات لا تضرقى إلى طموحات الإنسان العربيّ وتؤسّس لثورات مضادّةٍ في المستقبل القريب؟

آذار ٢٠١٢ عدد ٥٤
ndu spirit

مريم العذراء في التقليد والتراث الشعبيّ اللبنانيّ

د. جميل الدويهي

مقدّمة: العلاقة بين لبنان ومريم في التقاليد والرواية الدينيّة: تعود علاقة الإنسان اللبنانيّ عامّة، والمسيحيّ خاصّة، بمريم العذراء، إلى عهود المسيحيّة الأولى، وامتزجت شخصيّة مريم بحياة اللبنانيّ في بيته، وعمله، وحقله، وفي حلّه وترحاله، فهي الأمّ القدّيسة، والشفيعة الحارسة، والمعينة على الشدائد، والحامية من الأخطار.

وتروي التقاليد اللبنانيّة أنّ مريم العذراء كانت تزور جنوب لبنان، فقد كانت مع ابنها يسوع في قانا الجليل، عندما حدثت معجزته الأولى بتحويل الماء إلى خمر، وهي التي طلبت منه أن يجترح تلك الأعجوبة، وكانت ساعته لم تأتِ بعد: «وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا الْجَلِيلِ وَكَانَتْ أُمُّ يَسُوعَ هُنَاكَ. وَدُعِيَ أَيْضًا يَسُوعُ وَتلاَمِيذُهُ إِلَى الْعُرْسِ. وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ! لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ». قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ: «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ».»[١]

وليست تلك المرّة الوحيدة التي وطئت فيها قدما العذراء أرض لبنان، فقد كانت تتردّد إلى تلك المنطقة، وترافق السيّد المسيح في بشارته. وقد ورد في إنجيل لوقا أنّ يسوع كان يأتي إلى جنوب لبنان، ويشفي أناسًا كثيرين من ساحل صور وصيدا: «ثم نزل بهم فوقف في مكان منبسط، وهناك جماعة كبيرة من تلاميذه، وحشد كبير من الشعب من جميع اليهودية وأورشليم وساحل صور وصيدا، فقد جاءوا ليسمعوه ويبرأوا من أمراضهم» [٢]. ويذكر الباحث رونكاليا أنّ يسوع زار قانا الجليل مرّتين على الأقلّ، ومن هناك لجأ مرّات إلى منطقة صور وصيدون في فينيقيا.[٣]

ويؤكّد رونكاليا على أنّ المسيح زار أماكن أخرى في لبنان، كجبل حرمون، والصرفند أو ساريبتا.[٤]

وما يعنينا من هذا الكلام، هو أنّ مريم العذراء التي اشتهر عنها بأنّها كانت ترافق ابنها في تنقُّلاته بين المدن والقرى، قد تكون جاءت معه عدّة مرّات إلى لبنان. ويَعتقد أهالي الجنوب، وبلدة مغدوشة خصوصًا، أنّ مغارة المنطرة القريبة من بلدتهم، هي المكان الذي كانت تنتظر فيه العذراء مع يوحنّا الحبيب ابنها يسوع فيما كان يبشّر في الجنوب اللبنانيّ. يقول رياض حنين: «إنّ مقام سيّدة المنطرة يقع داخل مغارة على ربوة في بلدة مغدوشه (قضاء صيدا). واسم سيّدة المنطرة جاء من تقليد يقول إنّ السيّدة العذراء مريم أوت إلى هذه المغارة تنتظر، أي «تنطُر» بالعاميّة، عودة المسيح من زيارة مدينة صيدا».[٥]

وقد اكتشف الأهالي مغارة المنطرة بالصدفة، فبينما كان أحد الرعاة يرعى قطيعه في المنطقة، سقط له جدي في فوهة سقف المغارة، ولمّا حاول إنقاذه، شاهد بصيص نور، فاقترب ليرى ما في الكهف، فإذا هو أمام صورة لمريم العذراء مرصّعة بالذهب، موضوعة على مذبح داخل المغارة، فأذاع الراعي الخبر بين الناس، وتحوّل المكان إلى كنيسة متجدّدة.[٦]

ويُرجّح أنّ المغارة كانت كنيسة في القرن السابع أو الثامن الميلاديّين، وقد يكون الناس في المنطقة تعبّدوا لمريم العذراء في ذلك الزمان، وجعلوا كنيستهم في مكان لا يعرفه أحد سواهم.

وتذهب بعض التقاليد اللبنانيّة، وبعض الباحثين أيضًا، إلى القول إنّ مريم العذراء ولدت في لبنان، وانتقلت بعد ذلك إلى الناصرة، حيث نزلت عليها البشارة. ويؤكّد الشيوخ في قانا والمنطقة المحيطة بها أنّ مريم العذراء ولدت في منطقتهم، ونشأت في ربوعها، ثمّ انتقلت فيما بعد إلى بلاد الجليل.[٧]

وقد اكتُشفت في منطقة القلَيْلَة القريبة، أضرحة تعود إلى آل عمران، أهل مريم العذراء، فـ«مقام عمران» (يواكيم) موجود في مكان قريب من قانا. وكانت هناك مزرعة تحيط بالمقام تدعى مزرعة عمران. وهذه المزرعة اندثرت في أوائل القرن الماضي، ولم يبق منها سوى معالم قليلة. جاء في الموسوعة اللبنانيّة: «تقع القليلة في قضاء صور...تُضمّ إليها مزرعة عمران».[٨]

ويؤكّد الأب يوسف يمّين أنّه «لو كانت مريم من الناصرة أو من فلسطين، لكان بقي ولو أثر بسيط من أضرحة والديها، أو أهلها، أو أحد أقربائها، وأنسبائها. كلّ هذه الأضرحة موجودة في جوار قانا الجليل اللبنانيّة».[٩]

ويتماشى ما يذهب إليه الأب يمّين مع معتقدات شعبيّة سائدة في المنطقة، بأنّ العذراء من لبنان. كما يتماشى مع ما جاء في التوراة من أنّ العروس (التي ستحبل من الروح القدس) هي من لبنان: «هلمّي معي يا عروس من لبنان».[١٠]

وسواء كانت العذراء من لبنان أم من فلسطين، فلا شكّ في أنّها كانت تتردّد إلى الجنوب اللبنانيّ، وقد نشأت بينها وبين اللبنانيّين علاقة وطيدة، هي علاقة الوالدة بالأبناء، فلا تكاد تخلو قرية أو بلدة أو مدينة لبنانيّة، خصوصًا المسيحيّة منها، من كنيسة على اسم السيّدة العذراء، فهي حارسة للبنانيّين وأرضهم ومزروعاتهم وقطعانهم، من كلّ أذى. وهم أيضًا يلجأون إليها في الحروب، ويدعونها في صلواتهم الليتورجيّة بـ«أرزة لبنان»، وبـ«سيّدة لبنان»، وقد بلغ عدد الكنائس والمذابح المكرّسة على اسم السيّدة العذراء في لبنان ١٥٠٠ كنيسة و٣٥٠٠ مذبح.[١١]

وعبرت «سيّدة لبنان» البحار، لترتفع على اسمها الكنائس الفخمة في المغتربات، كما في أستراليا والأميركيّتين. يقول الأب أميل إدّه: «اسم «سيّدة لبنان» اجتاز بلدان الشرق إلى ما وراء البحار، فحيث يحلّ اللبنانيّ، يذكر دائمًا لبنان و«سيّدة لبنان». يذكرها في بيته وعمله، كما يناجيها في فرحه وحزنه. يناديها في عسره ويسره، كما يدعوها في حلّه وترحاله، فأضحت العبادة المريميّة عنصرًا من حياتنا اليوميّة وفصلاً من تاريخ شعبنا».[١٢]

وفي ظلال هذه العلاقة الحميمة بين الشعب اللبنانيّ ومريمه الحنون، يمكننا أن نسأل أنفسنا: كيف استطاعت مريم- بما لها من قوّة ونفوذ في وجدان اللبنانيّ- أن تتغلغل في تراثه اليوميّ، وعاداته المكرّرة، لتصبح جزءًا لا يتجزّأ من شخصيّته الاجتماعيّة؟ وكيف يتعامل اللبنانيّ مع مريم العذراء خارج الإطار الليتورجيّ، أي في حياته العامّة، وبيته، وبيئته الأوسع؟ وما هي المعتقدات التي يعتقدها اللبنانيّون أو يروونها في إطار حبّهم لمريم العذراء؟

العذراء في الحياة اليوميّة للبنانيّين:

يكرّم اللبنانيّون عمومًا مريم العذراء، ويضع اللبنانيّ صورتها في بيته، وعمله، وسيّارته، وحافلة الركّاب التي يستقلّها؛ وفي البيوت القديمة، المبنيّة من حجر، تُعلّق صورة العذراء فوق العتبة العليا، وهي حجر مستطيل فوق باب المنزل. وفي اعتقاد القرويّين أنّ العتبة هي الحدود التي تفصل بين البيت

وصنوف الأذى التي تأتيه من الخارج، سواء تلك التي تسبّبها الكوارث الطبيعيّة، كالأعاصير، أو تلك التي تأتي من الإنسان، كالحسد وصيبة العين، أو تلك التي يأتي بها الشيطان نفسه، كاللعنة او الدنس. ولذلك فإنّ تعليق صورة العذراء مريم فوق العتبة يعني الحماية من الشرور، وفي ذلك حماية أيضًا من العتبة السفلى، التي تعتبر ملجأ للأرواح الشرّيرة، أو الجنّ، فالجان لهم ميل خاصّ إلى الإقامة «في البيوت المهجورة، وحول المواقد، وتحت عتبات البيوت».[١٣]

وتعتبر صورة مريم في البيوت والمعابد رمزًا للأمان والاطمئنان، فيسجد اللبنانيُّ المتعبّد أمام الصورة، ويضيء لها الشموع ويحرق البخُور، ضارعًا إليها لكي تحميه وتحمي أولاده وأرزاقه، وتعينه في حياته.

ومن المظاهر التي يكرّم بها اللبنانيّون مريم العذراء إقامة المزارات أمام البيوت أو عند مداخلها. وكثيرًا ما يعمد اللبنانيُّ إلى بناء مزار للسيّدة العذراء، ويحيطه بالتكريم والوقار، بعد الفراغ من بناء منزله، وذلك تعبير عن شكره وامتنانه للسيّدة التي أعانته على إتمام عمليّة البناء، وطلب للحماية الدائمة منها.

ويعلّم اللبنانيُّون أولادهم منذ نعومة أظفارهم على التعبُّد لمريم العذراء، والأطفال عادة يميلون إلى صورة الأمّ التي تحمل طفلاً، فيهيمون بها، ويذوبون حنانًا لرؤيتها. وتتوحّد في الصورة شخصيّتا مريم والمسيح، فيصيران شخصيّة واحدة، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر.

وعندما يقوم اللبنانيُّ بالأعمال الصعبة، فإنّه يتضرّع إلى العذراء لتعينه في عمله، فيقول: «يا عدرا»، أو يوصي أولاده قائلاً: «اتّكلوا على العدرا». ويورد أمين الريحاني ما يقوله الفلاّح اللبنانيُّ عندما ينوي القيام بعمل ما، فيستنجد بقوّة العذراء: «بقوّة مريم العذراء أقتلع هذه الشجرة (شجرة توت كبيرة)، وبقوّة مريم العذراء أطيح من هذا السطح وأمشي إلى عملي بخير وسلامة».[١٤]

وتشيع في لبنان عادة تعليق الأيقونات المصنوعة من الذهب أو الفضّة أو المعادن غير الثمينة، فتعلّق تلك الأيقونات في الثياب، أو على جدران المنازل، حيث تظهر مسبحة الورديّة، أو أيّ مسبحة أخرى، وهذه المسبحة تتدحرج حبّاتها بين الأنامل الخاشعة، وفي جوٍّ من الصلاة والتقوى. يقول لحد خاطر: «من طاف لبنان، مدنه وقراه، كثيرًا ما يرى هنا وهناك، فلاّحًا أو عاملاً يغدو باكرًا إلى عمله، أو يعود مساء منه، وأدوات العمل على ظهره أو كتفه، من معول، أو محراث ، أو فأس، والسبحة في يده، يقلّب حبّاتها بين أنملاته، متمتمًا عليها صلواته».[١٥]

وقد أنتجت قريحة القرويّ صلواتٍ خاصّة بمريم العذراء، تناقلها الخلف عن السلف، ولا نجدها في الكتب المقدّسة، والصلوات الليتورجيّة. ويروي لحد خاطر أنّ جدّته علّمته صلاة، ليتلوها قبل أن يموت، فتنجّيه من عذاب الآخرة: «وضعت جسمي على الأرض، وسلّمت روحي للربّ، العذراء فوق رأسي، تسعى في خلاصي... يا عذراء يا أمّ النور، يا شعّالة البخّور، اعطيني من كتابك مزمور، أصلّي سبع مرّات في الليل، وسبع مرّات في النهار، وأخلص من عذاب النار».[١٦]

ومن الصلوات إلى مريم أيضًا: «يا مريم، يا نقيّه، بجاه ابنك عليّ، بجاه ابنك والقدّيسين، نجّيني من الخطيّه».[١٧] وتعبّر هذه الصلوات، التي يتزاوج فيها النثر العامّيّ والقوافي الشعريّة (السجع)، عن إيمان عميق بقدرة السيّدة العذراء على تخليص النفس البشريّة من عذاب النار. وهذه الصلوات، على بساطتها، صورة صادقة عن إيمان اللبنانيّين بشفيعتهم الأولى، وثقتهم بها إلى نهاية الزمان.

ويروي أمين الريحاني كيف أنّ القرويّين في بيت شباب يصلّون في حقولهم أثناء قطاف القزّ، فيحوّلون الحقل إلى كنيسة للصلاة: «سمعتهم يرتّلون الصلوات ساعة الغروب، وهم في عملهم بين الأجران والدواليب. ترفع جميلةُ الصوت منهم صوتَها بطلبة العذراء: "كيرياليسون كريستياليسون، يا سلطانة العذارى، يا سلطانة الملائكة...» فيردُّ العمّال، خمسون أو مئة منهم: «تضرّعي لأجلِنا».[١٨]

ويخبر المعمّرون في مناطق كسروان أنّ احتفالات سيّدة الزروع كان لها معنى دينيّ، فكانوا يضعون صورة السيّدة العذراء في وسط الحقل، وعندما تُجمع غمار السنابل، كانوا

يضعون الصورة على غمار القمح ويصلّون للعذراء، باعتبارها حامية للأرزاق والمحاصيل.
وتنتشر في القرى والمدن اللبنانيّة أسماء الفتيات المتحدِّرة من شخصيّة مريم العذراء، كمريم، وماري، وميراي، وسيِّدة، وعدرا... ويضطرُّ الوالد أحيانًا إلى تسمية ابنه باسم ساید، ليقيم توازنًا بين المؤنّث (سيِّدة) والمذكّر، وهذه عادة شائعة في بيوت اللبنانيّين. ويتّجه العديد من المسلمين إلى تسمية بناتهم باسم مريم، تيمُّنًا بالعذراء التي ورد اسمها سبعًا وثلاثين مرّة في القرآن الكريم.[١٩]

وعندما تمرض إحدى الفتيات، يقوم أهلها بإلباسها ثوبًا من أثواب القدّيسات، وكثيرًا ما يكون ذلك الثوب أزرق اللون، شبيهًا بالثوب الذي يعتقد الناس أنّ مريم العذراء كانت ترتديه، وتبقى الفتاة مرتدية ذلك الثوب إلى أن تشفى من مرضها، فيقال: «نُذرت الفتاة لمريم وشفتها من مرضها»، أو: «كانت منذورة لمريم العذراء»...

وتنتشر ظاهرة النذور بكثرة في القرى اللبنانيّة، كأن يخصِّص المرء مبلغًا من المال أو يذبح نعجة، أو يقدِّم بعض ممتلكاته للدير، فإذا فشل في إيفاء نذره كما وعد، تقع به كارثة أو يتعرّض لمكروه، فالنذور عند اللبنانيّ واجبٌ وفاؤها، ولو تأخّر، «فلا يجوز الإغضاء عنه، إلاّ إذا كان في ساعة ضيق»[٢٠]. وقد يكون النذر بناء كنيسة؛ ففي جبيل مثلاً، نذرت إحدى السيِّدات، وهي من قرية المكبوسة، وكانت مصابة بمرض عضال، بأن تبني كنيسة إذا شفيت من مرضها، وبعد أن تأكّد شفاؤها بنت كنيسة صغيرة على الشاطئ، دعتها سيِّدة المكبوسة.

وتسمّى بعض النباتات في لبنان أيضًا بأسماء مريميّة، كزهرة بخّور مريم، وهي زهرة بريّة في الغالب، ذات رائحة عطرة، وتسمّى في بلدان أخرى باسم عصا الراعي. والمقصود من تسميتها باسم بخّور مريم إقامة مشابهة بين رائحة الزهرة الجميلة والبخّور المريميّ العطِر.

ويقوم الأطفال في القرى بصنع عقود وأطواق من أزهار بخّور مريم، ويعلّقونها على صدور أمّهاتهم، كناية عن الطهارة التي تنتقل من مريم العذراء إلى الأمّهات في الأرض.

ولنبتة القوّيسة الشهيرة في الطبِّ الشعبيّ، اسم الميرميّة، أو المريميّة، أو عشبة مريم، وتزرع هذه النبتة في حدائق البيوت بكثرة. وقد ذُكرت هذه النبتة تحت اسم «المريميّة» في معجم النبتات الطبّيّة[٢١]، ما يؤكّد على وجود هذه التسمية في لبنان، وتحديدًا في بعض القرى الجنوبيّة. وهذه التسمية منتشرة أيضًا في المناطق الفلسطينيّة المتاخمة للحدود اللبنانيّة الجنوبيّة.
كما يسمّي بعض سكّان الجنوب، وخوصًا في منطقة رميش، إحدى النبتات الخضراء، ذات الأوراق المستديرة، باسم «خُبز العذراء»، ويأكلونها.

ومن أهمّ الدلائل على العلاقة الوطيدة بين شخصيّة السيِّدة العذراء والإنسان اللبنانيّ، أنّه جعل لها أسماء زراعيّة، فهي سيِّدة الزروع في كسروان، وسيِّدة التلّة في دير القمر، وسيِّدة البطّيخ في صفد البطّيخ (جنوب لبنان)، وسيِّدة الحقلة في سبعل (الشمال)، وسيّدة الوادي في بسبعل (الشمال)، وسيّدة السنبلة في العاقورة (جبيل) وسيّدة البيدر في حصارات (جبيل)، وسيّدة البيادر في عبرين (البترون)، وسيّدة الفلاحة في تنّورين، وسيّدة الحوش في غلبون (جبيل)، وسيّدة البعل (يُقصد بالبعل الزراعات البعليّة) في شربيلا (عكّار) .

وتدلُّ هذه الأسماء على أنّ العذراء كانت، ولا تزال شفيعة المواسم والزراعات، فاللبنانيُّ المزارع أو الفلاّح، يلجأ إليها لكي تحمي محاصيله من القحط أو شرور الطبيعة.

واللبنانيُّ يحتفل بعيد انتقال السيِّدة العذراء، في الخامس عشر من شهر آب، بمظاهر دينيّة واحتفاليّة، فتقام الصلوات، والاحتفالات التي تتخلّلها مظاهر البهجة والسرور. ويرافق العيد في بعض القرى «ولائم ورقص وإطلاق رصاص. وفي قرية بحمدون يذبحون خروفًا (أو أكثر)، ويطبخون بلحمه هريسة تُفرّق على الناس صباح العيد في باحة الكنيسة. وفي جرود اللقلوق، يحتفي به (العيد) المسيحيّون، ويشركهم في بهجة العيد العربان الحالُّون في تلك الجرود، وبعض المسلمين من القرى المجاورة. ولهذا العيد مقام مرموق في خلده، على ساحل البحر، فإنّهم يحتفلون به احتفالاً رائعًا في كنيسة السيِّدة، وبعد القدّاس، تقام حفلة زجليّة يتبارى فيها قوّالو المنطقة».[٢٢]

وفي شمال لبنان، تقام احتفالات مماثلة، فالمتديّنون «يحضرون الزيّاح الذي يقام في هذه المناسبة، والذي يطوف خلاله الكاهن والحاضرون حول الكنيسة أو في شوارع البلدة. أمّا الاحتفال في المناطق الجبليّة، والتي يسكنها الموارنة بشكل رئيسي (قضاء زغرتا- الزاوية وبشرّي والبترون وبعض عكّار) فمميّز، ليلة العيد يسهر الشباب الراشدون على أنغام الطبل والزمر، في حلقات دبكة.... ويدوم الاحتفال حتّى ساعة متأخِّرة من الليل، ثمّ يُفصّل له ملحق صباح اليوم التالي (يوم العيد)».[٢٣]

والواقع أنّ الاحتفال بعيد السيِّدة، يعمُّ جميع المناطق اللبنانيّة، وينام الناس في الكنائس، أو يخيّمون بالقرب منها، وفاء لنذر، أو يقدّمون الأموال لصندوق الكنيسة، ويضيئون الشموع، وتشعشع الكنائس بالأنوار في ليلة العيد. وفي زغرتا، يقوم الأهالي بالسير صعودًا إلى إهدن، مساء العيد (المسافة تزيد عن ستة عشر كيلومترًا)، ويكون بينهم صِبْية، ونساء حافيات. «وفي بعض بلدات بشرّي (كحدشيت مثلاً) تقوم مجموعة من الأهالي بجمع كمّيّة من المال ومن القمح، بهدف تحضير كمّيّة كبيرة من الهريسة، توزع فجرًا على منازل البلدة، فيأكل منها الجميع عند الظهر».[٢٤]

وفي بعض القرى، تُنظّم احتفالات مماثلة، بعيد ولادة السيّدة العذراء، الذي يقع في الثامن من أيلول.

المعجزات المريمية في الوجدان الشعبيّ اللبنانيّ:

لا شكّ في أنّ الشعب اللبنانيّ شديد التعلّق بالكرامات والمعجزات، فاللبنانيّون بطبعهم يميلون إلى القصص الغريبة التي تدغدغ خيالهم. ويتناقل السكّان المحلِّيّون أخبار الكرامات، التي قامت بها السيِّدة العذراء في مناطقهم، ويروونها في مجالسهم، ويشيعونها بين الأقربين والأبعدين، تعبيرًا عن اعتزازهم بإيمانهم، وغبطتهم بقدرة العذراء مريم، رفيقتِهم وشفيعتِهم، على القيام بأعمال جليلة، لا يمكن أن يقوم بها أحد من الناس، مهما بلغ شأنه أو قوّته. وفي التاريخ اللبنانيّ أقاصيص كثيرة عن كرامات العذراء المحارِبة، أو الحارسة، أو المنجّية من الويلات، أو الطبيبة المداوية؛ ففي الحروب، كانت العذراء تدافع عن القرى، وتحمي الأطفال والأمّهات بيديها المفتوحتين. يروي البطريرك الدويهي أنّ سيّدة زغرتا ظهرت في معركة عام ١٦٧٦ بين خيّالة من زغرتا ومقاتلي آل حمادة: «وشهد عبد القادر سيِّد عردات والحاج محمّد قاطرجي خضر آغا أنّهم شاهدوا السيّدة فوق البرج علانية، وهي تصون النصارى بيدها وتطرد المعتدين عليهم».[٢٥]

وفي عام ١٧٦١، يتكرّر مشهد العذراء وهي تدافع عن الموارنة في الشمال، فقد «هوجمت الجبّة من قبل آل حمادة، وآل الحرفوش، على رأس قوّة قوامها ألفا رجل مدجّجين بالسلاح، فخاف الموارنة من هذه القوّة الضاربة، ولكنّ رؤساءهم الدينيّين من كهنة ومطارنة، وعلى رأسهم البطريرك طوبيّا الخازن (١٧٥٦- ١٧٦٦) جمعوا رعاياهم في الكنائس، وشجّعوهم على المقاومة بحماية العذراء مريم، فنُظّمت الأمّة المارونيّة الصغيرة، بمساعدة حاكم الضنّية الشيخ ناصيف رعد، وقيادة بطرس كرم الإهدنيّ، فانتشرت القوة المارونيّة على تلال بشرّي حيث سيمرّ المهاجمون، ووقعت المعركة التي دامت ثماني ساعات. ويقول الأب غودار نقلاً عن كبار السنّ في المنطقة: عند غروب ذلك اليوم، تلبّدت السماء بالغيوم، وظهر قوس قزح امتدّ على طول ساحة المعركة، وخرج منه ممرٌ من النور الأبيض الساطع، مع سيِّدة حاملة السيف، تضرب به الأرض، فصرخ المقاتلون الموارنة: «إنّها السيّدة العذراء، إنّها السيّدة العذراء، أتت لتحمينا». صُعق المقاتلون المتاولة من هذا المنظر، وهالهم منظر السيّدة التي يخافونها بشدّة، فهرولوا هاربين تاركين المعركة فتحرّرت الجبّة».[٢٦]

ويُروى أيضًا عن الشيخ ناصيف أبي نكد، وهو كبير مشائخ دير القمر قبل عام ١٨٦٠ «أنّه كان كلّما أراد الذهاب إلى الحرب، يزور كنيسة سيِّدة التلّة في دير القمر، ويحمل من ترابها شيئًا في عمامته، ناذرًا بأن يخصّها بأوّل زياراته بعد عودته سالمًا، ولم يكن ليرجع عن نذره حين مجيئه».[٢٧]

وكان الحكّام زمن الشهابيّين، يضعون علم البلاد في كنيسة سيِّدة التلّة- دير القمر، ولا يخرجونه منها، إلاّ حين ذهابهم إلى الحروب مع رجالهم.[٢٨]

وتروي التقاليد الشعبيّة اللبنانيّة أنّ يوسف بك كرم، كان يتعبّد للسيّدة العذراء، يصلّي إليها قبل معاركه وبعدها. و كان لا يقطع الصلاة عندما كانت العساكر العثمانية تقترب من مكان تواجده، ولا يخرج من الكنيسة قبل أن يتمّ صلاته.

ويمضي الخيال الشعبيُّ اللبنانيُّ في رواية الكرامات التي صدرت عن مريم العذراء، فبناء بعض الكنائس اقترن بأعمال خارقة، كدير النوريّة (رأس الشقعة - شمال لبنان) يقال بأنّ بانيه ربّان مركب كان قد أتى ليحتمي من رياح الشتاء في الخليج الذي تحته (الجبل البحريّ)، فرأى نورًا غير طبيعيّ، وقد تكرّر هذا المنظر مرارًا، فصعد إلى هناك، وشاهد أيقونة للسيّدة، فأيقن أنّ النور سماويّ، فذهب إلى بلاده، وجمع الدراهم وعاد ليبني الدير[٢٩]. وتعبّر صورة سيّدة النوريّة المعلّقة في الكنيسة عن مشهد البحر العاصف والسفينة في وسطه، والعذراء تحميها.

وحدثت كرامة مماثلة أثناء بناء سيّدة النجاة في بلدة حالات (ساحل جبيل). يروي آل ضوّ الذين بنوا هذه الكنيسة أنّه في عام ١٨٨٥، «ظهرت السيّدة العذراء على الياس فارس ضوّ، وطلبت منه أن يبني كنيسة على اسم سيّدة النجاة، فاستصعب الأمر لعدم توفُّر المال لديه، وعوضًا عن ذلك، بنى مزارًا بسيطًا، كان كلّ ليلة يضيء فيه إناء من الزيت، وكان كلّما عرّج لتفقُّد المزار يجد الإناء منطفئًا، وملقى على الأرض. عندئذٍ طلب من العذراء أن تظهر له مَن يطفئه. وفي اليوم التالي، وجد كلبًا ميتًا وفمه في إناء الزيت، فتوطّد إيمانه، وقرّر أن يوفّر ما أمكنه من المال لبناء الكنيسة».[٣٠]

وفي عكّار بشمال لبنان، وأثناء بناء سيّدة العطايا في بلدة المغراقة، «سقط قالب الباطون فجأة عن علوٍ يزيد عن ثمانية أمتار، وفوقه سبعة رجال، وكانت عائلة مع طفلين تحته تمامًا، ولكنّ الجميع نجوا من تلك الكارثة في شكل عجائبيّ».[٣١]

وفي بلدة أنفه بشمال لبنان، يرتبط بناء دير الناطور الشهير بحكاية شعبيّة توارثتها الأجيال، «وهي أنّ قاطع طريق ظهرت له العذراء مؤنّبة، فصمّم أن يتوب إلى ربّه توبة كاملة، فقيّد رجليه بقيد من حديد، وأقفل القيد بمفتاح صغير، ورماه في البحر، واتّخذ كوخًا قرب البحر... مكانًا للاستغفار والندامة والتوبة. وأمضى الرجل عدّة سنوات في ذلك الكوخ «ناطرًا» رحمة الله. وكان عابرو السبيل وصيّادو الأسماك يزورونه جالبين له الطعام، مطلقين عليه لقب «الناطور». وفي أحد الأيّام، جلب له أحد الصيّادين سمكة كبيرة، فلمّا شقّها، عثر في جوفها على مفتاح القفل، فاعتبر أنّ الله استجاب وغفر له، فتحرّر من قيده، وعاد إلى مجتمعه. ووفاء منه لما حصل معه، بنى ديرًا صغيرًا فوق الكوخ عُرف بدير الناطور».[٣٢]

وعلى الرّغم من أنّ هذه المعجزات والكرامات هي عبارة عن روايات يتناقلها السكّان المحلّيّون، فإنّ لها دلالاتٍ روحيّةً كثيرة، فهي تعبّر عن إيمانهم، وتُظهر لهم في الوقت نفسه عظمة السيّدة الحاضرة في حياتهم، كما توحي لهم بأنّ لا شيء يصعب أمام قوّة الإيمان. ولا تقلُّ أقصوصة سيّدة البير في فتري (جبيل) عمّا سبقها من روايات، فلم يكن في المكان (الذي بنيت عليه الكنيسة فيما بعد) سوى بعض الآثار القديمة وسنديانة، وكانت تكرّم هذه الآثار، تحت اسم السيّدة العذراء. وكان الشيعة يحرقون قطع القماش كنذور، ومن هؤلاء امرأة أرملة. «وفي أحد أيّام الشتاء، قام أحد أبناء هذه الأرملة بقطع أحد أغصان الشجرة لإطعام عنزاته، فكان أن لدغته أفعى في فخذه. وبّخته أمّه على تدنيسه شجرة السيّدة، واعتبرت أنّ السيّدة قاصصته... فكان أن قدّمت لاحقًا المكان مجّانًا لبناء كنيسة».[٣٣]

وإذا نظرنا بعمق إلى فحوى هذه الأقصوصة، كغيرها من الأقاصيص المتجذّرة في المأثورات الشعبيّة والتقليد المرويّ، نجد أنّها تقوم على البساطة في التفكير، والخيال الساذج، واستبعاد الفرضيّات المنطقيّة، فلعلّ الصبيّ تعرّض للدغة الأفعى بحكم عمله كراع في الحقول، لكنّ الأمّ المؤمنة، تضع إيمانها في المقام الأوّل، وتقيم رابطًا بين ما فعله الولد من إساءة بحقّ العذراء، وبين العاقبة التي أصابته من جرّاء ذلك.

ويستحبُّ اللبنانيّون مثل هذه القصص الغامضة التي تدغدغ خيالهم، فيمعنون في سردها، وإضافة وحيهم عليها. وهي لا تنحصر في منطقة دون أخرى. ففي شرق لبنان مثلاً قصص كثيرة تدور في المجتمعات المسيحيّة والإسلاميّة على حدٍّ سواء عن أعاجيب سيّدة بشوات، ويتوافد الزائرون من كلّ صوب وأوب، لزيارة الكنيسة، والتبرُّك بنعمها الوفيرة. وقد حدثت شفاءات كثيرة في سيّدة بشوات، لا مجال لذكرها. كما تروي التقاليد مجموعة من الكرامات، مثل كرامة العمود.

ومختصر قصّة العمود أنّ عمودًا من الرخام الزهريّ كان في كنيسة سيّدة بشوات في حدود عام ١٨٢٥، وأرسل الأمير أمين حرفوش رجاله للاستيلاء على هذا العمود، ليستخدمه في بناء قصر له، فأتى الرجال إلى الكنيسة، وأقتلعوا العمود من مكانه، وحملوه إلى سهل البقاع. وفي الليل انتقل العمود إلى مكانه في الكنيسة. وأرسل الأمير فرقة أخرى من رجاله لتنتزع العمود، فهبّت النيران في كوفيّاتهم، وفرّوا هاربين.[٣٤]

واللافت أنّ القصص التي تروى عن كرامات السيّدة العذراء تقلُّ في المدن الكبرى، وتكثر في القرى، فالقرويُّون عادة يكونون أكثر انضباطًا في إيمانهم، وأكثر تصديقًا أيضًا للأخبار التي لا يفسِّرها العلم. أمّا في المدن، فتنحسر المأثورات الشعبيّة أمام القيم المادِّيّة والعلميّة. كما يُلاحظ أيضًا أنّ بعض أديرة السيّدة العذراء في بعض الأماكن، مثل بشوات، وزغرتا - إهدن، ودير القمر تجترح معجزات أكثر من سواها، مع أنّ العذراء واحدة. وتصل هذه القصص إلى حدّ المبالغة في قرية دون سواها، كما في بلدة زغرتا، حيث سجِّلت لسيّدة زغرتا شفاءات وعجائب كثيرة، ويروي البطريرك الدويهي، وهو من المؤرِّخين الذين يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على التقاليد المحكيّة، أنّه في عام ١٦٥٣، التجأ أهل طرابلس وجبّة بشرّي إلى حماية سيّدة زغرتا من مرض الطاعون والعساكر العثمانيّة... وبشفاعتها لم ير أحد منهم ضررًا، بل شاهدها كثيرون تسير على سطح البرج، وتزجر العساكر المقبلين من ناحية الشمال فيضمحلّون بشبه الدخان[٣٥]. وفي إهدن، يروي الدويهي أنّه عندما كبس الأمير موسى الحرفوش جبّة بشرّي، دخل اثنان من جماعته إلى كنيسة دير رأس النهر في إهدن (حيث توجد كنيسة صغيرة للسيّدة العذراء)، فضرب أحدهما صورة السيّدة بالخنجر، وفي حال خروجه من الدير يبست يده، وفي تلك الليلة مات.[٣٦]

وتأتي أخبار الكرامات والأعاجيب، عن مريم الطبيبة، أو المداوية، من جميع أنحاء لبنان، ففي عكّار مثلاً، تقصد النساء مقام سيِّدة الدرّة في كلٍّ من أكروم وحَبشيت، أملاً في إنجاب الأولاد والرضاعة الطبيعيّة. وقد توارد في الروايات أنّ سيّدة الدرّة لها اختصاص محدّد هو الشفاء من العقم، وانحباس الرضاعة. ويقصد المرضى مقام سيّدة الغسّالة في القبيّات طالبين الشفاء. وقد حدثت في المكان شفاءات كثيرة يرويها الأهالي... وكان أهالي دير القمر يزنِّرون الجدران الداخليّة لسيِّدة القلعة بحبل من خيوط الحرير عند ظهور الأوبئة، التماسًا من العذراء لدرئها عنهم[٣٧]؛ فمريم العذراء انتقلت هنا من صفة المحاربة إلى صفة الطبيب الذي يعطي لقاحًا روحيًّا للحماية من العلل والأمراض المستعصية.

وتتّخذ العذراء في بعض الأماكن، صفة الحامية من الشرور، ففي جبيل مثلاً، تسهر سيّدة البحّارة Maritime على أبنائها الذين يسافرون بعيدًا في البحار. وقد تحوّل الاسم على ألسنة العامّة إلى مارتين، فباتت الكنيسة والمستشفى التابع لها يُعرفان بسيّدة مارتين.

خاتمة:

يبدو ممّا تقدّم أنّ لمريم العذراء مكانة عظيمة في الضمير الشعبيِّ اللبنانيِّ، وقد أصبحت محورًا مهمًّا من محاور الثقافة العامّة، والتقاليد، والمرويّات الجميلة. ولا نكاد نجد مجتمعًا آخر غير المجتمع اللبنانيِّ، يحيط العذراء مريم بهذا القدر من التكريم والتعظيم، فالراعي والفلاّح، والغنيِّ والفقير، والجاهل والمتعلِّم... جميعهم يلتجئون إلى مريم، ويؤمنون بقدرتها على حمايتهم من الأمراض والشرور.

ويترجم اللبنانيُّ إيمانه العميق بمريم العذراء، ليس فقط في الكنيسة، بل أيضًا في المجتمع، والعمل، وفي تربية أبنائه؛ فشخصيّة مريم هي حضور ثابت في الشخصيّة اللبنانيّة العامّة، بل هي في الواقع جزء لا يتجزّأ من يسوع المسيح، الذي يعتبره المسيحيّون عمومًا فاديًا ومخلِّصًا وإلهًا.

وتظهر مريم في تجلِّيات يوميّة، ضمن الإطار الإيمانيِّ الواسع، كرفيقة للّبنانيِّ في داره، وكرمه وبيدره... وهو يربِّي أولاده على محبّتها، لكي تبقى ذخرًا في العائلة، ينتقل من جيل إلى جيل.

ويحوِّل اللبنانيُّ سهوله وبيادره إلى مذابح، يقدِّم أمامها الصلاة والتضرُّعات لمريم العذراء، فالصلاة هي نوع من الفنِّ الممتع الذي يترافق مع حركة العمل، ويقطع رتابة النهارات الطويلة.

وللدلالة على أهمّيّة مريم في الإطار المجتمعيّ، خصوصًا في الأرياف، جعل الناس لها أسماء ذات علاقة بالزرع والحصاد، وهذا يعني أنّهم ربطوا بينها وبين وسائل عيشهم الحيويّة، وجعلوها أمينة على أعمالهم، تحفظها، وتصونها، وتضمن لهم محاصيل وفيرة، لا تبدّدها الرياح وقسوة الشتاء.

وفي الاحتفالات بعيد انتقال السيّدة العذراء، يمزج اللبنانيُّون بين القيمة الليتورجيّة للمناسبة، والمظاهر الاحتفاليّة، من موسيقى، وطرب وغناء. وهذا إنّما يعبّر عن اغتباطهم بانتقال شفيعتهم إلى السماء، لتكون عينًا ساهرة عليهم من هناك.

ولعلّ أهمّ ما يؤكّد شغف اللبنانيّين بالسيّدة العذراء هو الكمّ الهائل من الأعاجيب والكرامات التي قامت بها، بعضُها مثبت في بطون الكتب، وبعضها تتناقله الشفاه، والبعض الآخر يعيش في الذاكرة الجَماعيّة، كمادّة محفوظة من أجيال سابقة. ويمكن القول: إنّ العديد من تلك الأعاجيب المرويّة هي جزء من التراث الشعبيّ، بحيث أنّ الأقاصيص عن مريم المحاربة، أو الطبيبة، أو الحارسة أصبحت نوعًا من الثقافة العامّة للناس، وهم لا يحتاجون إلى الوثائق الكنسيّة المثبتة لهذه الأقاصيص لكي يصدّقوها، كما لا يمكنُهم السكوت عن كلِّ مَن يحاول التشكيك بمرويّاتهم عن طريق العلم.

وبكلمة أخرى، فإنّ حبّ اللبنانيّين لمريم العذراء تحوّل إلى علاقة كيانيّة، وارتباط عضويّ وثيق لا يخضع للمناقشة، وبات رافدًا من الروافد التراثيّة المميّزة للمجتمع اللبنانيّ عن أيّ مجتمع آخر.

المصادر والمراجع

(١) يوحنّا ٢: ١-٥.

(٢) لوقا ٦: ١٧-١٨.

(٣) رونكاليا، مارتينيانو بليغرينو: على خطى يسوع المسيح في فينيقيا، المؤسّسة العربيّة للدراسات بين الشرق والغرب، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٥) حنين، رياض: أسماء قرى ومدن وأماكن لبنانيّة في روايات شعبيّة، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٢٠-١٢١.

(٦) يُنظر: جريدة البلد، عدد ١٤٩٦، تاريخ ٦-٤-٢٠٠٨.

(٧) ينظر: يمّين، الأب يوسف: المسيح ولد في لبنان لا في اليهوديّة، منشورات الجمعيّة الكونيّة، إهدن، ١٩٩٩، ص ٦٤١-٦٤٢.

(٨) مفرّج، طوني: الموسوعة اللبنانيّة، نوبليس، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٩٨.

(٩) يمّين، الأب يوسف: المسيح ولد في لبنان لا في اليهوديّة، منشورات الجمعيّة الكونيّة، إهدن، ١٩٩٩، ص ٦٣١.

(١٠) نشيد الأنشاد ٤: ٨.

(١١) عيد، الأباتي فرانسوا: كنائس ومزارات العذراء في لبنان، في: صابر، أنور: العذراء مريم في لبنان، ج ١، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، بيروت، ٢٠٠١، ص ب.

(١٢) إدّه، الأب أميل: مزار سيّدة لبنان- أثر وطنيّ وديني خالد، مطابع الكريم الحديثة، جونيه، ٢٠٠٣، ص ٧.

(١٣) الأسمر، راجي: المعتقدات والخرافات الشعبيّة اللبنانيّة، جرّوس برس، طرابلس لبنان، غير مؤرّخ، ص ٨٩.

(١٤) الريحاني، أمين: قلب لبنان: دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤٢٧-٤٢٨.

(١٥) خاطر، لحد: العادات والتقاليد اللبنانيّة، ج ١، ١٩٧٧، ص ٢٩.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٠-٣١.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(١٨) الريحاني، أمين: قلب لبنان: دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٧٨، ص ٩٨.

(١٩) النفري، الشيخ محمّد: «البشارة لدى السنّة»، في: بشارة مريم عهد بالحياة والروح، منشورات جامعة سيدة اللويزة، بيروت، ٢٠٠٧، ص ١٢٧.

(٢٠) خاطر، لحد: العادات والتقاليد اللبنانيّة، ج ١، ص ٤٥.

(٢١) أبو نجم، يوسف: معجم النبتات الطبّيّة، مكتبة لبنان ،١٩٩٩، ص ١٢٤.

(٢٢) فريحة، أنيس: القرية اللبنانيّة حضارة في طريق الزوال، جرّوس برس، طرابلس لبنان، ١٩٨٩، ص ٢٧٣-٢٧٥.

(٢٣) معتوق، فردريك: التقاليد والعادات الشعبيّة اللبنانيّة، جرّوس برس، طرابلس لبنان، ١٩٨٦، ص ٩٠.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٢٥) الدويهي، البطريرك اسطفان: تاريخ الأزمنة، تحقيق الأباتي بطرس فهد، مطابع الكريم الحديثة، جونيه، ١٩٧٦، ص ٥٦٣.

(٢٦) كرم، عصام فريد: تاريخ سيّدة بشوات مزارها وعجائبها، ٢٠٠٦، ص ٤٢-٤٣.

(٢٧) خاطر، لحد: المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢٨) ينظر: نعمة، جوزيف، دير القمر عاصمة لبنان القديم، ٢٠٠١، ص ١٧٣.

(٢٩) جريدة البلد، العدد ٢٢٩٤، تاريخ ٢٤-٧- ٢٠١٠.

(٣٠) الخوري، كريستيان: العذراء مريم في لبنان، ج ٧، منشورات جامعة سيدة اللويزة، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٢٦٤.

(٣١) صابر، أنور: العذراء مريم في لبنان، ج ١، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٦٠.

(٣٢) صابر، أنور: العذراء مريم في لبنان، ج ٤، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٥٧-.٥٨

(٣٣) الخوري، كريستيان: العذراء مريم في لبنان، ج ٧، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، بيروت، ص ٥٦٤.

(٣٤) كرم، عصام فريد: تاريخ سيدة بشوات مزارها وعجائبها، ٢٠٠٦، ص ٥١-٥٢.

(٣٥) الدويهي، البطريرك اسطفان: تاريخ الأزمنة، تحقيق الأباتي بطرس فهد، مطابع الكريم الحديثة، جونيه، ١٩٧٦، ص ٥٣٧.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٤٥٦.

(٣٧) نعمة، جوزيف نعمة: دير القمر عاصمة لبنان القديم،٢٠٠١، ص ١٧٢.

الإصلاح الديمقراطيّ في لبنان والعالم العربيّ

أمين ألبرت الريحاني

قد تكون مسألةُ البحث في الديمقراطيّة على المستوى النظريّ مسألةً ضروريّةً ومفيدةً، لكنّها، في لبنان والعالم العربيّ، لا تَفي بالغرض[١]. فالمسألة مسألة ثقافيّة وإنسانيّة واجتماعيّة، قبل أن تكون مسألة فكريّة أو سياسيّة. لذا، ليس من المفيد أن نبحث في تعريفات الديمقراطيّة تاريخيًا وسياسيًا، أو أن نطرح إشكاليّة اختلاف الديمقراطيّة باختلاف الثقافات والشعوب. المسألة عندي مسألة وجدانيّة ترتبط بالضمير الجَماعيّ لمعنى الحريّة، ولمعنى حقوق الإنسان والقدرة على ممارسة الحريّة وعلى تطبيق مبادئ حقوق الإنسان، وهي حتّى الآن من المبادئ التي نرتكب باسمها أبشع الممارسات التي تُطيح بتلك المبادئ والمعايير.

لست هنا في مجال الدفاع المستميت عن الديمقراطيّة، فسبيل النقد واسع على غير صعيد، وأبواب تسجيل المآخذ على عثرات الديمقراطيّة لا تُحصى ولا تُعَدّ، خاصّة في هذا الزمن الرديء، وفي مطلع القرن الواحد والعشرين حيث يَضِيق الخناق على الديمقراطيّة في كثير من أنحاء العالم، فالادّعاءات الديمقراطيّة لا تُحصى ولا تُعَدّ، والممارسات الديمقراطيّة تغلّف العديد من معالم الظلم والاستبداد، بل الحروب الأهليّة والإقليميّة المختلفة.

كانت الديمقراطيّة في مطلع القرن العشرين تحمل مبادئ حقّ الشعوب في تقرير مصيرها، كانت تحمل معاني حقوق الإنسان والحريّات الفرديّة والجماعيّة، أمّا اليوم فباتت الديمقراطيّة قناعًا لجرائم الإبادة الجماعيّة، وحروب الاحتلال والسيطرة وتقويض أرادات الشعوب المستضعفة.

في هذا السياق، وبسبب هذا الواقع الأليم الذي آلت إليه الديمقراطيّة، تتساءل الكاتبة الهنديّة المعاصرة أرونداتي روي، صاحبة كتاب «إله الأشياء الصغيرة»: «هل يمكن أن تكون الديمقراطيّة، وهي الجواب المقدّس عن صلواتنا وآمالنا القصيرة المدى، والحامي لحريّاتنا الفرديّة والمغذّي لأحلامنا الجشعة، هل يمكن لهذه الديمقراطيّة أن تشكّل نهاية اللعبة للعِرق البشريّ؟» [٢] هو سؤال وجدانيّ، أو يقظة ضمير أمام الزمن العصيب الذي تمرّ به ديمقراطيّة القرن الواحد والعشرين.

لذا، فإنّ الحديث عن الديمقراطيّة نفسها قد يكون أقلّ إفادةً من الحديث عن تحدّيات الديمقراطيّة في لبنان والعالم العربيّ. ويمكن اختصار هذه التحدّيات بالملاحظات الآتية:

أوّلاً، في لبنان:

• التحدّيات الطائفيّة تطغى على كلّ معيار آخر لقياس مدى فعاليّة القوى الضاغطة. هذه آفة سياسيّة آن الأوان لمعالجتها بهدوء وموضوعيّة.

• التحدّيات الوراثيّة العائليّة تسهم، من حيث تدري أو لا تدري، في إقصاء عامّة الناس عن المشاركة الفعليّة في صنع القرار. هذه آفة اجتماعيّة آن الأوان لتغييرها بأخلاقيّة رفيعة وهادفة.

• تحدّيات الافتقار إلى نظام انتخابيّ عصريّ يقدّم أفضل صورة تمثيليّة لشرائح المجتمع اللبنانيّ على اختلاف تنوّعاته السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

• تحدّيات إلغاء المداورة في رئاسة المنظّمات غير الحكوميّة. فمن يصل إلى رئاسة حزب، أو نقابة، أو جمعيّة، أو أيّةِ مؤسّسة اقتصاديّة، أو ثقافيّة، أو إعلاميّة، أو اجتماعيّة، يسعى جاهدًا لمصادرة كرسيّ الرئاسة وحصرها بنفسه، دون سواه، مدى الحياة. هذه آفة ثقافيّة تربويّة آن الأوان للتصدّي لها ووضع حدّ نهائيّ لمساوئها.

ثانيًا، في العالم العربيّ:

• تحدّيات النظام. فمعظم الأنظمة العربيّة تتوزّع إلى فئتين: المملكة الملكيّة، أو الجمهوريّة الملكيّة. وفي الحالين يتربّع الحاكم سعيدًا على عرشه لا يغادره إلاّ عند الموت.

(١) كُتِب هذا المقال قبيل بداية «الربيع العربيّ» ببضعة أسابيع. وتنشر مجلّة Spirit تنشر القسم الأوّل منه نظرًا لضيق المكان.

(٢) أرونداتي روي، «ضوء الديمقراطيّة الخافت»، صحيفة النهار، بيروت، ٩ أيلول ٢٠٠٩، ص ١٨.

• تحدّيات الشرعيّة. فمعظم الأنظمة العربيّة لا تستمدّ شرعيّتها من الديمقراطيّة المتحرّرة ولو نسبيًا، ولا حتّى من حركة ثوريّة[٣] قادرة على إنتاج نظام عصريّ ثابت يشارك فيه الناس بصورة مباشرة وفاعلة في صنع القرار.

• تحدّيات غياب المؤسّسات الديمقراطيّة في القطاعين العامّ والخاصّ، وفقًا لمؤشّرات السلوك الديمقراطيّ المبنيّ على القدرة التنافسيّة، والتساوي في التنافس، وضبط سلطة الرئيس التنفيذيّ، والمشاركة السياسيّة.[٤]

• تحدّيات غياب حريّة المنظّمات غير الحكوميّة، إلاّ إذا كانت تعمل لمصلحة الحاكم[٥]، الأمر الذي يعطّل الروح الديمقراطيّة والثقافة الديمقراطيّة.

على ضوء ذلك، وأمام المشهد اللبنانيّ والعربيّ لتشكّلات التفاعلات السياسيّة في لبنان ودنيا العرب، نلاحظ تنامي المنظّمات العربيّة الباحثة عن تطوير المواطنيّة، وحقوق الانسان، والإصلاح الديمقراطيّ ودور المؤسّسات الحكوميّة وغير الحكوميّة في هذا المجال[٦]. لكنّ ورشات العمل، ضمن هذا الإطار حتّى اليوم، ما تزال تواجه عددًا من الإشكاليّات، أبرزها: الاكتفاء بطرح الشعارات من دون التطبيق، ضعف التواصل بين القطاعين العامّ والخاصّ في هذا الاتجاه، كيفيّة الانتقال من مستوى الشعارات إلى مستوى التنفيذ، وكيفيّة توليد الثقافة الديمقراطيّة وتفعيلها.

ويبدو أنّ محورًا رئيسًا من محاور المعالجة الفعليّة للإصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ يكمن في توحيد لغة التعامل، ولغة التواصل، والإصلاح، وصولاً إلى لغة التغيير المنشود في تحقيق ديمقراطيّة النموّ الطبيعيّ في المجتمعات العربيّة. وتقتضي اللغة المقترحة الموحّدة الاتفاق على المعنى المشترك للمفردات الرئيسة التي تتشكّل منها ورشة العمل الديمقراطيّ. من تلك المفردات: العدالة، المساواة، السلم، استقلاليّة القضاء، الأمن الانسانيّ، حقوق الانسان، المنظّمات غير الحكوميّة...

وقد يكون مفيدًا اليوم الدعوة إلى الكفّ عن تكرار الشعارات، والكفّ عن تكرار التوصيّات المتشابهة والمتوازية في مؤتمرات المجتمع المدنيّ، ولاسيّما أنّ أحدًا لا ينكر أو لا يناهض أهميّة تلك الشعارات أو تلك التوصيّات. أين إذًا يكمن السؤال؟ السؤال في البحث عن آليّة التطبيق: ما هي تلك الآليّة؟ كيف يمكن المباشرة في تنفيذها؟ وأين تمكن المباشرة في هذا التنفيذ؟ الأين هنا لا تنحصر بالمعنى الجغرافيّ، إنّما تشمل أيضًا المعنى الاجتماعيّ، والثقافيّ، والاقتصاديّ، والمهنيّ، ومستويات القطاعين العامّ والخاصّ العاملة على تسهيل هذا التطبيق وإزالة العوائق الذهنيّة والنفسيّة في سبيل هذا التطبيق والتأكّد من صحّته وسلامته. وإذا كان ثمّة من تقاطع بين المنظّمات الإقليميّة والأخرى الدوليّة في هذا المجال، فلا بدّ من تعزيز أهميّة التواصل بين تلك المنظّمات على المستويين الداخليّ والخارجيّ.

ولا بدّ هنا من التأكيد على أهميّة الأدوات المعرفيّة في مجال حقوق الانسان والعمليّة الديمقراطيّة. وهنا يدخل الدور الجامعيّ في هذا الاتجاه، وتحديدًا مراكز الأبحاث وكليّات العلوم الانسانيّة من أجل تطوير البرامج الملائمة التي يمكن أن تكون فاعلة في فضاءات المعرفة المتمحورة حول قيم الديمقراطيّة، ومبادئها، وإشكاليّاتها، والآليّات التي تتطلّبها على المستويين الثقافيّ والتطبيقيّ. إلى أيّ مدى يمكن للجامعات الإعداد للمناخ الملائم أوّلاً لتعزيز المعرفة الديمقراطيّة وحقوق الانسان، وثانيًا الانتقال من مستوى المبادئ إلى مستوى تطبيق المبادئ. ومن أبرز الأمثلة على أهميّة دور الجامعة في هذا المجال ما يتعلّق بإشكاليّة الديمقراطيّة بمعناها المستورد، والديمقراطيّة النابعة من الحاجة الداخليّة والممارسة الداخليّة والقناعة الداخليّة الكفيلة بتطوير الأطر الاجتماعيّة والسياسيّة القائمة.

وقد يكون البحث عن تطوّر الإصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ مرتبطًا إلى حدّ كبير مع البحث عن مستقبل هذه المنطقة من العالم وعن طبيعة المستقبل المرتجى لهذه المنطقة. وقد يؤدّي ذلك إلى سؤال من نوع آخر: هل سائر شعوب العالم سبقتنا إلى الإصلاح الديمقراطيّ؟ هل سبقتنا سائر الشعوب إلى السير في الممارسة الديمقراطيّة التي من شأنها تعزيز حقوق الانسان وتعزيز مفهوم العدالة الانسانيّة والأمن الاجتماعيّ ولو بصورة نسبيّة؟

(٣) Elbadawi, Ibrahim A., and Samir Makdisi, Democracy and Development in the Arab World (2005) 2 Beirut: The American University of Beirut, pp. 15-17

(٤) المرجع السابق، ص ١٥- ١٧.

(٥) Save-Soderbergh, Bengt, Democracy in the Arab World, Challenges, Achievements and Prospects. (2000) Stockholm: International Institute for Democracy and Electoral Assistance, pp. 12-14.

(٦) مستوحاة من مؤتمر «استراتيجيّات المجتمع العربيّ للإصلاح الديمقراطيّ»، عمّان، الأردن، ١٧-١٩ حزيران ٢٠٠٧.

ثمّة رأي يقول إنّ الإصلاح الديمقراطيّ لا يُوجّه فقط للأنظمة ولأهل السلطة، بل يُوجّه أوّلاً للقطاع الخاصّ وللقيّمين عليه، تمهيدًا للتوجّه إلى أهل السلطة.

وثمّة رأي آخر يشدّد على أهميّة التوافق على معنى الديمقراطيّة في الممارسة العامّة والخاصّة، وليس في مجرّد التنظير.

أمّا الربط بين الآليّة ودور الجامعة فيكمن في مبادرة الجامعة في طرح أسئلة من النوع التالي:

• هل تبقى الأحزاب لتعاني من قيادة واحدة لا تتغيّر في ظلّ انتخابات دوريّة شكليّة؟

• هل تبقى النقابات لتعاني من قيادة واحدة لا تتغيّر في ظلّ انتخابات دوريّة شكليّة؟

• هل تبقى الجمعيّات والمنظّمات لتعاني من قيادة واحدة لا تتغيّر رغم انتخابات دوريّة شكليّة؟

ويكمن دور الجامعة في أن يرتكز على التأسيس لدور:

المعياريّة determining standards

والمراقبة والتقويم observation and assessment

ومؤشّرات التطبيق indications of implementations

النموذج الديمقراطيّ للمنظّمات غير الحكوميّة.

ويدور النقاش حاليًا في معظم المؤسّسات والمنتديات العربيّة العاملة على الإصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ حول ما يُسمّى بمقياس المُنتج، أو معيار الأثر، الذي يمكّن المهتمّين بالشأن الديمقراطيّ من تقويم المقاييس المتعارف عليها دوليًا في جمعيّة من الجمعيّات، أو نقابة من النقابات، أو حزب من الأحزاب، ما إذا كان هذا التنظيم تنظيمًا ديمقراطيًا أم لا.

لكنّ الاستفهام الموجع يبقى حول صدقيّة البحث عن الإصلاح الديمقراطيّ في العالم العربيّ، في زمن تزداد فيه الصدامات الدمويّة في كلّ من فلسطين والعراق ولبنان. فالحديث عن الديمقراطيّة يواجه مجموعة من التحدّيات، في طليعتها تحدّي الجهل وتحدّي عدم الاكتراث أو اللامبالاة[٧]. ولئن ارتبطت الديمقراطيّة بمفاهيم العدالة والأمن والسلام، فلا بدّ من فضاء معرفيّ يبدّد الجهل ويعزّز الكرامة الانسانيّة والثقة بالنفس بحيث يمكّنها من مواجهة العثرات والانخراط في ثقافة الانضواء ضمن إطار القوانين الدوليّة للسلم الأهليّ وحقوق الانسان التي أجمعت عليها دول العالم.

ويبقى السؤال الكبير المطروح: كيف يمكن الحديث عن أيّ إصلاح ديمقراطيّ في العالم العربيّ، وهذا العالم يترجّح بين «الطغاة والغلاة والغزاة»، بين المرَضَين الأوّلين الداخليّين والمرَض الثالث الآتي من الخارج. وقد أكّد مؤتمر جوهانسبرغ أنّ التنمية المستدامة لا تتصدّى فقط للفقر الماديّ، إنّما تعالج، وبالأهميّة نفسها، الفقرَ العلميّ، والفقرَ الثقافيّ، والفقرَ الاجتماعيّ، والفقرَ الاقتصاديّ وما إليها من آفات معادية، بل متصدّية للديمقراطيّة وممارساتها.

(٧) من خطاب الحسن بن طلال في جلسة الافتتاح لمؤتمر «استراتيجيّات المجتمع العربيّ للإصلاح الديمقراطيّ».

دراسة في وثائق الأزهر
حول الحريّات وعلاقة الدين بالدولة

محمّد السمّاك

صدر عن الأزهر ثلاث وثائق أساسيّة منذ قيام الثورة الشعبيّة في مصر في ٢٥ كانون الثاني- يناير ٢٠١١ ، وهذه الوثائق هي :

- وثيقة الأزهر حول مستقبل مصر (١١ حزيران ٢٠١١)
- وثيقة إرادة الشعوب العربيّة (٣٠ تشرين أوّل ٢٠١١)
- وثيقة الحريّات الأساسيّة (٨ كانون الثاني ٢٠١٢) .

مقدّمة:

قبل دراسة هذه الوثائق الثلاث، لا بدّ من الإشارة إلى أمر أساسيّ، وهو أنّ الأزهر كمرجعيّة دينيّة أولى للمسلمين السُنّة في العالم، فَقَدَ طوال العقود الخمسة الماضية من عهدَي الرئيسين السابقين أنور السادات وحسني مبارك، الكثير من دوره ومن صدقيّته ومن تاثيره كمرجعيّة إسلاميّة. فإمام الأزهر أصبح يُعيّن أو يُعزل بقرار من رئيس الجمهوريّة. والمؤسّسة الأزهريّة أصبحت بالتالي خاضعة أو على الأقلّ مسايرة لتوجّهات النظام السياسيّ القائم ومرتبطة به.

أدّى هذا الواقع إلى تشجيع الأحزاب السياسيّة الإسلاميّة المعارضة إلى اقتناص الفرصة لطرح نفسها مرجعًا. ونظرًا لتعدّد هذه الأحزاب، تعدّدت المرجعيّات. ونظرًا لما للأحزاب السياسيّة من مصالح وتطلّعات وطموحات خاصّة، هبط أداء العمل المرجعيّ الحزبيّ الدينيّ ليستجيب أو ليتوافق مع هذه المصالح والتطلّعات والطموحات. وكانت النتيجة مزيدًا من تشويه صورة الإسلام سواء من حيث نظرته إلى نفسه، أو من حيث نظرته إلى الآخر، وبالتالي من حيث نظرة الآخر إليه هو.

من أجل ذلك كان العمل الأوّل الهامّ الذي قام به إمام الأزهر الشيخ الدكتور أحمد الطيّب، وهو متخرّج من جامعة السوربون في باريس- فرنسا، أنّه استطاع استعادة المرجعيّة للأزهر، واستطاع حصر المرجعيّة الدينيّة بالأزهر وحده، كما استطاع انتزاع موافقة القوى السياسيّة والأحزاب الإسلامويّة على أن يكون الأزهر المرجعيّة الوحيدة في شؤون العقيدة الإسلاميّة .

وانطلاقًا من هذا الوضع الجديد، صدرت الوثائق الثلاث، ليس فقط بموافقة هذه القوى والأحزاب، إنّما بمشاركتها في الإعداد والصياغة أيضًا، الأمر الذي يضفي على هذه الوثائق الأهميّة الاستثنائيّة التي تتمتّع بها.

أوّلاً: وثيقة الأزهر حول مستقبل مصر:

كان لا بدّ بعد التغيير الذي شهدته مصر (٨٥ مليون نسمة) من أن يطرح المصريّون على أنفسهم السؤال التالي: أيّ مصر نريد؟ أجابت الوثيقة على هذا السؤال بإعلان مجوعة من المبادئ العامّة. ومنها:

١. دعم تأسيس الدولة الوطنيّة الدستوريّة الديمقراطيّة الحديثة، التي تعتمد على **دستور ترتضيه الأمّة**، يفصل بين سلطات الدولة ومؤسّساتها القانونيّة الحاكمة، ويحدّد إطار الحكم، ويضمن الحقوق والواجبات لكلّ أفرادها على **قدم المساواة**، بحيث تكون سلطة **التشريع فيها لنوّاب الشعب**، بما يتوافق مع المفهوم الإسلاميّ الصحيح، حيث لم يَعرف الإسلام لا في تشريعاته ولا في حضارته ولا تاريخه ما يُعرف في الثقافات الأخرى بالدولة الدينيّة الكهنوتيّة التي تسلّطت على الناس، وعانت منها البشريّة في بعض مراحل التاريخ.

٢. **اعتماد النظام الديمقراطيّ**، القائم على الانتخاب الحرّ المباشر، الذي هو الصيغة العصريّة لتحقيق مبادئ الشورى الإسلاميّة، بما يضمنه من تعدّديّة، ومن تداول سلميّ للسلطة، ومن تحديد للاختصاصات ومراقبة للأداء، ومحاسبة للمسؤولين أمام ممثّلي الشعب، وتوخّي منافع الناس ومصالحهم العامّة في

جميع التشريعات والقرارات، وإدارة شؤون الدولة بالقانون- والقانون وحده-، وملاحقة الفساد، وتحقيق الشفافيّة التامّة وحريّة الحصول على المعلومات وتداولها.

٣. **الالتزام بمنظومة الحريّات الأساسيّة في الفكر والرأي**، مع الاحترام الكامل لحقوق الانسان والمرأة والطفل، والتأكيد على **مبدأ التعدّديّة واحترام الأديان السماويّة**، واعتبار المواطنة مَناطَ المسؤوليّة في المجتمع.

٤. **الاحترام التامّ لآداب الاختلاف وأخلاقيّات الحوار**، وضرورة اجتناب التكفير والتخوين واستغلال الدين واستخدامه لبعث الفرقة والتنابذ والعداء بين المواطنين، مع **اعتبار الحثّ على الفتنة الطائفيّة والدعوات العنصريّة جريمةً في حقّ الوطن**، ووجوب اعتماد الحوار المتكافئ والاحترام المتبادل والتعويل عليهما في التعامل بين فئات الشعب المختلفة، من دون أيّة تفرقة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين.

٥. تأكيد الالتزام بالمواثيق والقرارات الدوليّة، والتمسّك بالمنجزات الحضاريّة في العلاقات الإنسانيّة، المتوافقة مع التقاليد السمحة للثقافة الإسلاميّة والعربيّة، والمتّسقة مع الخبرة الحضاريّة الطويلة للشعب المصريّ في عصوره المختلفة، وما قدّمه من نماذج فائقة في التعايش السلميّ ونشدان الخير للإنسانيّة كلّها .

ثانيًا: وثيقة الأزهر حول دعم إرادة الشعوب العربيّة:

أرست الوثيقة القواعد الدينيّة والقانونيّة للتعامل مع ما بات يعرف بـ«الربيع العربيّ». ومن هذه القواعد:

التأكيد على أنّ «**شرعية السلطة الحاكمة تعتمد من الوجهة الدينيّة والدستوريّة على رضا الشعوب، واختيارها الحرّ**، من خلال اقتراع علنيّ يتمّ في نزاهة وشفافيّة ديمقراطيّة، باعتباره البديل العصريّ المنظّم لما سَبقتْ به تقاليدُ البَيعةِ الإسلاميّة الرشيدة، وطبقًا لتطوّر نظم الحكم وإجراءاته في الدولة الحديثة والمعاصرة، وما استقرّ عليه العرف الدستوريّ من توزيع السلطات التشريعيّة والتنفيذيّة والقضائيّة، والفصل الحاسم بينها، ومن ضبط وسائل الرقابة والمساءلة والمحاسبة، بحيث **تكون الأمّة هي مصدرَ السلطات جميعًا ، ومانحةَ الشرعيّة وسالبتها عند الضرورة**».

«إنّ الحركات الوطنيّة السلميّة المعارضة، هي من صميم حقوق الانسان في الإسلام التي أكّدتها سائر المواثيق الدوليّة، بل هي واجب المواطنين لإصلاح مجتمعهم وتقويم حكّامهم، والاستجابةُ لها واجبٌ على الحكّام وأهل السلطة، دون مراوغة أو عناد».

«تُعدّ مواجهة أيّ احتجاج وطنيّ سلميّ بالقوّة والعنف المسلّح، وإراقة دماء المواطنين المسالمين، نقضًا لميثاق الحكم بين الأمّة وحكّامها، ويُسقط شرعيّة السلطة، ويهدر حقّها في الاستمرار بالتراضي».

«يتعيّن على قوى الثورة والتجديد والإصلاح أن تبتعد كليّا عن كلّ ما يؤدّي إلى إراقة الدماء، وعن الاستقواء بالقوى الخارجيّة أيًّا كان مصدرها، ومهما كانت الذرائع والتعلاّت التي تتدخّل بها في شؤون دولهم وأوطانهم، وإلاّ كانوا بُغاةً خارجين على أمّتهم وعلى شرعيّة دولهم».

ثالثًا: وثيقة الأزهر حول الحريّات الأساسيّة:

حدّدت هذه الوثيقة الموقف الإسلاميّ من الحريّات الأساسيّة التالية:

- حريّة العقيدة
- حريّة الرأي والتعبير
- حريّة البحث العلميّ
- حريّة الإبداع الأدبيّ والفنيّ.

انطلقت الوثيقة الأزهريّة في التأكيد على حريّة العقيدة من «**التسليم بمشروعيّة التعدّد ورعاية حقّ الاختلاف ووجوب مراعاة كلّ مواطن** مشاعر الآخرين والمساواة بينهم على أساس متين من المواطنة والشراكة وتكافؤ الفرص في جميع الحقوق والواجبات».

وأكّدت على «**رفض نزعات الإقصاء والتكفير، ورفض التوجّهات**

التي تَدين عقائد الآخرين ومحاولات التفتيش في ضمائر المؤمنين بهذه العقائد».

وجرّمت الوثيقة أيّ مظهر للإكراه في الدين أو الاضطهاد أو التمييز بسببه. وأكّدت «أنّ لكلّ فرد في المجتمع أن يعتنق من الأفكار ما يشاء دون أن يمسّ حقّ المجتمع في الحفاظ على العقائد السماويّة. **فللأديان الإلهيّة الثلاثة قداستها،** وللأفراد حريّة إقامة شعائرها دون عدوان على مشاعر بعضهم أو مساس بحرمتها قولاً أو فعلاً ودون إخلال بالنظام العامّ».

واعتبرت الوثيقة أنّ «**حريّة الرأي هي أمّ الحريّات كلّها،** وتتجلّى في التعبير عن الرأي تعبيرًا حرًا بمختلف وسائل التعبير من كتابة وخطابة وإنتاج فنيّ وتواصل رقميّ، وهي مظهر الحريّات الاجتماعيّة التي تتجاوز الأفراد لتشمل غيرهم مثل تكوين الأحزاب ومنظّمات المجتمع المدنيّ، كما تشمل حريّة الصحافة والإعلام المسموع والمرئيّ والرقميّ، وحريّة الحصول على المعلومات اللازمة لإبداء الرأي، ولا بدّ أن تكون مكفولة بالنصوص الدستوريّة لتسمو على القوانين العاديّة القابلة للتغيير».

وتناولت الوثيقة **حريّة البحث العلميّ من اعتباره «قاطرة التقدّم البشريّ»،** ووسيلة اكتشاف سنن الكون ومعرفة قوانينه لتسخيرها لخير الانسانيّة، ولا يمكن لهذا البحث أن يتمّ ويؤتي ثماره النظريّة والتطبيقيّة دون تكريس طاقة الأمّة له وحشد إمكاناتها من أجله».

وأكّدت على المبدأ العامّ وهو «**أنّ التفكير في عمومه فريضة إسلاميّة في مختلف المعارف والفنون،** وأنّ البحث العلميّ النظريّ والتجريبيّ هوة أداة هذا الفكر. وأهمّ شروطه أن تمتلك المؤسّسات البحثيّة والعلماء المتخصّصون حريّة أكاديميّة تامّة في إجراء التجارب وفرض الفروض والاحتمالات».

واعتبرت الوثيقة «أنّ الإبداع الأدبيّ والفنيّ من أهمّ مظاهر ازدهار منظومة الحريّات الأساسيّة وأشدّها فعاليّة في تحريك وعي المجتمع وإثراء وجدانه»، ورأت أنّه «كلّما ترسّخت الحريّة الرشيدة كان ذلك دليلاً على تحضّره؛ فالآداب والفنون مرآة لضمائر المجتمعات، وتعبير صادق عن ثوابتهم ومتغيراتهم، وتعرض صورة ناضرة لطموحاتهم في مستقبل أفضل».

خاتمة:

على الرّغم من الأهميّة الكبيرة لوثائق الأزهر الثلاث، فإنّ الأسس والمبادئ التي قامت عليها ليست جديدة. ويشهد على ذلك مبادرات الأزهر في حركة النهضة التي قادها أئمّته السابقون أمثال الشيخ حسن العطّار، والشيخ رفاعة الطهطاوي، والشيخ محمّد عبده وغيرهم الكثير.

فعندما أكّدت الوثيقة الأولى حول مستقبل مصر أنّ **لا دولة دينيّة في الإسلام،** كان الإمام محمّد عبده سبّاقًا عندما أرسى في مطلع القرن الماضي القاعدة التي تقول إنّ الإسلام أسقط الكهنوت في الحكم والعبادة». فالمسلم يمكن أن يؤدّي كلّ مناسك العبادة في الإسلام (أركان الإسلام الخمسة) من دون أن يحتاج بالضرورة إلى رجل دين. وإذا كانت العبادة لا تحتاج في الإسلام إلى دور كهنوتيّ، فمن الأحرى أن لا يحتاج الحكم إلى مثل هذا الدور.

وعندما قالت الوثيقة الثانية بالتوافق الوطنيّ، وباعتماد شرعة السلطة الحاكمة من الوجهة الدينيّة والدستوريّة على رضى الشعوب واختيارها الحرّ من خلال اقتراع علني يتمّ في نزاهة وشفافية وديمقراطيّة باعتباره البديل القوّي المنظّم للبيعة، كان الإمام ابن تيميّة قد أرسى القاعدة العامّة التي قال فيها: «إنّ الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كان مسلمة». وذلك لأنّ الأساس هو العدل بين الناس؛ ولأنّ أساس العدل هو احترام كرامة الانسان لإنسانيّته وليس لمعتقده أو لجنسه؛ ولانّ مهمّة السلطة الحاكمة تحقيق العدل واحترام الحقوق والمحافظة على الكرامة الانسانيّة.

وعندما أكّدت الوثيقة الثالثة حول الحريّات الأساسيّة على حريّة العقيدة والرأي والتعبير وعلى حريّة البحث العلميّ والفنّ والإبداع، كان الخليفة عمر بن الخطّاب سبّاقًا في تلخيص ذلك كلّه بعبارته المشهورة وهو يعاقب أحد الولاة على سوء تصرّفه مع رعيّته بقوله: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا».

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد ترك للناس حريّة الاختيار بين الإيمان والكفر، وإذا كان قد حصر به وحدَه حقّ المحاسبة على الاختيار يوم القيامة، فكيف يمكن فرض أيّ قيد على حريّة العبادة أو إدانة عقائد الآخرين والتفتيش في ضمائرهم؟

لقد استعاد الأزهر بهذه الوثائق مكانته وصدقيّته ودوره، من خلال تجديد الالتزام بالثوابت العقديّة والإسلاميّة، ومن خلال تجديد الاجتهاد في مقاربة القضايا المتعلّقة بعلاقات الدين والدولة في القرن الواحد والعشرين.

الدّولة العلمانيّة
بين المسيحيّة والإسلام

الأب فرنسوا عقل
مدير فرع الشوّف- جامعة سيّدة اللويزة

قد يختلط على البعض أحيانًا مفهوم الدّولة العلمانيّة وأنواعها، إذ لا يتمّ التّمييز الحقيقيّ ما بين العلمانيّة الإيجابيّة (Laïcité) التي تفصل بين الدّين والدّولة من دون إلغاء الدّين بصورة عامّة، وبين العلمانيّة السّلبيّة (Laïcisme) التي تناوئ الدّين، لا بل تهدف إلى القضاء عليه.

ليست العلمانيّة وليدة الفكر المعاصر، بل هي نتاج فكر قديم له تاريخه الطّويل في إشكاليّة فهم العلاقة بين العقل والإيمان، وبين المنطق البشريّ والركّون إلى أسرار الماورائيّات والإلهيّات، منذ عصر الفلسفة الإغريقيّة إلى عهد الفلسفة الأوروبيّة وصولاً إلى عصرنا الحديث.

طالما أسيئ فهم العلمانيّة الحقيقيّة عبر العصور، فمنهم من اعتقد أنّها تحرير للسّلطة المدنيّة من تدخّل السّلطة الرّوحيّة، ومنهم من رأى فيها تمييزًا ما بين الدّين والدّنيا، ومنهم من شاءها حصان طروادة جديدًا يمتطيه كلّ من أراد أن يخنق البعد الدّينيّ في قلب الإنسانيّة.

١. نظريّة العلمانيّة الإيجابيّة (laïcité)

إنّ عبارة «علمانيّ» هي تعريب للكلمة اليونانيّة Laos أي الشّعب. أمّا كلمة (laïcité) فهي أصلاً عبارة فرنكوفونيّة[١] منبثقة من اللغة اللاتينيّة Laicus، وتعني استقلاليّة الدّولة من النّاحية الثّقافيّة والتّشريعيّة[٢].

فالطّبيب واللاهوتيّ الإيطاليّ مارسيليو دا بادوفا (١٢٧٠-١٣٤٢) Marsilio DA PADOVA هو الذي أرسى عام ١٣٢٤ أساسات الدّولة العلمانيّة المعاصرة، معلنًا أنّ للدّولة ملء السّلطة في الأمور الزّمنيّة والرّوحيّة على حدّ سواء؛ لكنّه رفض أفهومة السّلطة الإلهيّة، ولم يحترم استقلاليّة الكنيسة.

أمّا العلمانيّة الحقيقيّة في مفهومها اليوم، فهي السّيادة المستقلّة للدّولة في الحقل المدنيّ والحقّ الطّبيعيّ، من دون إلغاء سيادة الأديان، مع احترام حريّة الضّمير للمواطنين؛ إنّها السّيادة العليا Summa potestas للدّولة، وليس عدم الاكتراث للقيم الدّينيّة[٣]. بل هي نظرة شاملة للعالم، هدفها الإنسان وشعارها الإنسانيّة، وهي فكريًا أكبر من نظام وأعمق من عقيدة، تنادي باحترام الكرامة البشريّة؛ وهذا ما لا يعرفه معظم الذين ولجوا هذا الموضوع من دون الإبحار في عمق معانيه[٤].

أمّا الدّولة العلمانيّة الحقيقيّة، فلا تتدخّل في شؤون المواطنين الدّينيّة، بل تتّخذ موقف الحياد بالنّسبة إلى جميع الأديان؛ وهي لا تدعو إلى مذهب معيّن، ولا تحارب مذهبًا، ولا تُكره أحدًا على اعتناق أيّ دين أو أيّ معتقد[٥].

انطلاقًا من هذه النّظرة الإيجابيّة للعلمانيّة، نستطيع القول إنّ التّكامل بين هذا النّوع من العلمانيّة والقيم الرّوحية، يؤسّس لمستقبل أفضل للإنسان.

٢. العلمانيّة السّلبيّة (laïcisme) أو (sécularisation):

إنطلاقًا من فكر مارسيليو دا بادوفا العلمانيّ السّلبيّ، وليد ردّة الفعل الحادّة على سلطة البابا آنئذٍ، يعتقد بعض الباحثين أنّ العلمانيّة (laïcisme) هي نظريّة فلسفيّة، بل واقع ثقافيّ واجتماعيّ، وتنمية مزمنة لذهنيّةٍ تقاوم المسيحيّة[٦]. إنّها ثمرة روح علمانيّة ذات عدائيّة «لحكم الإكليروس» (cléricalisme) وتدخّله في كلّ شيء، وللدّيانة المسيحيّة عمومًا؛ ألهبت نيرانَها أحقادُ بعض كبار الماسونيّين في فرنسا[٧] من الذين أشعلوا الثّورة الفرنسيّة[٨] تحت شعار «حرّيّة إخاء مساواة». كما يؤكّد آخرون أنّها مجرّد ردّة فعل سلبيّة ضد هيمنة الإكليروس في القرون الوسطى، إذ أساء بعضهم استعمال السّلطة الكنسيّة في المسائل المدنيّة[٩]. وقد يختلط على البعض التّمييز بين مفهومَي العلمانيّة الإيجابيّة والعلمانيّة السّلبيّة. أمّا نحن، كما أوضحنا أعلاه، فقد اعتمدنا التّمييز بين لفظة (laïcité) ونعني بها العلمانيّة التي لا ترفض الدّين، وعبارة (laïcisme) أي العلمنة الرّافضة للدّين أو (sécularisation) أي «الدُّنْيَوَة» وهي أيضًا مناوئة للدّين.

والجدير بالذّكر، أنّ الدّولة الفرنسيّة التي يُؤخذ عليها تاريخيًا مبدأُ العلمانيّة السّلبيّة الرّافضة للدّين، قد أنشأت في الأعوام الأخيرة لجنةً خاصّة لإعادة النّظر في مفهوم العلمانيّة المعاصرة، دُعيت «لجنة العلمانيّة في الجمهوريّة الفرنسيّة» أو «La Commission Stasi»، يرأسها الوزير السّابق برنار ستازي Bernard STASI؛ أرادت اللّجنة في البداية، التّأكيد على أنّ العلمانيّة ليست نقيضًا للدّين، فأوضحت في تقريرها الصّادر عام ٢٠٠٣ الذي تناقلته وسائل الإعلام المحلّيّة والعالميّة، الوجه الإيجابيّ للعلمانيّة الفرنسيّة كمبدأ عالميّ وقيمة جمهوريّة، وقد نشأ هذا المبدأ حسب التّقرير، إبّان الثورة الفرنسيّة سنة ١٧٨٩، نتيجة انفصام بين الدّولة والكنيسة، إلى أن عُقدت معاهدةٌ عام ١٨٠١ بين فرنسا والكرسيّ الرّسوليّ من أجل تنظيم العلاقة بين الدّولة والمؤسّسة الدّينيّة، لا الفصل أو الحياد تجاهلاً للدّين؛ كما لا يجب أن تُختزل العلمانيّة بحياد الدّولة التي لا تستطيع تجاهل الواقع الرّوحيّ أو الدّينيّ. فهي تبقى إذاً، وسيلة للتّعايش بين أشخاص لا يتشاركون المعتقداتِ عينَها.

٣. موقف الكنيسة الكاثوليكيّة من العلمانيّة

تنظر الكنيسة الكاثوليكيّة إلى العلمانيّة الصّحيحة(laïcité)، نظرة إيجابيّة منذ عهد البابا بيّوس الثّاني عشر، الذي أعلن ما أسماه بالعلمانيّة السّليمة، كمبدأ أساسيّ من مبادئ المذهب الكاثوليكيّ. فهي تعطي لقيصر ما هو لقيصر وما لله لله[١٠]، وتحترم كلّ المذاهب والطّوائف في الدّولة، وتضمن حريّة المعتقد الدّينيّ وممارسة الطّقوس، وسائر النّشاطات الرّوحيّة والثّقافيّة والخيريّة. إنّها آليّة صالحة للتّواصل بين مختلف التّقاليد الرّوحيّة والدّولة. لكنّ الكنيسة تشجب بشدّة ما أسميناه بالعلمانيّة السّلبيّة (laïcisme)، لأنّ هذا النّوع من العلمانيّة يرفض الدّين والقيم الرّوحيّة والخلقيّة المستوحاة من الكتب المقدّسة[١١].

تُعتبر العلمانيّة الإيجابيّة (laïcité) في العقيدة الأدبيّة الكاثوليكيّة إذًا، قيمةً تبنّتها الكنيسة واعترفت بها، كاستقلاليّة الدّائرة المدنيّة والسّياسيّة عن الدّائرة الدّينيّة والكنسيّة، وليس عن الدّائرة الأدبيّة. وعليه، لا يحقّ للدّولة أن تتدخّل في الأعمال والنّشاطات الدّينيّة والطّقسيّة، ولا أن تُجبِرَ عليها أو تَمنعَها، إلاّ في حال الضّرورة التي يتطلّبها النّظام العامّ. كما أنّ الاعتراف بالحقوق المدنيّة والسّياسيّة، والتّصرف ضمن إطار الخدمات العامّة، لا يمكن أن تكون رهينةَ قناعات أو تصرّفات ذات طبيعة دينيّة تصدر عن مواطنين. فالعلمانيّة تعني أوّلاً موقفًا يكنّ احترامًا للحقائق النّابعة من المعرفة الطّبيعيّة للإنسان في قلب المجتمع؛ ومن الخطأ الخلط بين الاستقلاليّة الحقّة التي يتحلّى بها الكاثوليك في السّياسة، والمطالبة بمبدأ يزدري تعليم الكنيسة الأدبيّ والاجتماعيّ[١٢].

إنّ من يكنه معنى العلمانيّة الصّحيحة، وهي تعني سيادة الدّولة واستقلاليّتها في إدارة الشّؤون الزّمنيّة واحترام الحرّيّة الدّينيّة لدى مواطنيها ومناوأة كلّ أشكال التّوتاليتاريّة السّياسيّة والتّيوقراطيّة، لا يتّخذ منها في الواقع، موقفاً سلبيّاً.

فالعلمانيّة التي تذود عنها الكنيسة الكاثوليكيّة، هي علمانيّة إيجابيّة وسليمة، وليست مبدأ قانونيًا بل مبدأ من مبادئ الفلسفة السّياسيّة[١٣] إذ تسعى إلى حماية الحرّيّة الدّينيّة.

٤. موقف المسلمين

يتميّز الدّين الإسلاميّ عمومًا، برباط وثيق بين الدّين والدّنيا والدّولة[١٤]، فهو يشمل كلّ شؤون الحياة، بشقيّها الدّينيّ والمدنيّ؛ وقد لا يحبّذ المسلمون أفهومة العلمانيّة التي تدعو إلى فصل الدّين عن الدّولة، إذ يعتبرونها إنتاجًا غربيًا صرفًا، يعود إلى عصر الأنوار والثّورة الفرنسيّة. إنّها حقًا طرح مسيحيّ، لكنّها في الواقع قد حاربت المسيحيّة وحوربت منها[١٥].

وما الدّولة بالنّسبة إلى القوانين الدّستوريّة للدّول الإسلاميّة، إلاّ جماعة المسلمين الخاضعين لحكم القائد الدّينيّ الأعلى، (الخليفة.. أمير المؤمنين.. السّلطان..الملك...) الذي يستطيع أن يفوّض سلطته لشخص آخر[١٦]. فالإسلام إذًا، كشريعة ومنهاج، يختلف عن غيره من الدّيانات والشّرائع السّابقة، بما يتضمّنه من تنظيمات للعلاقات والمعاملات بين النّاس ومن قدرة على التّشريع، فهو نظام كامل وموقف شامل بما يقرّره من أحكام وقواعد ومعايير تتعلّق بالسّياسة، وتجعل من الشّورى مبدأً أصيلاً من مبادئ الحكم في المجتمع.

لذا، قد ساد في العالم الإسلاميّ مفهوم سلبيّ عن العلمانيّة، يُختصر في أنّ هذه الأخيرة ليست إلاّ سيادة الحقّ الوضعيّ، أي الشّريعة المدنيّة التي تقوم على العقلانيّة الحرّة، من دون الأخذ في الاعتبار مفهوم الوحي الإلهيّ، ما يعني من وجهة النّظر الإسلاميّة أنّها الوجه الآخر للإلحاد، إذ تهدف إلى محاربة الدّين عمومًا، والإسلام خصوصًا.

فانطلاقًا من شموليّة الدّين الإسلاميّ، يمكن أن تُفهم العلمانيّة، فقط، ضمن إطار تطبيق الشّريعة الإسلاميّة التي تتناول الحياة البشريّة بجزئيّاتها وتفاصيلها، فالدّولة الحقيقيّة في نظر بعض المسلمين يجب أن تكون «دولة القرآن» بجناحيها الدّينيّ والمدنيّ(١٧).

غير أنّ بعض المسلمين وهم قلّة، لا يعتبرون العلمانيّة نظامًا مناوئًا للدّين، بل موقفًا فلسفيًا ذهنيًا بالنّسبة إلى مشكلات الضّمير(١٨).

وعليه، إنّ بعض الدّول ذات الأغلبيّة الإسلاميّة، قد تبنّت النّظام العلمانيّ، منذ أمد طويل، نظير تركيّا وتونس وألبانيا.

خاتمة:

لم نقصد في تناولنا هذا النّوع من البحث، التّرويج للنظّريّة العلمانيّة أو لأيّ فكر أو نظام سياسيّ آخر؛ بل وددنا التّوضيح والتّأكيد، أنْ ليست العلمانيّة في المطلق ضدّ الدّين والتّديّن، بل ثمّة علمانيّة إيجابيّة، صحيحة، سليمة، تميّز بين الدّين والدّولة حتّى حدود الفصل، من دون أن تناوئ الدّين أو ترفضه أو تلغيه.

آن الأوان، في نظرنا، كي نخرج من دوّامة بعض الهواجس الوهميّة، والأفكار المغلوطة، والمعلومات غير الدّقيقة، والأحكام المسبقة التي قد نتناقلها أحيانًا كالعدوى المميتة، من دون أدنى تحليل أو تنقيب أو تقويم. فلنستعرض كلّ شيء ولننتقِ الأفضل. لنضع كلّ النّظريات على طاولة النّقاش الثّقافيّ والحوار الحضاريّ، كي نتقاسمَ خبز المعرفة ونتشارك غذاء العلم، لأنّنا جائعون حتّى إلى فَضَلات قوت الفكر، وكِسْرات خبز الحقّ... علّ ذلك يكون خيرَ سبيل للوصول إلى قمّة الحقيقة الموضوعيّة.

(١) Cf. J. BAUBEROT, "Genèse du concept de laïcité en Occident", Islam et laïcité, (sous la direction de M. BOZDEMIR), Harrmattan, Paris 1996, p. 10.

(٢) Cf. F. RUFFINI, Relazioni tra Stato-Chiesa. Lineamenti storici e sistematici, (a.c.d.) M. BROGLIO, Il Mulino, Bologna 1974, p. 25.

(٣) Cf. T. GOFFI, Laicità politica e Chiesa, Edizione paoline, Roma 1961, pp. 42-67.

(٤) راجع، حبيب الزّغبيّ، لبنان طريق النّهوض، دار النّهار للنّشر، بيروت ٢٠٠١، ص. ٣٥.

(٥) راجع، إيلي نعيم ماضي، في سبيل العلمنة، ١٩٧٦، ص. ٧-٨.

(٦) Cf. T. GOFFI, Laicità politica..., pp. 67-70.

(٧) Cf. "Laici, laicità, laicismo", La Civiltà Cattolica, 3609 (2000) 216.

(٨) Cf. J. MOREAU, Les Francs-Maçon, Edition le chevalier bleu, Paris 2001, p. 27.

(٩) Cf. T. GOFFI, Laicità politica ..., pp. 71-73.

(١٠) Cf. AAS, 25 (1958) 220.

(١١) Cf. PONTIFICIO CONSIGLIO DELLA GIUSTIZIA E DELLA PACE, Compendio della Dottrina Sociale della Chiesa, Città del Vaticano, nn. 571-572.

(١٢) راجع، مجمع العقيدة والإيمان، مذكّرة عقيديّة بشأن قضايا تتعلّق بالتزام الكاثوليك وتصرّفهم في الحياة السّياسيّة، حاضرة الفاتيكان ٢٠٠٢، الرّقم ٦.

(١٣) Cf. G. DALLA TORRE, Il primate della coscienza, Edizioni Sudium, Roma 1992, p. 68.

(١٤) Cf. J. BAUBEROT, "Genèse du concept de laïcité en Occident", Islam et laïcité, (sous la direction de M. BOZDEMIR), Harmattan. Paris 1996, p. 71.

(١٥) راجع، غريغوار حدّاد، العلمانيّة الشّاملة، لبنان ٢٠٠٠، ص. ٣٣.

(١٦) Cf. A. RAHIM, I principi della giurisprudenza musulmana, Casa Editrice Iitaliana, Roma 1922, pp. 49-470.

(١٧) راجع، «الإسلام وموقفه من علمنة الدّولة اللّبنانيّة»، المسرّة (مجلّة)، ٥٧٩ (١٩٧٢)، ص. ٧٢٢-٧٢٦.

(١٨) Cf. J. BAUBEROT, "Genèse du concept de laïcité..., p. 77.

المراجع:

- الزّغبي، حبيب: لبنان طريق النّهوض، بيروت: دار النّهار للنّشر، ٢٠٠١.

- حدّاد، غريغوار: العلمانيّة الشّاملة، لبنان: [د. ن.]، ٢٠٠٠ .

- ماضي، إيلي نعيم: في سبيل العلمنة: [د. م.]، [د. ن.]، ١٩٧٦.

- مجمع العقيدة والإيمان: مذكّرة عقيديّة بشأن قضايا تتعلّق بالتزام الكاثوليك وتصرّفهم في الحياة السّياسيّة، حاضرة الفاتيكان: [د. ن.]، ٢٠٠٢.

- «الإسلام وموقفه من علمنة الدّولة اللّبنانيّة»، في مجلّة المسرّة، ٥٧٩ (١٩٧٢)، ص. ٧٢٢-٧٢٦.

- ACTA APOSTOLICAE SEDIS: 25 (1958) 205-220.

- BAUBEROT: JEAN, "Genèse du concept de laïcité en Occident", Islam et laïcité, (sous la direction de M. BOZDEMIR), Harmattan. Paris 1996.

- DALLA TORRE, GIUSEPPE: Il primate della coscienza. Roma: Edizioni Sudium, 1992.

- GOFFI, TULLO: Laicità politica e Chiesa. Roma: Edizione paoline, 1961.

- "Laici, laicità, laicismo", in La Civiltà Cattolica, 3609 (2000), 221-224.

- MOREAU, JEAN: Les Francs-Maçon. Paris: Edition le chevalier bleu, 2001.

- PONTIFICIO CONSIGLIO DELLA GIUSTIZIA E DELLA PACE: Compendio della Dottrina Sociale della Chiesa. Città del Vaticano: [s.n.], [s.d.].

- RAHIM, ABDOUR: I principi della giurisprudenza musulmana. Roma: Casa Editrice Iitaliana, 1922.

- RUFFINI, FRANCESCO: Relazioni tra Stato-Chiesa. Lineamenti storici e sistematici, (a.c.d.) M. BROGLIO. Bologna: Il Mulino, 1974.

التّفاعل الإسلاميّ المسيحيّ في الأندلس

د. عصام الحوراني

الإنسان الأندلسيّ، هو الذي تشكّل ونشأ مع بداية فتح العرب لإسبانيا والبُرتغال بقيادة موسى بن نُصَيْر ومولاه طارق بِن زياد، سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م. هذا الإنسان الذي ينتسب إلى أعراق مختلِفة، لكنّه ينتسب، كما كلّ إنسان على هذه الأرض، إلى الجنس البشريّ الواحد الأحد: بنزعاته المختلِفة، ومشاعره المتباينة، وأحلامه التّائهة، وطموحاته الكثيرة جدًا... هذا الإنسان حطّ رحاله فاتِحًا أرضًا جديدة تختلِف عن أرضه من حيث الجغرافية، والمُناخ، والبيئة، والطّبيعة، والنّاس، والثقافة، والدّين... ولقد أدرك العرب الفاتحون أنّ الفتح العسكريّ، مهما كان أمره، لا يدوم طويلاً، لأنّه عندما يُصبِح بمقدور المغلوب أن يمتلك قوّة عسكريّة تُضاهي قوّة الغالب ينقلب عليه ويسترجع أرضه. وكان طموح العرب البقاء طويلاً، بل تذويب سكّان البلاد الأصليّين في العنصر العربيّ الإسلاميّ الفاتح، كما جرى مع عدد من الشعوب التي افتتح العرب بلادهم. فكانت تلك الجدليّة تتنازع الإنسان الأندلسيّ في أعماقه وتجعله يُراوِح بين شخصيّتين: العربيّ/ البربريّ بصحرائه، وقبائله وخيامه ومساجده وثقافته الإسلاميّة، وبين شخصيّة الأوروبيّ الإسبانيّ/ البرتغاليّ بطبيعته الغنّاء، وبيوته وقصوره وكنائسه وثقافته المسيحيّة. فكيف يتمكّن هذا العربيّ، يا تُرى، من تحقيق رغباته وطموحاته الكبيرة؟ كيف يتمكّن من صهر العنصر الأوروبيّ في بوتقة عربيّة إسلاميّة مستقلّة؟

كان عليهم من أجل حماية إنجازاتهم العسكريّة، الاختيار بين أمرين: إمّا الحكم بالبطش والظلم والقهر والسيطرة بالقوّة العسكريّة، أو استعمال وسائل ثقافيّة إنسانيّة، تحترم الإنسان الآخر من خلال احترام مصالحه وكرامته وحقوقه وثقافته وديانته وغيرها. ولقد اختار الأندلسيّون الجُدد، كما أملت عليهم الظروف المختلفة، الأمر الثاني، فصمدوا حوالى الثمانمئة سنة، وذلك لأسباب متنوّعة نذكر منها:

١. التّفاعل الحضاريّ والثقافيّ الذي تمّ وازدهر بين الأندلسيّين والإسبان وأهل البرتغال ومن جاورهم من شعوب أوروبيّة، فكانت العلائق الثقافيّة بينهم وبين الشعوب المجاورة، عن طريق التجارة، والسفراء، والرحّالة والجغرافيّين الّذين نذكر منهم: أبو عُبَيد البكري، صاحب كتاب (**المسالك والممالك**)، وأبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربيّ، صاحب كتاب (**الجغرافيا**)، وأبو حامد الغرناطيّ صاحب كتاب (**تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**)، وأبو الحسن محمّد بن أحمد بن جبير الغرناطيّ، صاحب كتاب (**تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار**)، وغيرهم... وكانوا كثيرين.

وقد تحقّق هذا التفاعل الثقافيّ أيضًا من خلال تبادلٍ للكتب، والتّرجمة، وتعلّم الإسبان اللّغة العربيّة، كما تعلّم العرب اللّغة الإسبانيّة والبرتغاليّة. فاللغة العربيّة في الأندلس كانت لغة

العرب والبربر والإسبان والصقالبة واليهود والمسيحيين، وكان هناك عدد من الأدباء الأندلسيّين من أصول إسبانيّة، منهم: ابن غَرْسِية، وابن القوطِيّة، وابن القبطُرْنة، وابن بَشْكُوال وغيرهم... ومن أصول يهوديّة من مثال ابن سهل الإشبيليّ، وابن حَسَداي وغيرهما. ولقد شُغف المسيحيّون من الإسبان بالأدب العربيّ، فكانوا يقرأون الشعر ويتذوّقونه وينظمونه بأسلوب عربيّ جميل، ويذكر المؤرّخون بأنّ أسقف قرطبة «ألفارو القرطبيّ» امتعض من هذه الظاهرة وقال: «إنّ إخواني في الدين يجدون لذّة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويُقبِلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا لِيَرُدّوا عليها وينقضوها، وإنّما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبًا عربيًّا جميلاً صحيحًا... وهم يُنفِقون أموالاً طائلة في جمع كتبها... بل هم ينظمون من الشعر العربيّ ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنّا وجمالاً». (حضارة العرب في الأندلس، لفي بروفانسال، تر. قرقوط، ص ٧٢).

ونذكر كذلك ما كان يجري من المناظرات الدينيّة والحوارات المتنوّعة بين الطرفين. «ولقد كان من المشاهِد المألوفة أن يُجالِس كبار فقهاء الأندلس المسلمين، كبار رجال الدين المسيحيّ واليهوديّ، ويُناظروهم، ويتّخذوهم أصدقاء...» (د. صلاح جرّار- زمان الوَصْل). ونذكر في هذا السياق مدى أهمّيّة ازدواجيّة الثقافة الأندلسيّة والأوروبيّة، عن طريق روّادها من الجانبين الأندلسيّ والأوروبيّ. قال نورمان دانيال Norman Daniel في كتابه «**العرب وأوروبا في العصر الوسيط** — ص ٨٠»: «لا ريب في أنّ إسبانيا كانت المكان الأهمّ الذي اقترنت فيه الثقافة العربيّة بالثقافة الأوروبيّة وتطوّرتا معًا، فقد كان ثمّة في الواقع أربعة خطوط متوازِية: أوروبيّون تحت حكم أوروبيّ، وعرب تحت حكم عربيّ (المستعربون)، وعرب تحت حكم أوروبيّ (المدجّنون)، ولذلك كانت إسبانيا المصدر الرئيس لمعرفة الفلسفة العربيّة والعلوم الإسلاميّة».

٢. تأثّر الأندلسيّون بالأوروبيّين، فقلّدوهم في أمور الحياة المختلفة، يقول ابن خلدون في «المقدّمة/ ٢/ ٤٥٠»: «... فإنّك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتّى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت...» وقد وصل بهم الأمر إلى إلى حدّ تلحين آياتٍ من القرآن الكريم بحسب ألحان الرّهبان المسيحيّين. يقول أبو بكر محمّد بن الوليد الطرطوشي الأندلسيّ في كتابه: **الحوادث والبدع**/ ص١٨٨ - ١٨٩: «إذا قرأوا قوله تعالى: «وَإذا قيلَ إنّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ/ الجاثية ٣٢، يرقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلهم وفيها الخلاخيل، ويُصفِّقون بأيديهم على إيقاع الأرجل ويُرَجِّعون الأصواتَ بما يُشبِه تصفيقَ الأيدي ورقصَ الأرجل، كلُّ ذلك على نغمات متوازنة... وإذا نظروا في كلّ موضع من القرآن فيه ذكر المسيح كقوله تعالى: «إنّما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولُ اللهِ»/ النساء ١٧١، وكقوله تعالى: «وإذا قالَ الله يا عيسى بنَ مريمَ»/ المائدة ١١٦، فمثّلوا أصواتهم فيها بأصواتِ النصارى والرُهبان والأساقفة في الكنائس». وقد بلغ التسامح ذروته من خلال احتفاء المسلمين الأندلسيّين بالأعياد المسيحيّة: عيد رأس السنة الذي كانوا يُسمّونه (بينيّر) وكذلك عيد مولد المسيح الذي كان يأتي عندهم بعد سبعة أيّام. وعيد العنصرة، وهو بحسب معتقداتهم (عيد ميلاد يوحنّا المعمدان)، وكانوا يُسمّونه أيضًا «المهرجان» ويحتفلون بهذا العيد في شهر حَزيران، والإسبان يُسمّونه اليومَ San Juan . يقول عريب بن سعد صاحب في كتابه «**تقويم قرطبة**» عن يوم العنصرة: «وفيه حُبِسَت الشّمس أيام يهوشاع بن نون عليه السّلام، وفيه ميلاد يحيى بن زيكريا النبيّ عليه السلام». من التقاليد التي كانوا يُمارسونها ليلة العنصرة إشعال النار (قبّولة) والقفز من فوقها. وثمّة مثل أندلسيّ يقول، بحسب لهجتهم: «الكبش المصوّف ما يكفز العنصرة»، أي أنّ الكبش ذا الصوف لا يتمكّن من القفز فوق شعلة العنصرة لِئلا يحترق. قال أحمد بن يحيى الونشريسيّ في كتابه: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب: «إنّ النسوة ليلة عيد العنصرة، كنّ يُزيّنّ بيوتهنّ ويرششنها بالماء، وكذلك كنّ يُخرجْنَ ثيابهنّ إلى الندى بالليل...ويضعنَ ورق الكرنب (نبات يُشبه الملفوف) والخضرة في ثيابهنّ، ويغتسلن بالماء...». وفي هذا العيد يرتدي الناس ثيابًا بيضاء، ويستمرّون بارتداء الأبيض من الثياب حتّى بداية تشرين الأوّل، ويُقال بأنّ زرياب المغنّي المشهور هو الذي بدأ بممارسة هذا التقليد، كما جاء في كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرّي/ ٣- ١٢٨، وذلك في سياق الكلام على زرياب وما أخذه الناس عنه: «...ولبْسُه كلّ صنف من الثياب، في زمانه الذي يليق به، فإنّه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للمُلوّن من يوم مهرجان أهل البلد المسمّى عندهم بالعنصرة الكائن في ستّ بقينَ من شهر يونيو الشمسيّ من شهورهم الروميّة، فيلبسونه إلى أوّل شهر أكتوبر الشمسيّ منها ثلاثة أشهر متوالية، ويلبسون بقيّة السنة الثياب الملوّنة».

خميس إبريل: ويأتي قبل عيد الفصح. وكانوا يحتفلون أيضًا بعيد

الفصح الذي يُوافق الرابع والعشرين من شهر إبريل وكان أكبر الأعياد. ونذكر أيضًا عيد «ليلة العجوز»، وأوّل أيّامه السادس والعشرون من شباط، وجاء في «تقويم قرطبة» ص ٤٧: «أيّام العجوز خمسة وقيل سبعة، ثلاثة من فبرير وأربعة من مارس» وهو ما يُعرف عندنا بالمُستَقرْضات، أو بعجائِز الرّوم (والرّوم هم الأرثوذكس الذين يتبعون التقويم الشرقيّ)، فيقولون: «ما لَكْ حَلالِ يْدوم إلاّ مِنْ بَعدْ عَجائِز الرّوم»، والعجائز تخشى صقيع المستقرضات، حتّى أنهنّ يضطررنَ، إذا نفد الحطب والوقود لديهنّ، إلى إشعال دولابهنّ الذي يستعملونه في غزل الصوف وحياكته، وهو أعزّ ما عندهنّ. ويتندّرون بهذه المقولة: إنّ شباط يُخاطِب آذار قائلاً له: «آذار يا إبِنْ عَمّي، أَرْبَعَةً مِنّكْ، وتْلاتًا مِنّي، تَنْوَقِدِ الْعجوزْ دولابْها، ونْخَلّي الثّلْجْ أعَلى بْوابْها».

والناس في هذه الأعياد يختارون أصنافًا خاصّة من الطعام، يأكلونها عندما يخرجون من بيوتهم للمشاركة في هذه الأعياد. يذكر الطرطوشي في كتابه الحوادث والبدع/ ١٤٠-١٤١: «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على إقامة يَنْيَر (رأس السنة) بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة وخميس إبريل بشراء المجبّنات والإسفنج (معجّنات تُصنع من السّميد وتُقلى بالزّيت) وهي من الأطعمة المبتدَعة، وخروج الرجال جميعًا أو أشتاتًا مع النساء مختلطين للتفرُّج، وكذلك يفعلون في أيّام العيد ويخرجون للمصلّى، ويُقيمون فيه الخيم للتفرُّج، لا للصلاة».

يقول لسان الدّين بن الخطيب من قصيدة له يمدح بها أبا الحجّاج يوسف الأوّل بن نصر، في عيد النيروز:

زمانُكَ أفراحٌ لدَيْنا وأعيادُ
فعيدٌ ونيروزٌ سعيدٌ وميلادُ

كما تجلّى التسامح في التزاوج بين مختلف تلك العناصر التي صار يتألّف منها المجتمع الأندلسيّ (عرب، وبربر، وإسبان، وصقالبة، ومسيحيّون، ومسلمون، ويهود)، وفي التبادل التجاريّ والعلميّ، والتساهل من قبل بعض الفقهاء ورجال الدين المسلمين، وتغاضيهم أحيانًا كثيرة عن عادات الأندلسيّين المستجدّة وتجاوزاتهم من ناحية الطرب واللّهو والمجون.

٣. اِهتمام الكتّاب الأندلسيّين بالتأريخ المسيحيّ، فقد كان الكتّاب يؤرّخون بالتاريخ الميلاديّ، إلى جانب التاريخ الهجريّ، وكذلك فقد استخدموا التقويم الشمسيّ وأسماء الأشهر الأوروبيّة إلى جانب التّقويم القمريّ.

يقول الدكتور صلاح جرّار في كتابه: **زَمانُ الوَصْل**: «شهدت الأندلس، إبّان الحكم العربيّ الإسلاميّ لها، صورًا من التمازج الحضاريّ والتفاعل الثقافيّ والتبادل اللغويّ ما عزّ نظيره في ذلك الزمن الغابر، حتّى وجدنا قوافل العلماء من العرب والأوروبيّين على حدٍّ سواء، تتنقّل عبر حدود الدول الأوروبيّة والأندلسيّة حاملةً الكتب والمخطوطات قاصدةً مجالس العلم والفكر والمناظرة في طليطلة ومرسية وقرطبة وحتّى القسطنطينيّة، ووجدنا التزاوج بين الأندلسيّين والروم من الإسبان والفرنسيّين وغيرهم يصل مداه حين تعجّ قصور ملوك الأندلس وبيوت الأندلسيّين بنساء ورجال لا يستطيع المرء أن يُميّز بين من كان منهم أوروبيًا ومن كان عربيًا، حتّى قيل إنّ خلفاء بني أميّة في الأندلس كان معظمهم بيضًا شقرًا زرق العيون نزوعًا إلى أمّهاتهم الإسبانيّات...»

وأفضل من عبّر عن هذا التفاعل بين مسلمي الأندلس ومسيحيّي أوروبّة الشاعر الصوفيّ الأندلسيّ المشهور مُحيي الدّين ابن العربي، الذي وُلِد في مَرسيه ونشأ في إشبيلية، لُقِّب بالشيخ الأكبر، وتوفّي في دمشق سنة ١٢٤٠ م. قال بوحدة الوجود، ومن شعره في هذا نذكر هذه الأبيات من كتابه «ترجمان الأشواق»:

لقدْ صارَ قلبي قابِلاً كلّ صورةٍ
فمَرْعىً لِغِزْلانٍ ودَيْرٌ لِرُهبـانِ
وبيتٌ لأَوْثـانٍ وكعبةُ طائـــفٍ
وألواحُ توراةٍ ومِصْحَفُ قــرآنِ
أدينُ بدينِ الحبِّ أنّى توجّهَتْ
ركائبُهُ فالحُبُّ ديني وإيماني

نسيب لحّود: الرهان على الشباب

كميل زياده
نائب رئيس حركة
التجدّد الديمقراطيّ

من الصعب أن أكتبَ عن نسيب لحّود بصيغة الماضي. فالرجلُ الذي عرفته على مقاعدِ الدراسة لم يفارقْ بالي وتفكيري منذ لقائنا الأوّل. خُضنا معًا المعاركَ السياسيّة في المجلس النيابيّ، وضمنَ حركة التجدّد الديمقراطيّ التي أرادها مثالاً للعمل السياسيّ الشريف، الحديث، المبدئيّ والرؤيويّ. والأهمّ من ذلك كلّه هو أنّ نسيب لحّود صديقي، بما يفوقُ ما تحملُ هذه الكلمةُ من معانٍ.

بعد رحيله المؤلم في ٢ شباط ٢٠١٢، كُتِبت عشراتُ المقالات عنه، والآفُ التعليقات على مواقع التواصل الاجتماعيّ. كلّ لبنانيّ يتوق الى أسلوب مختلف في العمل السياسيّ شَعرَ أنّه خسر شيئًا من ذاته بغياب نسيب لحّود. قيل وكُتب الكثير عن نسيب لحُود، عن استقامته ونبله ولباقته وحداثته، وذكائه الخارق، وإلمامه بأدقّ الملفّات، وعلاقاته اللبنانيّة والعربيّة والدوليّة، ووفائه لأصدقائه واحترامه لأخصامه. لكنْ قد يكون هناك عنصرٌ لم تتمّ الإضاءةُ عليه بشكل كافٍ في شخصيّة نسيب لحّود، وهو علاقتُه الخاصّة بعنصر الشباب. في كلّ محطّة من حياته السياسيّة، خصّ نسيب لحّود الشبابَ بمكانةٍ مميّزة. مستقبلُهم في وطن حرّ، حديث، ديمقراطيّ، معافى من آلام الحرب، كان هاجسَه الأكبر.

في العام ١٩٩٥ مثلاً، خلال إحدى إطلالات نسيب لحّود الإعلاميّة، في برنامج «فخامة الرئيس» الذي كان يقدّمه النائب والصحافيّ الشهيد جبران تويني، أبدى اهتمامًا فائقًا بمسألة السياسة التربويّة. في حينه، شدّد لحّود على إعادة بناء الجامعة اللبنانيّة على أسس حديثة، تضمن استقلاليّتَها وقدراتِها الماديّةَ، لتأمين وصول أكبر عدد من الشباب اللبنانيّ إلى تعليم جامعيّ يفتح لهم آفاق أسواق العمل. كما لفت، على عادته قبل الآخرين، إلى أهميّة تفريع الجامعيّة اللبنانيّة وفقًا للاختصاصات ولمنطق الإنماء المتوازن، بدل المنطق الطائفيّ الذي ما زال سائدًا في معظم كليّاتها.

أمّا الملفّ الآخر الذي حمله نسيب لحّود وطبعَ مسيرتَه البرلمانيّة، فكان ملفّ السياسة الماليّة للحكومات المتعاقبة. لم ينتقد سياسة الاستدانة وتراكم الدين العامّ من منطلق التجريح الشخصيّ برؤساء الحكومات، أو سعيًا وراء حصّةٍ في مشاريعِ إعادة الإعمار، وهو الذي أَوقف كلّ أعمال شركته في لبنان منذ دخوله الحياةَ العامّة، رفضًا منه لأيّ شكل من أشكال تضارب المصالح.

مستقبلُ شباب لبنان كان معيارَ حكمه على الاقتراحات الاقتصاديّة، فعارض كلّ ما يعزّز الممارساتِ الريعيّةَ وسياسةَ الفوائد المرتفعة، لما لذلك من تأثير سلبيّ على الاستثمار المنتج وخلق فرص العمل. ابتعد عن التقييم الإيديولوجيّ للخصخصة، واعتبر أنّ الحكمَ عليها ينطلق من مدى قدرتها على أن تكونَ قاطرةَ نموٍّ مستدام يُسهم في خلق فرص عمل في مختلف المناطق اللبنانيّة.

تفهّم نسيب لحّود نفورَ عدد كبير من الشباب من العمل السياسيّ التقليديّ ومن الأحزاب السياسيّة الطائفيّة الكبيرة، والتي سيطرت على مقدّرات الدولة وقتلت فضاءها المدنيّ العامّ، بعد أن كانت أبرزَ اللاعبين خلال الحرب الأهليّة. ابتداءً من منتصف التسعينات انتقل هؤلاء الشباب نحو إنشاءِ جمعيّات ناشطة في المجتمع المدنيّ، في ميادينَ مرتبطةٍ عضويًا بالسياسة، كإصلاحِ قانون الانتخابات، والمطالبةِ بإجراء الانتخابات البلديّة، ومكافحةِ الفساد، وإلغاءِ كلّ أشكال التمييز ضدّ المرأة، واعتماد قوانينَ مدنيّةٍ اختياريّة للأحوال الشخصيّة، وعددٍ كبير من المواضيعِ التي غابت عن جدول أعمال معظم الأحزاب والسياسيّين. كان نسيب لحّود أبرزَ الداعمين لهذه المؤسّسات، ماديًا وسياسيًا ومعنويًا. وقد ساهم شخصيًا في فكّ حصار الدولة وأجهزة الوصاية عن بعض الجمعيّات التي فَضحتِ الممارساتِ القمعيّةَ والتشوّهاتِ الإداريّةَ للانتخابيّة اللبنانيّة. كان نسيب لحّود صوتَ المجتمع المدنيّ في المجلس النيابيّ. عام ١٩٩٧ مثلاً، قاد

نسيب لحّود العريضةَ البرلمانيّة التي طعنت بقانون إلغاء الانتخابات البلديّة، بالتوازي مع حملة «بلدي، بلدتي، بلديّتي» التي شَكّلت إحدى أبرزِ مبادرات المجتمع المدنيّ الشابَ في السنوات العشرين الأخيرة. وحقّق انتصارًا للديمقراطيّة عندما قبل المجلسُ الدستوريّ هذا الطعن، وأرغمَ الحكومةَ على إجراء الانتخابات.

ورغم اعترافه بهواجسَ الطوائف، لم يتخلّ نسيب لحّود يومًا عن إيمانه بضرورة تأمين أكبر مشاركة شبابيّة في الحياة العامّة، فأيّد منذ اللحظة الأولى مبدأَ تخفيض سنّ الاقتراع إلى الثامنة عشرة. وكان، عام ٢٠٠١، أحدَ أبرز وجوه التجمّع النيابيّ للدفاع عن الطلاّب، ردًّا على العنف الوحشيّ الذي كانت تمارسه الأجهزة الأمنيّة التابعة لسلطة الوصاية ضدّ الشباب المطالب باستعادة الحريّة والسيادة والاستقلال.

مشهدُ السابع من آب ٢٠٠١ وقمعُ المظاهرات الطلاّبيّة، بالإضافة إلى السيطرة المتزايدة للأجهزة على الحياة السياسيّة والبرلمانيّة تحديدًا، دفعه إلى تنسيق لقاء الحريّات في «الكارلتون»، والذي كان أوّلَ لقاءٍ جمعَ الأطرافَ التي تحلّقت، بعد ثلاث سنوات في فندق البريستول، تمهيدًا لانطلاقة انتفاضة الاستقلال.

ولا يمكن التحدّثُ عن علاقة نسيب لحّود بالشباب من دونِ ذكر الموقع المميّز الذي خصّهم به في «حركة التجدّد الديمقراطيّ». كان قطاعُ الشباب أوّلَ قطاع تمّ إنشاؤه في الحركة. وأصرّ نسيب لحّود على إعطاء هذا القطاع أكبرَ قدْرٍ من الاستقلاليّة والدعم والرعاية. آمن نسيب لحّود بكلّ عضو من أعضاء قطاع الشباب. كان مندهشًا بعمق تحليلهم وأفكارهم الإصلاحيّة وانتمائهم إلى فريق سياسيّ لم يرثوه عن أهلهم. من هذا المنطلق، أشرك نسيب لحّود الشبابَ في صياغة المشروع الحلم «رؤية للجمهوريّة»، الذي أطلقه يوم أَعلن ترشّحَه لرئاسة الجمهوريّة في أيلول ٢٠٠٧. من خلال حدْسِه الشبابيّ وإدراكِه، قبل أيّ واحد من زملائه في الحركة، بأهميّةِ تقنيّات التواصل الحديثة، أناط بشباب الحركة مسؤوليّةَ تنظيم حملة الدعم لترشّحه على مواقعِ التواصل الاجتماعيّ، وذلك قبل أشهرٍ من انطلاقِ الحملة الرئاسيّة في الولايات المتحدة، والتي اعتُبرت، عن خطأ، أوّلَ حملةٍ تَستخدم التكنولوجيا الحديثة رافعةً لها. وحتّى خلال فترة علاجه، وتدنّي عددِ المواعيد واللقاءات العامّة التي عقدها، ظلّ نسيب لحّود يجتمع إلى شباب التجدّد، مصغيًا إلى تطلّعاتهم وحاملاً همومَهم.

عاش نسيب لحّود ٦٨ سنةَ شباب، أفكارُه وأقوالُه ما زالت تنبض بروح الشباب المثابر الملتزم. لم يضع نسيب لحّود يومًا البوصلة، وأعطى مثالاً عمّا يجب أن تكونَ السياسةُ عليه لكي لا يفقدَ الشبابُ اللبنانيّ الأملَ بمستقبله في بلاده. واليوم، إذ أَمضي في حياتي السياسيّة والاجتماعيّة ورفيقُ دربي في دنيا الحقّ، أَعرف أنّني سألمح ابتسامته وأحلامه، في عين كلّ شباب لبنانيّ، يشارك نسيب لحّود رؤيتَه للجمهوريّة.

ومن ذاكرة الجامعة

ثلاث مشاركات في ثلاث مؤتمرات، من «الشأن العامّ في قضايا الناس»، هي من بصماتٍ باقياتٍ لنسيب لحّود في جامعة سيّدة اللويزة.

في ٢ شباط ١٩٩٦، وفي مؤتمر حول «المواطنيّة والديمقراطيّة والانتخابات»، دعا إلى المشاركة في الانتخابات النيابيّة وإلى تفعيل الديمقراطيّة ومشاركة الشباب في الحياة العامّة.

وفي ١٦ كانون الثاني ١٩٩٨، وفي مؤتمر حول «البلديّة: سلطة محليّة ومشاركة مدنيّة في القانون والممارسة»، رأى أنّ من أبرز ما تعانيه الديمقراطيّة في لبنان المركزيّةُ المفرطة من ناحية وضعفُ الروح المواطنيّة من ناحية ثانية، ولاسيّما في ظلّ غيابِ أو عجزِ الأحزاب والنقابات وسائر هيئاتِ المجتمع المدنيّ؛ وأنّ جوهرَ الديمقراطيّة في كلّ هذه المستويات هو المسؤوليّة؛ وأنّ من مبدأ هذه المسؤوليّة تنبثقُ آليّاتُ النظام الديمقراطيّ: المشاركة (تقاسم المسؤوليّة) والانتخاب (تفويض المسؤوليّة) والمساءلة (محاسبة من يحمل المسؤوليّة). ثمّ شدّد على وجوب الانتقال من الاصطفافات التقليديّة العقيمة إلى اصطفافٍ مبنيّ على خياراتٍ تتّصل بالثقافة والاقتصاد، أي بالأفكار والقيم والمصالح. ودعا أخيرًا إلى النأي بالانتخابات عن الاستقطابات العائليّة والمذهبيّة، وترسيخ مفهوم المصلحة العامّة والحوار البنّاء، والتركيز على الأبعاد التنمويّة والخدماتيّة...

وفي ٢ حزيران ٢٠٠٠، وفي مؤتمر حول «الانتخابات النيابيّة سنة ٢٠٠٠: اقتراع، انتخاب، ورقة بيضاء، أم مقاطعة؟»، أشار إلى أنّ الديمقراطيّة تستحقّ العناء لما تنفرد به من تأمين للاستقرار والاستمرار والتغيير الهادئ والسلميّ؛ وإذ علينا التمسّك بها كقيمةٍ وكنظام، فإنّ الفعلَ الانتخابيّ يتحوّل من حقٍّ للمواطن إلى واجبٍ عليه. أمّا مشهد الديمقراطيّة فلا يكتمل إلاّ بوفاء المرشّحين للتّكليف الشعبيّ الممنوح لهم.. وفاقَ خطابٍ برنامجيّ واضح.

وببساطة- قال: على السياسيّ، أو أيّ شخص ينشط في الحقل العامّ، أن يقول ما يفعل، وأن يفعلَ تمامًا ما يقول، «لأنّ روما من فوق يجب أن تُرى تمامًا ودائمًا كما هي من تحت».

وإنّ للنّسيب الحبيب، القدوةِ في المناقبيّة السياسيّة والتطلّعاتِ الوطنيّة والرّؤى المستقبليّة والخصالِ الأدبيّة والشّيمِ الانسانيّة..، أمانةً في عنقنا: الوفاءُ لمبادئه الشّريفةِ ومساعيه الحميدة!

التّحرير

الأب بيار نجم

قد نخجل نحن مسيحيّي اليوم إذا ما فتحنا سفرَ أشعيا النبيّ وقرأناه مُعلنًا: «الصوم الذي أريده هو أن تُحلّ قيودُ الظلم، وتُفكّ سلاسلُ الاستعباد، ويُطلق المنسحقون أحرارًا، ويُنـزعَ كلُّ قيد عنهم». (أش ٥٨، ٦). نخجل لأنّنا نوشك أن نَحيد عن الطريق، نرمي الجوهر بحثًا عن قشور، ونغضّ الطرف عن المحوريّ متمسّكين بما هو عابر.

نبحث عن بعض إماتات، حاصرين صيامنا بامتناع عن طعام ننتظر دقائقه تمرّ متباطئة، أو نقطع عهدًا بانقطاعٍ عن أمر نحبّه، منتظرين انتهاء أيّامٍ أربعين لنعود إليه بنهم أكبر.

ليس الصوم هذا إذا ما عدنا إلى أشعيا النبيّ، «ليس هو أن أحني رأسي كعشبة وأفترش المسح والرماد» (٥٨، ٥)، والويل لي إذا حصرت الصوم بهذا وحده.

منطق صومنا هو منطق مجتزأ؛ فإذا طرحنا على أنفسنا السؤال حول معنى الصوم، تقفز إلى خاطرنا عشرات الأجوبة: الصوم هو فترة ألم، فترة انقطاع، فترة إماتة، فترة اختبار... ونوشك أن ننسى الجزء الأهمّ والهدف الأساسيّ: الصوم هو الانطلاق نحو الآخر لإعطائه الحياة، هو العودة إلى الله، لأعلن له أنّي أحبّه فوق كلّ الخيور الأخرى، وما انقطاعي عمّا هو حسن إلاّ لأعلن بملء كياني للهّ مصدري وغايتي، كم أنا أحبّه، وكم هو أغلى من كلّ الخيور الماديّة.

صومنا يضحي مجتزأ إذا ما أهملنا ما هو محوريّ: الآخر، صورة الله ومِثاله، أخي الانسان المتألّم أكان ألمه ماديًا أم معنويًا. فالصوم كما يقول أشعيا النبيّ: : «هو أن أَكسر للجائع خبزي وأُدخل الطريدَ المسكين بيتي، وأن أرى العريان فأكسوه، ولا أتوارى عن أهل بيتي». (أشعيا ٥٨، ٧).

هي قيم نحتاجها اليوم في مجتمع يتألّم، أكاد أقول يُنازع، تخنق أبناءَه الفرديّةُ والماديّة، الوصوليّةُ والاستهلاك، يحيا كلٌ بمفرده كأنّما عالمنا قد صار مجموعة جزر لا تتقاطع فيها الدروبُ ولا تتلاقى.

الصوم الذي نحتاجه اليوم هو بمثابة «النـزوح إلى الأعماق لإلقاء الشبكة» (لوقا ٥، ٤)، البحث عن الانسان واعطاؤه الخلاص. هو ما أعلنه أشعيا ودعاه «الصوم المقبول عند الربّ»، وهو ما تمّمه يسوع المسيح معطيًا ذاته فداء أحبّاءه.

مجتمعنا اليوم محتاج إلى الخبز، وصومنا هو مشاركة المحتاج خبزَنا. والخبز ليس فقط مأكلاً ماديًا، بل هو في الكتاب المقدّس رمزٌ للحياة نفسها، هو تقاسم المصير، وإتاحة المجال للانسان أن ينطلق من جديد في حياة جديدة. عالمنا اليوم يبحث عن خبز يُشبع فيه جوعَه، شبيبتنا تبحث عن خبز يعطيها معنى لحياتها، تفتّش عنه في أزقّة الظلام وأودية المخدّرات وعبثيّة اللذّة. أن أكسر للجائع خبزي هو أن أعيَ دعوتي كمسيحيّ بأن أقف إلى جانب من هو بحاجة إلى الرفيق. أن أكسرَ خبزي هو أن أُشبع جوعَ المتألّم إلى كلمة تعزية، والوحيد إلى وقفة تعاضد، والمهمّش إلى التفاتة أخويّة واليائس إلى معنى جديد لحياته. الصوم المقبول عند الربّ هو «أن أُدخل الطريدَ بيتي»، أي أن أفسح للغريب مكانًا في حياتي، فلا أجعل نفسي محور الوجود ومالكًا للحقيقة المطلقة. أن أُدخلَ الطريد بيتي هو أن أقبل حقّ الآخر في أن يكون مختلفًا، أقبله، وأحبّه وأدخل في علاقة حوار معه، فأغتني منه وأغنيه.

الصوم هو أن «أرى العريان فأكسوه»؛ وأيُّ عُريٍ اليوم أفضح من عري الانسانيّة الممتهنة كرامتها! والصوم الحقيقيّ هو نظرة جديدة إلى أخي الانسان، نظرة جديدة بأعين جديدة، أعين

المسيح، وبمنطق مختلف، منطق الناصريّ الذي مات ليعيد للإنسان كرامته. الصوم هو أن أنظر إلى الانسان المُعَرّى، كما المسيح على الصليب، عرّاه مجتمعٌ يرى في جسده وسيلةَ لذّةٍ، وفي شخصه دربَ عبورٍ يدوسه ليصل إلى ما هو أبعد. الصوم الحقيقيّ هو إعادة الثوب إلى إنسان عصرنا، أن أنظر إلى الانسان كقيمة مطلقة لا تحدّها لا وصوليّة ولا ماديّة ولا استهلاك، لأنّه على صورة الله ومثاله قد خُلق، وثمنه دم المسيح المراق فوق الجلجلة.

الصوم الذي نصبو إليه هو صوم المسيح الرافض قيمَ العالمِ الثلاث، قيمًا لا تزال تستعبد مجتمعنا بعد مرور عشرين قرنًا ونيّف:

إن كان الخبز هو رمز الحياة، فالحجر هو رمز الموت والانغلاق على الذات، كالصخرة الّتي وُضعت على قبر الفادي تسدّ كلّ بريق أمل. تجربة «قلْ لهذه الحجارة فتتحوّلَ خبزًا»، هو حصرُ وجودنا بالبعد الماديّ الجسديّ، واستعبادُ جسدنا لسلطان الشهوة، فنضع رجاءنا في اكتفاء ماديّ، باحثين عن الغنى، أو في شهوة جسديّة علّها تُشبِعُ فراغَ قلبٍ فلا تعطيه إلاّ فراغًا أكبر. صومنا، على ضوء تجربة الشيطان الأولى، هو أن نعيَ أن لا إمكانيّة لاستخراج معنى لحياتنا، خبزًا لوجودنا، من قيم الماديّة الميّتة. صومنا هو عودة إلى الذات للبحث عن الخبز الحقّ، الخبز الّذي أعلنه المسيح المُجَرّب والمنتصر، خبز كلمة الله التي تعطي الحياة الحقّة.

وتجربة السلطة «أُعطيكَ هذا السُلطانَ كُلّهُ ومَجدَ هذِهِ الممالِكِ، لأنّني أملكُهُ وأنا أُعطيهِ لِمَنْ أشاءُ. فإنْ سَجَدتَ لي يكونُ كُلُّهُ لكَ» (لو ٤، ٦- ٧). هي تجربة السعي إلى سلطة على حساب كرامة شعوب وتضحية شباب ودماء شهداء ودموع شيب. هي أن أضع خلاصي في تسلّطي على قريبي، ونجاحي في استعبادي لمن هو محتاج اليّ. الصوم هو دخول في علاقة حبّ مع كلّ إنسان، علاقة حبّ تتجلّى في قبولي للآخر كمساوٍ لي، له الحقوق نفسها. الصوم هو إعادة نظرٍ في نوعيّة علاقتي بالآخرين: في عائلتي، ومجتمعي، وعملي. كم من مرّةٍ في حياتنا اليوميّة نسجد للشيطان سعيًا إلى ممالك العالم وغناه: صرنا نسميّ السرقةَ «شطارة» وسرقة صندوق ربّ عملي «ذكاء»، وتسلّطي على القريب «قوّة شخصيّة»، وانتهاك حقوق الموظّف «حسن إدارة»، هي كلُّها أفعالُ سجود معاصرةٍ لشياطين عصرنا، وما أحوجَنا إلى كلمة المسيح المنتصر على التجربة عينها: «لله وحده تسجد».

وتجربة الله، «ارمِ بنفسك فهو يوصي ملائكته بك»، هي تجربة نواجهها كلّ يوم، تجربةُ أن أجعل نفسي إلهًا بمعزلٍ عن الله خالقي والربّ فاديّ، هي أن أسعى إلى خلاصي بقوّتي، وبعقلي، منصّبًا ذاتي كمفسّر للشرائع الإلهيّة والانسانيّة، وأجعل نفسي أذكى وأفقه وأعلم من كنيسةٍ بُنيت على صخرة المسيح وتستمدّ منه تعليمها. هي تجربة قد أَسقط فيها متى أظنّ نفسي قادرًا على امتلاك الله بعقلي. وحين أقرّر عنه ما هو الصالح لي، أرمي بذاتي في تهالك وأطلب منه أرسال الملائكة. أرتكب الشرّ وأثور على الله حين تقع عاقبة شرّي عليّ. أثور عليه وأُغيّبه عن حياتي إذا ما مرضتُ أو فقدت حبيبًا أو قريبًا، وأنسى أنّه عانى من أجلي الوَحدة والألم والموت، حمل صليبي عنّي ليعلّمني كيف يتمّ تحويلُ الألمِ فرحًا، والموتِ حياة. الصوم الأسمى هو بناء علاقة إيمان بالله، والإيمان ثقة بلا حدود، عالمًا أنّ الله هو أبٌ، والأب يسعى عن خير ابنه.

صومنا اليوم هو أن نعلن رفضنا لهذه القيم العرجاء القديمة المتجدّدة، وأن نسعى، في حياتنا اليوميّة، وفي أدقّ تفاصيل يوميّاتنا، إلى عدم تكبيل واقعنا بالماديّة، واستعباد ذواتنا للمال بالبخل والطمع والحسد وإبادة المنافس. هو أن نعلن رفضنا لشهوة السلطة واختزال الآخر والسعي إلى ممالك الأرض العابرة، فأبني في بيتي الحوار لا التسلّط، وفي عملي العدالة لا الاستغلال وفي وطني المواطنيّة لا الاستعداء.

صومنا هو أن نخلق فينا حسّ الانتماء لكنيسة تجمع الشعوب من كلّ عرق ولون ولسان، يوحّدها إيمانها بالفادي الأوحد، والطاعة لإرادة الربّ في حياتنا، خاصّةً حينما يبدو لنا أنّ الحلّ الأسهل هو في تتميم إرادتنا، والتغاضي عن تعليم الكنيسة، الأمّ والمعلّمة.

يصبح للإماتة معنى، وللانقطاع هدف، حين أقف وقفة فحص ضمير وعودة إلى الذات الداخليّة، متذكّرًا أنّ لي وسائلَ تقديس إلهيّة أَستندُ إليها: أسرار الكنيسة، لاسيّما سرّي التوبة والأفخارستيّا؛ والكتاب المقدّس، كلمة الله تتّجه إليّ شخصيًا وجَماعيًا، من خلال التزامي برعيّتي، بيتي الثاني. كم هو جيّد أن تعود رعايانا بأغلبها الى ما نسمّيه أسبوع «رياضة روحيّة» تسبق أسبوع آلام الفادي، تعود فيها الرعيّة كلّها، كجماعة واحدة، نحو الله، من خلال الصلاة والتأمّل وسماع كلمة الكتاب المقدّس يشرحها الكاهن فتقع في القلب كحبّة قمح تنمو في الحياة اليوميّة وتصبح سنابل خلاصٍ لي ولمن هم حولي.

عندها أقدر أن أقول، أنا صائم، أشترك في سرّ آلام المسيح الفادي، فلا تبقى آلامي مقفلة على عدميّة النَوح والبكاء، بل يشعّ من أحلك ظلماتها نور المسيح القائم. عندها أزرع رجاء القيامة، وأعطي لألمي، ومرضي وضيقتي، وحتّى لسياستي معنىً آخر؛ فرغم حلول الظلام، واليأس المطلق، والخوف الكبير، أعلن رجاء القيامة، أعلن موت منطق قديم وولادة آخر جديد، أعلن رجاء قيامة يسوع المسيح وابتهج: فالموت لن ينتصر.

التحدّيات التي تواجه الاقتصاد اللبنانيّ

د. لويس حبيقة

يقع لبنان في وضع لا يحسد عليه. فبالإضافة إلى الصراع السياسيّ الداخليّ، وهو يتأثّر وبقوّة بما يجري في المحيط العربيّ وخاصّة في سوريا. ويتأثّر بما يجري في أوروبا، أي بأوضاعها الاقتصاديّة الحرجة نظرًا لحركة التجارة معها، واتفاقيّات الشراكة والتبادل، والاستثمارات في الاتجاهين. فالمطلوب من الحكومة اللبنانيّة أن تسارع إلى اتخاذ القرارات الصائبة والمطلوبة لحماية الاقتصاد اللبنانيّ في ظروف خارجيّة صعبة حتّى لا نقول خطرة. من هذه القرارات بعد حسم نزاع الأجور وبدلات النقل، القيام بالتعيينات المناسبة في المراكز الحسّاسة، وأهمّها في الوزارات التي تتعاطى الشأن الاقتصاديّ العامّ كالزراعة والصناعة والتجارة. المطلوب من الحكومة حماية الاستقرار الذي يؤدّي إلى تحقيق النموّ الغائب في سنة ٢٠١١، ومن المرجّح أن يغيب أكثر هذه السنة. يؤدّي غياب النموّ في ٢٠١٢ إلى ارتفاع نسبة الدين من الناتج وما يتبعه من حلقة ماليّة مفرغة تؤدّي إلى ارتفاع الفوائد وتدنّي التقييم الائتمانيّ للاقتصاد. استطاع لبنان خلال السنوات الماضية تخفيض تكلفة الاقتراض، حتّى مقارنةً ببعض الدول الأوروبيّة. كانت مؤخرًا فائدة الاقتراض لعشر سنوات ٣٪ لفرنسا، ٢٪ لألمانيا، ١٣٪ للبرتغال، ٣٤٪ لليونان وحوالى ٧٪ لإيطاليا مقارنة بـ ٥،٦٪ للبنان.

فما هي التحدّيات الأساسيّة التي تواجه اقتصاد لبنان اليوم؟

أوّلاً: أسعار السلع الغذائيّة والنفطيّة التي ترتفع في معظم الأحيان، وتتقلّب بكثرة في كلّ الأحيان. تشير الإحصائيّات إلى تقلّبات كبيرة في أسعار النفط منذ سنة ١٩٧٠. من خصائص سعر النفط صعوده بسرعة كما انخفاضه بسرعة عندما تتغيّر العوامل الاقتصاديّة الدوليّة العامّة. بانتظار أن يصبح لبنان منتجًا للنفط، سيبقى مستوردًا وبالتالي معرّضًا لتقلّبات الأسعار. للأسف، لا نعتمد في لبنان تقنيّات مواجهة المخاطر التي تحمي من التقلّبات، وتكون كبوليصة تأمين. أمّا أسعار النفط والغذاء، فارتفعت دوليًا وحوّلت ملايين الناس إلى مجموعة من الفقراء والبؤساء. يستورد لبنان العديد من السلع، وبالتالي يتعرّض اللبنانيّون لتقلّبات الأسعار ما يثقل كاهل ميزانيّات المنازل والأسر في غياب التصحيح الواجب للأجور منذ سنوات. ما يقلق هو عدم اعتمادنا لسياسات منتجة تنبع من تعاون القطاعين العامّ والخاصّ لتعزيز الزراعة التي تعاني من ضعف المال والرّيّ والتسويق والاهتمام العامّ.

ثانيًا: انخفاض فرص الصادرات: بسبب صعوبة الأسواق من ناحيتي القدرة الشرائيّة والأوضاع الأمنيّة، ستصبح الصادرات عمليًا أصعب، لأنّنا نبيع منتجاتنا إلى الدول العربيّة والأوروبيّة. سوريا مهمّة جدًا لنا ليس فقط بسبب العلاقات المباشرة، وإنّما وخاصّة كممرّ إلى العالم. انخفاض فرص التصدير سيضيّق الأوضاع على شركاتنا، ويجعلها تسوّق أكثر في الداخل، بالرّغم من القدرة الشرائيّة المتدنّية. من المرشّح أن تستمرّ الأوضاع العربيّة والأوروبيّة على ما هي عليه خلال سنة ٢٠١٢ على الأقلّ، وبالتالي على مؤسّساتنا التنبّه والتحضير للأسواء. هنالك نقطة إيجابيّة تكمن في انخفاض سعر صرف اليورو تجاه الدولار، إذ تفيد الاقتصادات المدولرة والمستوردة من منطقة اليورو، وهذا هو حال لبنان.

ثالثًا: تقلّبات الاقتصاد الدوليّ نتيجة العقليّة والممارسة التي وجّهته: ليس هنالك اقتصاد مرتاح أو مطمئن لأوضاعه في عالمنا. همّ الولايات المتحدة تحقيق النموّ لتخفيض البطالة، وهو ما نجحت فيه جزئيًا حتّى اليوم إذ انخفض المؤشّر إلى ٨،٥٪، وهو إنجاز يسجّل لإدارة الرئيس أوباما. لم تكن أميركا تهتمّ بالاقتصاد الدوليّ في السبعينات، لأنّ الواردات لم تشكّل إلاّ ٥٪ من الناتج، مقارنة بـ ١٧٪ اليوم. أوضاع أوروبا والدول العربيّة معروفة، لكنّ وضع آسيا مختلف عمومًا. مشكلة الصين تكمن في ضرورة تحويل اقتصادها من مصدّر إلى مستهلك، على النموذج الغربيّ. يريد الغرب أن ترفع الصين نسبة الاستهلاك من الناتج

من ٣٥٪ اليوم إلى ٥٠٪ في أقرب فرصة، وهذا يتطلّب تغييرًا كبيرًا ليس فقط في التصرّف وإنّما في العقليّة والقوانين والمؤسّسات. لماذا يدّخر الصينيّ كثيرًا؟ لأنّ الضمانات العامّة غير متوافرة. لماذا تدخّر الشركات كثيرًا؟ لأنّ عمليّات التمويل من الأسواق صعبة أو غير متوافرة. ترغب الشركات الصينيّة في الاقتراض من الخارج، أي من الأسواق الماليّة المتطوّرة، بأسعار أقلّ. لكنّ هذا يتطلّب تحرير سعر صرف «اليوان»، وهو ما ترفضه الحكومة حتّى اليوم. أمّا الأسواق الناشئة عمومًا، فتأثّرت صادراتها سلبًا، كما تعرّضت لخروج رؤوس أموال كبيرة. صعود البرازيل إلى القوّة الاقتصاديّة السادسة عالميًا خبر جيّد للبنان، بسبب وجود أعداد كبيرة من المغتربين فيها. هنالك تغيّرات كبيرة في الخريطة الاقتصاديّة ستقلب موازين القوى في كلّ الميادين.

رابعًا: استمرار القلق المصرفيّ: مصدر الأزمة الماليّة العالميّة هو المصارف التي تبقى أوضاعها حرجة بالرّغم من جميع الوسائل والسياسات التي اتّبعت لإنقاذها. تبقى المصارف الغربيّة حذرة في إقراضها بسبب التجارب السلبيّة الحديثة حيث تعدّت نسبة الإقراض من الودائع حدود الـ ١٠٠٪. تحقّق المصارف خسائر كبرى بسبب إقراضها للدول الأوروبيّة المتعثّرة، كما بسبّب سوء الإدارة بل الفساد داخلها. تقوم المصارف العالميّة اليوم بصرف آلاف الموظّفين (مثلاً ٣٥ ألف في مصرف HSBC و٣٥٠٠ في مصرف UBS السويسريّ) لتعود إلى الربح، ما يخلق مشكلة اجتماعيّة كبرى. أصبحت معايير اتفاقيّة «بازل ٣» أشدّ وطأة لحماية القطاع، إذ ترفع احتياطيّ رأس المال من ٢٪ إلى ٤،٥٪، لكنّها لا تضمن عدم الوقوع في أزمة مماثلة. بالرّغم من أنّ المصارف اللبنانيّة ما زالت في وضع صحّي ومريح، فإنّها تتعرّض لبعض الضغوط والاتهامات الخارجيّة، لذا لا بدّ من التنبّه للتطوّرات الداخليّة والخارجيّة تحت رقابة مصرف لبنان.

ليس مستحيلاً أن يستطيع لبنان الانتصار على تحدّياته. في بداية التسعينات كانت نسبة الدين من الناتج ١٣٠٪ في الدولة الصغيرة بلجيكا. بلغت خدمة الدين في بداية الثمانينات حوالى ١٠٪ من الناتج مقارنة بـ ٦٪ اليوم لليونان. بفضل السياسات المعالجة للإنفاق والإيرادات، استطاعت بلجيكا تخفيض نسبة الدين إلى ٨٥٪ من الناتج في سنة ٢٠٠٧. كذلك فعلت لاتفيا الدولة الصغيرة جغرافيًا. يعني ترشيد الإنفاق استمرار الاهتمام بالبنية التحتيّة والحاجات الاجتماعيّة ووقف الهدر وإصلاح الإدارة. هل يملك لبنان القدرة بل الإرادة لمعالجة وضعه الماليّ كما فعلت الدولتان المذكورتان؟

أوّلاً: لا بدّ من تفعيل اتفاقيّات التعاون العربيّ بل الدوليّ بحيث نستفيد أكثر منها. لا يمكن لأيّ دولة أن تواجه التحدّيات الاقتصاديّة ذات المصادر الداخليّة والدوليّة لوحدها. لا يملك لبنان كلّ الأسلحة لمواجهة تحدّيات بالحجم الذي نعرفه.

ثانيًا: هنالك جهود تبذل عالميًا لمعالجة الخلل الماليّ الذي يواجهه الغرب من جهة مع الصين وشرق آسيا من جهة أخرى. معالجة الخلل يساعد الاقتصادات الغربيّة على مواجهة أزماتها الداخليّة، وبالتالي على لعب دور دوليّ إيجابيّ مفيد لها وللعالم. المطلوب أن تتوجّه رؤوس الأموال عكس ما حصل في العقد الأخير، أي من آسيا والصين إلى الغرب. هذا يتطلّب تعاون الصين وآسيا، وهذا لن يحصل من دون شروط وحسابات ربح دقيقة.

ثالثًا: الاهتمام بالشركات الصغيرة والمتوسّطة التي تعتبر ركيزة لبنان، والتي تتولّى دوليًا الاختراعات وعمليّات التجدّد والخلق. في الولايات المتحدة، ٩٠٪ من الشركات توظّف أقلّ من ٢٠ شخصًا، أي ما يعادل ٢٠٪ من عدد العمّال. فالشركات الأميركيّة المبدعة الخلاّقة كآبل وغوغل وHP لم تبدأ فقط صغيرة، بل نشأت من مرائب المنازل وأصبحت أهمّ الشركات دوليًا. المطلوب لبنانيًا إبقاء كلّ الحوافز للشركات الصغيرة والمتوسّطة، خاصّة في المناطق كي تنتعش وتزدهر وتساهم في التجدّد.

عبده لبكي

في ظلال صهيل الأغاني الحائرة

الجلوس مع أمين ألبرت الرّيحاني على مقعد للتّأمّل، حافة جديدة أمام اللّامتناهي، تحوكه، كلّ لحظة، الأنامل الخارقة، تنشره حينًا، وتستردّه حينًا، كما حركة البحر. وأنت، في هذه النّشوة إلى استسلام، تتمنّى ديمومته كي لا تُحزن الحلم. ثمّ تذهب حيث تشاء، فليس من يعترضك أو يحتجزك في أسئلة وأسلاك. أليست هذه هي الحرّيّة، وقد تَحرّرت ممّن يمتلكها!؟

أمين الرّيحاني لا يتفلّت من تدارك الواقع، وإنّما يراقبه، حاملًا راية السّلام، وإنّما يُحلّ فيه التّوازن بين الحاجة إلى النّسك، والحاجة إلى التّواصل؛ هكذا يخلق واقعًا آخر، نسيجه من خيوط شفّافة، يتوارى فيها المرئيّ ليبرز اللّامرئي، وتعلق فيها أنتَ برغبة من لا يكتفي، بل بلذّة أن تؤكل. وشجرة الحياة، تمرّ كلماتُه عبر مسامّها، فيسري في أوراقها الضّوء، ويستفيق الشّعر.

وعندما تخفق أجنحة هذا الشّاعر، محلّقًا في اللّامدى الكوني، يخفق قلب السّماء، وتعود الكواكب إلى مواقعها، لعلّها تستعيد شحنة التّجدّد بالإصغاء. نعم، إنّها تصغي، ولكن للشّعراء وحدهم. وما حاجتها إلى الإصغاء إلّا خوفٌ يقضّ مضجعها، خوفٌ من أن تفرغ الأشياء من ذاتها، إذ لا شيء مخلوق، إلّا وفيه الشّعر ملازمًا له، وصانعًا إيّاه، تعويضًا ربّما من ملازمته أسباب فنائه، وفي هذا ضمان خلوده.

صهيلك نسمعه يا صاحب الأغاني الحائرة، وحيرتها لا تقود إلى الضّياع، بل تدعو إلى الملاقاة، ثمّ تكتب على الصّفحة الأخيرة كلماتها البريئة من الأظافر. وصهيلك لا يشارك العالم براريه حيث ترتع الضواري. نسمعه يتردّد في الأقاصي، متّشحًا بالعاصفة وحنان المؤمن بحبّة الخردل. معاناتنا مشتركة يا صديقي، تغذّيها اللّامبالاة وحقارة البشر. وهم يعيشون على جسدها بسخرية وغباء، ولكن بقلق دائم، لعلّه ثأرنا منهم. ولماذا نثأر، فقد نزيدهم ادّعاء بحقّ وهميّ لهم في ممتلكات لا يفقهون معانيها.

دعهم يعبثون، وتعال نمتطي غيمة الأنقياء الّذين لا مكان لهم في هذا العالم. هي أكثر ثباتًا من الأرض، وفي مأمن ممّا يتهدّدها ومن عقوق أبنائها، ومن هناك تناديهم: يا أبناء الأرض المحروقة، ارفعوا راياتكم والمناديل،

ودّعوا آخر الذّكريات، فصورة العالم المُدبر ضاعت في مآقينا. أقلامنا المنكسرة رميناها، وأوراقنا المحترقة طويناها، وملحنا الفاسد القديم استبدلناه بملح جديد .

أمّا وحدتك يا صديقي، فالسّفر نحوها حتمًا بلا زاد، لا يُخشى بعده من جوع أو عطش، لأنّ نارها مشتعلة، ومائدتها عامرة، وأحرفها لا تقوى عليها الأيّام. يأتيها السّائل دون سؤال، ويعود منها، وفي جعبته طمأنينة وهناء. عجبًا كيف تُخرج الحيرة من أصابعها ثقة ويقينًا، وكيف، في حنجرة الأغنية، تنقلب الوحشة أُلفة عذبة، والعتمة تستحيل ضوءًا يرسم الملامح، وفيه الأمل يستريح، وكذلك غابات القصب العازف ألحان السّلام. هكذا أنت لا تخرج إلى الزّمهرير بمعطف وصوف، وإنّما تواجهه عاريًا كآدم الجنّة قبل الخطيئة.

ما البديل من الشّعر أمام الغياهب، وكلاهما حاضر في الوجدان؟! والشّعر يُنكر عليه جبروته، في هذا التّحدّي غير المتكافئ، إلّا إذا ما تولّاه الجبابرة... فلنعدّد إذًا المزايا في صفحات الصّهيل وأغانيه الحائرة: إنّها الصّفاء في الأشعّة، والرّقّة في الاختراق، والاستتار في الحضور، والاحتواء في التّأمّل، والرّهافة في الصّخب، والطّهارة في المتعة. وأنت يا أمين، أمينٌ في الشّعر كما في الصّداقة، مهما أطال مسافتها عقرب الوقت.

ومهما ابتعدت أيّها الفارس وراء أبراج أعليتها، تظلّ قريبًا وأتساءل:

أحصار ديوانك هذا، أم حصن، أم تراهما معًا الحصن والحصار. حصن، كلّما قرأتَه وأوغلتَ فيه، وجدت ضالّتك والحبّ. وحصار، كلّما حَشَدْتَ على أسواره تحالفك معه ضدّ العالم، أغرتك الفروسيّة، وحثّتك لتقترب من حصان ينتظرك بصهيله أمام العتبة.

أغانيك الحائرة يا صديقي، أسى لا يستكين، أمام الفناء الآتي من القبح، الّذي يبنيه البشر مدماكًا فوق مدماك، متوهّمين أنّهم يقتربون من السّماء، ولكنّهم مشدودو الأرجل إلى التّراب. ومع ذلك، فعندهم أنّ الشّعر يعيق الرّؤية والارتقاء، بل يعطّلهما. يا لها من جهالة! لقد فاتهم أنّ الشّعر هو الرّؤية نفسها والارتقاء، وأكثر، إنّه بصيرة الّذين لا يفرّون من المواجهة... وفيما نحن الشّعراء نتبادل الأنخاب في عرس الجمال، مثلما ترفرف الأرواح بأسرار الطّبيعة، ترى العالم تجتاحه كنوزه الزّائفة، بما يكفي لانعكاس الوجود في الظّلمة.

نحن الرّاؤون وهُمُ المُراؤون، نحن الرّعاة والرّواة، وهم تجّار الهيكل.

ثمّ علامَ تريد أن تسدل السّتار؟! أهل بلغت المسرحيّة حبل المشنقة الّذي لا قلب فيه وَلا وريد، في مدينة المشاعل المحترقة، أيّها الشّاعر الّذي عاصمته التّمرّد والبهاء!؟ أم أنّك ما زلت تبحث عن أزمنتك، في الحطام والأدغال والهياكل الهرمة؟!

ثق أيّها الشّاعر أنّه، مهما تداولك الشّكّ، ستكون فراشتك بشارةً للحنان، تحطّ على راحة كفّك، لتعلن بداية موسم جديد، وترسم خريطة الأيّام الآتية.

رسالة مفتوحة إلى مَنوبية

شربل شربل

حضرة السيّدة مَنوبية المحترمة.

قبل الآن فكّرت بالكتابة إليك، لأبلغك تعازيّ الحارّة باستشهاد ولدك محمّد البوعزيزي. ولكنّني تردّدت لقناعتي بأنّ كلامًا كثيرًا، قد قيل وما زال يقال، في تقدير، لا بل في تمجيد، ما أقدم عليه ابنك الذي صار أبًا، أو ملهمًا، للثورات العربيّة التي اندلعت إثر ذلك في بلدان الحراك، ولاختلاط مفهوم التعزية بمفهوم التبريك، في أدبيّاتنا، حتّى بتنا نحار في اختيار المقال الذي يناسب المقام، ولأنّني أرفض، من حيث المبدأ، الإقدامَ على الانتحار، مهما كانت الأسباب.

غير أنّني وضعت حدًا لتردّدي، اليوم، بعد أن قرأت ما كتبته صحيفة التايمز« إختارت تايمز اليوم محمّد البوعزيزي البائع المتجوّل الذي أصبح مصدر إلهام للربيع العربيّ شخصيّة العام ٢٠١١. لم يكن البوعزيزي ثائرًا، لكنّ احتجاجه الفرديّ كان محفّزًا لموجة من الانتفاضات التي أحدثت تحوّلاً في الشرق الأوسط». وأردفت التايمز أنّها اختارت شخصيّة «المتظاهر» لأنّه جسّد شعورًا عالميًا يحمل الأمل بالتغيير، وأطاح حكوماتٍ وأفكارًا معلّبة. هذا، بالإضافة إلى ما جاء في صحيفة الغارديان التي تركت أمر تحديد شخصيّة العام إلى قرّائها، فقرّروا اختيار البوعزيزي الذي «أشعلت وفاتُه متأثّرًا بإصاباته في كانون الثاني احتجاجاتٍ في أنحاء تونس ظلّت تتزايد حتّى اضطرّ الرئيس المخلوع، زين العابدين بن علي، إلى الفرار من البلاد. وبعد ذلك انطلق الملايين إلى الشوارع في دول عديدة...»

يضاف إلى ذلك، سيّدتي، ما صرّحتِ به إلى رويترز في تشرين الأوّل حيث قلتِ «كلّ هذا لم يكن ليحدث لو لم يَثُرْ إبني ضدّ القمع والتهميش والإهانة»، وأضفت «ما أتمنّاه هو أن يحافظوا على أمانة إبني وأن يفكّر من سيحكم البلاد في مصيرالفقراء والمهمّشين في المناطق الداخليّة للبلاد».

سيّدتي

من حقّك اعتبار ما قام به ابنك ثورةً ضدّ القمع والتهميش والإهانة لولاها لما حصل ما حصل، ولولم يوافق رأيك التصنيف الأكاديميّ الذي اعتمدته جريدة التايمز والذي اعتبرته فيه مجرّد محتجّ فرديّ ملهم... ومن حقّك اعتباره بطلاً وطنيًا تونسيًا، وبطلاً قوميًا عربيًا، وفارسًا اجتاز بامتياز معموديّة النار. فمن ذا يجادل أمّا في نظرتها إلى ابنها، شهيدًا كان أو غيرَ شهيد؟

سيّدتي

كوني على ثقة بأنّ الملايين يشاركونك رأيك، ولسانُ حالهم يقول: لقد كان الشهيد ابنًا لك وحدك، فصارابنًا لنا جميعًا. كان بائعَ خضر متجوّلاً، فأضحى بائعَ أحلام متجوّلاً. صحيح أنّهم صادروا عربته، لكنّ أحدًا لن يستطيع مصادرة لهب احتراقه الذي ألهب النفوس وألهم انتفاضات الربيع العربيّ. إنّ الصفعة التي تلقّاها صفعت الملايين، والإهانة التي وُجّهت إليه أصابتنا في الصميم. الشهيد حيّ فينا ولن ننساه.

وكوني على ثقة بأنّ ما يؤلمك يؤلمنا، وما تتمنّينه من محافظة على أمانة ابنك، وتفكير من سيحكم البلاد في مصير الفقراء والمهمّشين... يشكّل هاجسًا كبيرًا لدينا. فالإنسان مفطور على النسيان، خصوصًا متى أصبح حاكمًا أو قائدًا يلعق عسل السلطة ولا يفكّر إلاّ في دوام عزّها.

سيّدتي

من حقّك أن تخافي على الأمانة الغالية. فتجارب الشعوب ليست دائمًا مشرقة. واسمحي لي أن أتمنّى لك وللشعب التونسيّ، شعب أبي القاسم الشابيّ الذي قال: إذا الشعب يومًا... دوامَ التذكّر، كي لا تضطرّوا إلى ترداد ما قاله شاعرنا اللبنانيّ جوزف حرب، بعد طول معاناة:

يا ليتهم شهداءَ الأرضِ ما سقطوا
فدى ترابِ بلادٍ أو فدى علمِ
ما قائدٌ مرّ في يومٍ بمقبرةٍ
إلاّ وكلُّ شهيدٍ صاحَ: أين دمي؟!

وفي الختام، أشدّ على يدك وأنحني أمام التضحيات التي أزهرت ربيعًا عربيًا، عسى أن يعقد زهره! والسلام.

النحّات بيار كرم

النحّات يوسف الحويّك

١٨٨٣- ١٩٦٢

خمسون سنة مرّت على رحيلِ شيخ النحّاتين اللبنانيّين وأوّلِ نحّاتٍ في الشرق. إنّه النحّات يوسف سعدالله الحويّك.

ولد الحويّك في التاسع من آذار ١٨٨٣ في قرية حلتا البترونيّة، وهو ابن أخٍ للبطريرك الكبير الياس الحويّك. منذ صغره كان يعشق الرسم والتصوير، ويحلم بجنّةٍ من الألوان والأزهار، ولكنّ هذه الجنّة لم تكن في خياله إنّما في قلبه.

درس في مدرسة الضيعة، وبعدها انتقل إلى مار يوحنّا مارون في كفرحيّ، ومن ثَمّ إلى مدرسة الحكمة في بيروت حيث كان لقاؤه الأوّل مع جبران خليل جبران، ثمّ إلى مدرسة الآباء اللعازاريّين في عينطوره- كسروان سنة ١٩٠٢.

سنة ١٩٠٣ ركب البحر إلى روما والتحق بالمدرسة الحرّة، حيث تعلّم أصول الرسم والتلوين وتشكيل الطين وقولبة الجفصين. ويقول: «... تعلّمت أصول الرسم والتلوين وتشكيل الطين... وزاد اقتناعي بأنّ الفنّ ليس وقفًا على الإلهام وعفو الخاطر، بل هو إلى جانب ذلك علمٌ له منطقُه ونواميسه».

في هذه المرحلة كان تفتّحه على عالم الفنون الواسع في أوروبا، وأصبح هذا الحلم الجميل الذي دغدغ مشاعرَه في هذا الشرق حقيقةً بين يديه.

أمضى خمسة أعوام في روما، كان خلالها يزور لبنان كلّ صيف. أمّا عام ١٩٠٩ فقد جاء إلى لبنان ليمكث فيه، إذا ناسبته الأحوال. فمكث مدّة من الزمن بضيافة الأديبِ الفيلسوف أمين الريحاني، حيث توطّدت صداقتهما حتّى آخر حياته.

ثمّ سافر الحويّك إلى باريس في السنة ذاتها ليلتقي برفيق صباه جبران خليل جبران ويُمضيا معًا حوالى السنتين وهما يرسمان ويزوران المتاحف والمسارح الباريسيّة. وفي باريس تردّد يوسف الحويّك على محترفات الرسم العامّة ليرسم الموديل العارية، والتي دخلت لاحقًا أعماله النحتيّة بشكل قوّي، وأصبحت المرأةُ العارية من مواضيعه المفضّلة؛ وقد أبدع في هذا المجال.

مع أحمد شوقي

لا شكّ أنّ يوسف الحويّك هو نحّات أكثر ممّا هو رسّام. ومن المعروف أنّ جبران هو الذي شجّعه على النحت مرّاتٍ عديدة، إذ قال له كما نقرأ في ذكريات الحويّك: «إنّك حتمًا نحّات خير منك رسّام...دونك النحت... تخصّص بالنحت!»

وفي مكان آخر: «في رأيي أن تتمرّن على النحت... في الشرق العربيّ لا يوجد نحّات... ستكون أوّل نحّات...».

كان يوسف الحويّك يعشق الفنّ الكلاسيكيّ الصرف، وهذا النوع من الفنّ قريب من شخصيّته الرصينة والمحافظة. فخلال وجوده في باريس لم يُظهر أيّ اهتمام بالنحّات العظيم أوغيست رودان والذي كان جبران يستميت للتكلّم معه. ولكنْ في فترة لاحقة من إنتاجه بدا تأثير العظيم رودان في أعمال الحويّك الصخريّة.

عام ١٩١١ عاد الحويّك إلى لبنان، لكنّه لم يمكث طويلاً فيه. اشتعلت الحرب العالميّة الأولى فسافر في أوائلها إلى روما ثمّ إلى باريس. دُعي في عام ١٩٢١ للاشتراك في معرض الفنون في السرايا الصغير في ساحة النجمة في بيروت. وكان النحّات اللبنانيّ الوحيدَ بين الرسّامين مصطفى فرّوخ ورشيد وهبي وغيرهما. لبّى الدعوة وجلب معه من باريس منحوتتين من الرخام الأبيض من حجم كبير لعاريتين مستلقيتين، ولكنْ خاب ظنّه بالمستوى الثقافيّ المتدنّي في تلك الفترة، حيث أنّ عددًا كبيرًا من زوّار المعرض كان يشيح بنظره عن المنحوتتين العاريتين، ولا يرى فيهما الناحية الجماليّة مثلما يفعل الزائر الأوروبيّ في روما وباريس.

ليوسف الحويّك عدد كبير من الأعمال في دير راهبات عبرين؛ ففي باحة الدير تمثالٌ لمار الياس من الرخام (حوالى ١٩١٣)، وفي الكنيسة له بالإضافة إلى جداريّتين كبيرتين والمذبح الكبير وضريح عمّه البطريرك تمثالٌ من البرونز للبطريرك راكعًا، وتمثالُ العائلةِ المقدّسة وامرأةٍ تتضرّع وراهبةٍ تصلّي. وله في مدرسة السيّدة لراهبات عبرين في بيروت رأسُ المطران الحويّك من البحر وعشر جداريّات تغطّي أغلب جدران الكنيسة.

كما كلّفه عمّه البطريرك برسمٍ فوق مذبح كنيسة الصرح في بكركي، وله تمثال للبابا بنديكتوس الخامس عشر في روما.

وكانت سنة ١٩٣٠ سنة تدشين تمثال الشهداء على ساحة البرج، والذي أُزيل في وقت لاحق إمعانًا من المسؤولين في حينها في الجهل والتخلّف.

سنة ١٩٣٢ تمّ رفع الستارة عن تمثال يوسف بك كرم في إهدن، وتمثال الأمير فؤاد أرسلان من البرونز في خلده. ورُفع تمثالٌ للعذراء سنة ١٩٥٤ من خشب السنديان داخل كنيسة سيّدة حريصا.

في باريس رافق يوسف الحويّك الملك فيصل بن حسين إلى المتاحف، وكان دليلَه فيها يفسّرُ له الأعمالَ الفنيّة ومعانيَها ومكامنَ الجمال فيها. كما التقاه أيضًا في روما، حيث

سعى للقاء الملك فيصل بالبابا بنوديكتوس الخامس عشر، وكان دليلَه في أرجاء الفاتيكان ومتاحفه.

كان يوسف الحويّك ذا نزعة قوميّة، أخذها عن والده، الذي اعتقلته القوّات الفرنسيّة عام ١٩٢٠، وكان واحدًا من أعضاء مجلس الإدارة الذين اجتمعوا بالملك فيصل في دمشق.

تزوّج الحويّك عام ١٩٢٥ في روما من المركيزة آنّا ماريّا پوليني. ولكنّ زواجه كان متسرّعًا، فاضطرّ إلى ترك المركيزة بعد فترة وجيزة وقبل أن يولد ابنه الوحيد جورج، الذي زاره في عورا سنة ١٩٥٩.

عاد يوسف الحويّك إلى لبنان ليستقرّ عام ١٩٣٩. ولمّا لم يكن لديه مكان للعيش والعمل في بيروت، عرض عليه الشاعر شارل القرم أن يستعمل تخشيبة في الحديقة الخلفيّة لمنـزله. استعان إبّان ذلك لنقل بعض تماثيله الجفصين إلى الحجر بعددٍ من النحّاتين، منهم حليم الحاج. وقد عرض في جناح لبنان في معرض نيويورك الدوليّ عام ١٩٣٩ عملين كبيرين، ولكنّه لم يستردّهما بسبب نشوب الحرب العالميّة الثانية.

ترك يوسف الحويّك بيروت في أوائل الخمسينات لينزوي في بلدة عورا القريبة من مسقط رأسه. قرّر اعتزال حياةَ المدنيّةِ المزيّفة ليعيش حياةَ تقشّفٍ بعيدًا عن ميسوري بيروت السطحيبي الثقافة أو معدوميها. فهم غير مؤهّلين لتقدير أعماله وشغفه كفنّان.

في عورا أنجز الحويّك العديد من الأعمال في الصخر والطين والجفصين، وجميعُها من الحجم الصغير.

وفي عورا زاره العديد من الأصدقاء والفنّانين المقرّبين أمثال الفيلسوف أمين الريحاني والرسّام عمر الأنسي وغيرهم من رجال الفكر والأدب والفنّ.

توفّي يوسف الحويّك في ٢١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ عن ٧٩ عامًا في المستشفى اللبنانيّ في بيروت بعدما تدهورت صحّته وفقد سمعَه وضعف نظره. وفي وقت لاحق، نُقل رفاته إلى منـزله في عورا على أمل أن يكون له متحف خاصّ لما تبقّى من أعماله. وكان قد أوصى قبيل وفاته بأن يُدفنَ بشكلٍ بسيط وأن لا يوضعَ أيُّ وسامٍ على نعشه إذ طالما كان رفض جميع الأوسمة على حياته.

ويبقى يوسف الحويّك بعد خمسين عامًا على وفاته شيخ النحت وبطريركَه في لبنان، وأوّلَ نحّاتٍ في هذا الشرق، مثلما توقّع له جبران. صحيحٌ أنّه لم يستطع أن يؤسّس لمدرسةٍ نحتيّةٍ ولكنّ الصحيحَ أيضًا أنّ أحدًا بعده وحتّى يومنا هذا لم يستطع أن يؤسّس مثل تلك المدرسة. والذنب هنا ليس بذنب يوسف الحويّك أو سواه من النحّاتين الروّاد، إنّما طبيعة هذا الشرق الذي ما استطاع أن يحضنَ من الفنون غيرَ فنّ الكلام، مع أنّ تاريخه القديم هو عكس ذلك.

كم نحن اليوم بأشدّ الحاجة إلى أمثال يوسف الحويّك من النحّاتين الموهوبين الحقيقيّين والصادقين، وليس لأنصاف فنّانين، وخاصّة بعدما أخذت موجةُ الحداثة في الفنّ والتعبير مداها الواسعَ، وعاد الذوقُ الفنيُّ الصادقُ والراقي يبحث عن الفنّ في الفنون بعد ليلٍ طويلٍ من الانحطاط على أيدي مدّعي النحت المأخوذين بحبِّ الظهور في عالم الفنّ الذي يجهلون.

نَمْ أيّها النحّاتُ عميقًا، فحجارتُك تبقى يقِظةً أينما كانت ساحاتُها لتقولَ وتعلّمَ من دفء أحلامك وعمق قلبك الكبير.

فيكتوريا سلموني نصراني

لماذا أُحبُّ يوسف حبشي الأشقر؟

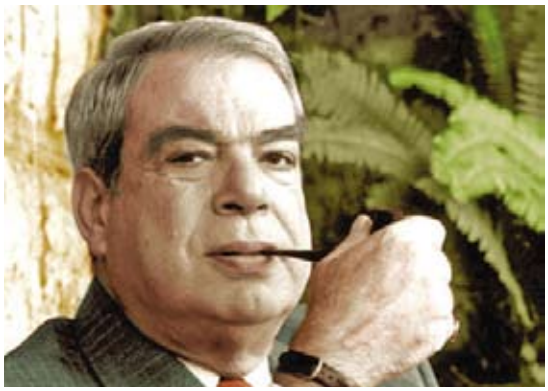

بين تاريخين مقلوبين وُلد ومات
١٩٢٩ صرخته الأولى. ١٩٩٢ صرختُه الأخيرة.
صراخ في صراخ. هو نفسُه بطلُ رواياته بأسماء تعدّدت. بهويّات تعدّدت. بأمكنة. بأزمنة. بأجواء. باتّجاهات... تعدّد في كلّ شيء على صراخٍ حميم، غاضبٍ، ثائرٍ- راءٍ. ما لم يتعدّد؟ حبّي لأدبه بعد عشرين، ها إنّي أقولُ له، في هذه الصفحات، لماذا أَستمرُّ أحبُّ أدبَه الحيّ الدائم.
يوسف... كيف الحال!؟

يشعر المرء، أحيانًا، أنّه منجذبٌ إلى كتابٍ، أو إلى أديبٍ، من دون سببٍ جدّي. فالكتاب يلفِت بأسلوبه، بصوره، بموضوعاتِه، بطروحاتِه، بروحِه، وكذلك الأديب. وكنت أحلم، منذ أنا على مقاعدِ التلمذة، وفي المرحلة المتوسّطة، آنذاك، بان أكتشفَ، يومًا، ما لا يقولُه أبناءُ بلدتي: زوق مكايل عنِ الشاعر الياس أبو شبكة، وهم يعرفونه. كانوا يتهامسون. وحين نقتربُ، نحن الصغار، وخصوصًا الفتيات، يتوقّفُ الهمسُ ويصرفونَنا بالتي هي أحسن. إلاّ أنّ أبي أسرّ إليّ، ذاتَ لحظةٍ، وما كنتُ أدري إذا صدرَ ذلك عفويًا أم عمدًا. قال: الياس لم يعش. الياس أحبّ. وكتبَ يوميّاتِه شعرًا. وما من شاعرٍ يضاهيه صدقًا.

تساءلتُ: ألا يجبُ أن يكونَ الأدبُ كذلك؟ وبالتالي: ألا يجبُ أن يكونَ الأدباءُ، جميعًا، صادقين.

وما قرأتُ كتابًا ليوسف حبشي الأشقر، في المدرسة، حتّى سارعْتُ إلى قراءةِ كتبه كلِّها. كتبُه الأولى، عن القرية وناسِها، فهمتُها... وأحببتُها... ثمّ أتت، في مرحلةٍ تالية، كتبُه الأخرى فقرأتُها... إلاّ أنّني كنت قد أحببتُها سلفًا. كنتُ أُحسُ أنّ شخصيّةَ يوسف حبشي الأشقر في كلِّ قصّةٍ، في كلِّ روايةٍ، في كلِّ صفحة. فقامَت بيني وبين مؤلّفاتِه علاقةٌ وجدانيّة.

إلى أن رأيتُه، صدفةً، فخفقَ قلبي. وما داريتُ مَن كان معي. بل نسيتُه. كان يوسف وحيدًا. أكان ينتظرُ أحدًا؟ حتّى الآن لا أدري. اقتحمتُ عالمَه ودخانَ غليونِه. ألقيتُ تحيّةً. ذكرتُ إسمي. وطرحتُ أسئلةً ارتجاليّةً نسيتُ ما كانت.

إلاّ أنّني سُررْتُ وما ارتويْت. ورحْتُ أترقّبُ إطلالاتِه وحواراتِه وأفرحُ بها؛ إلى أن درّستُ، بجديّةٍ، طوال فصلٍ كامل، روايتَه الأخيرة: الظلّ والصدى، في معهد عينطوره، ما جعلَني أُعايشُه، يوميًا، تحضيرًا ومناقشاتٍ وقراءاتٍ ومعرضَ رسومٍ من وحيِها... وها أنا أحدّثُ عَن: لماذا أحبُ يوسف حبشي الأشقر؟ فهل تتصوّرون أنّي أعرفُ لماذا؟

مَن كان يشاهدُ يوسف حبشي الأشقر، في قامتِه المائلةِ إلى القِصَرِ على شيءٍ من بدانةٍ، ووجهَه شبهَ العابسِ والقاسي الملامح، يحسبُه إنسانًا فظًا، فجًا، عنيفًا... كأنّه يبحث عن خياله ليقاتله. وما إن تقتربُ حتّى يتحوّلَ، كلُّه كلُّه، إلى ابتسامةٍ مرتابةٍ، أوّلاً؛ فإذا ما أَنِس إليك، واطمأنّ إلى طويّتِك، تحوّلت ابتسامتُه المرتابةُ تلك، إلى ابتسامةِ فرحٍ تجلجلُ في أعماقِه فتسري إليك... ويطيبُ اللقاء!

يوسف حبشي الأشقر «طريفٌ ظريف».. على تعبير الجاحظ. طريفُ الأفكارِ ظريفُ الألفاظِ. طريفُ المواقفِ ظريفُ الحركات. يمرّرُ ما يشاءُ بسهولةٍ وصراحةٍ محبّبتين تعشقُهُما عندَه، وفيه، على بعضِ خَشيةٍ تحبُّها، وتُكبرهُما فيه، وإن أصابتْك صراحتُه، أو أصابت مَن حواليك. يَعتبرُ أنّ الصراحةَ قيمةٌ لا بدّ منها. الصراحةُ تواجِهُ بمحبّةٍ، بإحساسٍ، بصدقٍ، توعّي الذاتَ فتعرفُ بعضَ ما فيها. كلُّ معرفةٍ ضرورةٌ. وصراحةُ يوسف وُلدَت معه، فهي بعضُ طبعِه وطبيعتِه. تبدو ظريفةً، وتبدو هازلةً، وتبدو بسيطةً، وقد تبدو، أحيانًا، مواربة.

إلى ذلك، فأديبُنا رصينٌ جِدّي. رصانتُه عميقةٌ، متأصّلةٌ في وجدانِه. حواراتُه النادرة، لكنْ السخيّةُ في بثِّ المواقفِ والفِكر، وفي إظهار ثقافةٍ كثيفةٍ، شاملةٍ، تجعلُك تقدّرُ، لديه، جِديّةً لا تلقاها عندَ أدعياءِ الجِديّة، لا تلقاها إلاّ عند عاشقِ الحياةِ بعمقٍ وثبات.

يوسف عاشقُ الحياة، بكلِّ ما فيها من تناقضاتٍ واتجاهاتٍ ومواقف... بكلِّ ما توحي من عِبَرٍ وفِكَر.. ولا تنازلات. فأديبُنا صاحبُ قناعاتٍ تعبَ عليها. حاورَ. ناقشَ. راقبَ. اقتنعَ. فتبنّى.

هاتان الرصانةُ والجديّةُ، لا تُكمِلان السخريةَ والهزلَ عنده فحسْب، بل هما، إليهما وفيهما معًا، نتيجةُ انفتاحٍ واسعٍ، شاملٍ، على شؤونِ المجتمعِ والكونِ والمصير، ما يشكّلُ، لديه، ثقافةً تعكسُ معارفَه، معتقداتِه وعاداتِه الأساسيّة.

هذه الثقافةُ هي مفتاحٌ نستطيعُ، عبرَه وبه، اختراقَ جدارِ الذاتِ الملتفّةِ على نفسِها، وجدارِ الجماعةِ السميكِ المؤدّي إلى النفسيّة الجَماعيّة: معارفَ، عاداتٍ، تقاليدَ.. وسوى ذلك.

ثقافتُه مرآةٌ. مرآةُ شخصيّتِه الكثيفةِ الحضور، وشخصيّتِك المعانيةِ أمامَه، وأنتَ تستمعُ أو تحاورُ أو تناقش.

الثقافةُ، لديه، لانهائيّة.

يُمضي الانسانُ طوالَ عمرِه في تثقيفِ ذاتِه. ليسَ ثقافةً كتُبيّةً فحسْب. بل اجتماعيّة وحياتيّة. فالانسانُ، مهما بلغَتْ ثقافتُه، عمقًا واتّساعًا وشموليّة، ليس كائنًا مثقّفًا، إنّما هو كائنٌ يتثقّف. تثقيفُ الذاتِ عملٌ يوميٌّ دؤوب. والثقافةُ ليست نقلاً أو معرفةً، إنّها خَلقٌ.

ثقافةُ يوسف، إلى صراحتِه وصدقِه، جعلَت منهُ إنسانَ تحدٍّ. التحدّي الذاتيّ، أوّلاً. مَن لا يتحدّى نفسَه، ثمّ ينتصرُ عليها، لن يصلَ إلى مكان. لن يبلغَ إلى فضاء. الجرأةُ انفتاحٌ. الانفتاحُ امتلاءٌ بالثقة، بالمحبّة، بالتواصل. وهذا التحدّي الذاتيّ، يؤدّي إلى الاقترابِ من المثال. إنّه، إذًا، عملٌ على النفس، صقلٌ لها، فتسعى، مبتهجةً، في حقولِ الانسان، لتصلَ إلى الأبعدِ والأرقى. لا تُحَبُّ جرأتُه؟! هذا نوعٌ منَ الانكفاءِ، من الخوفِ، من عدم الثقة. جرأتُه، لتُحَبّ وتختمرَ وتنضُجَ، في نيرانِ الصدقِ والصراحةِ والثقة. يعيشُ يوسف، بل يحيا، هذه القيمَ ونيرانَها الملتهبةَ الملهِبة. هكذا كانَ يتخطّى باستمرار.

هذا أمرٌ أدّى به إلى تواضعٍ شفيفٍ، باهرٍ، «ملآن»! على قول «جورج مصروعه». تواضُعُه يُعزّي باقتحامِ عالمِه، بل عوالِمِه. فيها تغرَقُ، ومعه، معًا تبحثان... لا تعرفانِ إلى أين تصلان. تتجاوران. تتجادلان. يُظهرُ لك شوقَه للاستماعِ إليك وكأنّه منك يَغرِفُ. لكنّ الواقعَ هو أنّكَ، أنتَ، منهُ تَغرِفُ. وتفرحُ. تدخلُ عليه فتعودُ زائدًا معارفَ، مشحونًا آمالاً، فالمعرفةُ على ازدياد.

لا يحدثُ ذلك صدفةً، وبسهولة. فأنتَ تراقبُه من بعيد. تهابُه. تحبُّه. تودُّ اقتحامَ عالمه، لكنّك تخشى. هو المشهورُ، أَيستقبلُني؟ هو الكاتبُ الطليعيُّ وأنا القارئةُ المعجبةُ، أيمنحُني وقتًا؟ أتّصلُ.. فإذا به طفلٌ في حجمِ رجل. قلبٌ في مساحة جسد.

لهذا كلِّه أحبُّه.

لا ننسَ، أوّلاً، أنّ يوسف حبشي الأشقر قرويٌّ من بيت شباب (كفرملاّت) كما يسمّيها. إذًا فهو ابنُ الريفِ والقيمِ والأصالة. يعرفُ قيمَ الضيعةِ كلّها، ويعيشُها. من الصدقِ والبراءةِ إلى الأَنفة والإباء. يعرفُ العنعناتِ القرويّةَ، يبتعدُ عنها ويصوّرُها، هازلاً، لا حبًّا بها، بل إشارةً لاذعةً إلى الابتعادِ عنها. يعرِفُ عاداتِ الضيعة وتقاليدَها كلّها، يرسُمُها: يحبّبُك بما يحبُّ، ويجعلُك تسخَرُ بما يجبُ تركُه. «راحيل»، قصّتُه الطويلةُ، تُبرزُ العلاقاتِ القرويّةَ من خلالِ بعضِ عاداتٍ وتقاليد. فهي مسنّةٌ، «تصيب بالعين»، تحذّرُ الأمّهاتُ أولادَهنّ منها، يعذّبونَها... لكنّه يُحَيّيها. يقتربُ منها. يراها على غير ما يَروُون. إنّ لها قلبًا رقيقًا. إنّها تحبُّ. إنّها تعطِفُ. ويصوّرُ علاقتَها بأرضِها. بأشجارِها... تعجبُه هذه العلاقةُ. يحبُّها، يحبُّها ويحاذر. وحين تموتُ ولا يمشي في جَنازتِها لسببٍ تافهٍ، يَندمُ، ويُكْبِرُها. راحيل قيمة.

وحين يكتبُ عن سياساتِ الضيعة، يَخلُقُ نماذجَ إنسانيّةً، نرى شخصيّاتِه في كلِّ مكان. متحزّبون، متهوّرون، متحمّسون، مبالغون، أو مستفيدون، أدعياء، مهووسون...

وحين يرسُمُ، بريشةٍ بليغةٍ، عاداتِ القرويّين وتقاليدَهم، في انتخاباتِ البلديّةِ، أو المآتمِ أو الأفراح... وسوى ذلك، نحسُّه ينقلُ حياةً بكلِّ ما فيها من إيقاعات. أدبُه حيٌّ ينقلُ حياةً. فهو قرويٌّ مغرمٌ بالقريةِ، وثائرٌ عليها. مغرمٌ بما فيها من نبلٍ وأصالةٍ وأخوّةٍ وبراءة.... وثائرٌ على ما فيها من تهوّرٍ ونكاياتٍ ووشاياتٍ وحسد...

لقد رأى وجهَي القريةِ: الضاحكَ والعابس، البريءَ والماجن، المؤمنَ والعابث... أُحبُّه لهذا.

لقد عَمِلَ يوسف حبشي الأشقر في المدينةِ، وإنْ مضطرًا، ربّما، بل على الأرجح. وفي المدينةِ راقبَ، وعَرَفَ، وخَبِر. حاورَ وناقشَ وناظرَ. وفي المدينةِ، أحبّ واقتحمَ، رسمَ وحلُمَ. واقَعَ وتخيّل. وفي المدينةِ، جِدٌ وهزلٌ، إيمانٌ ولا مبالاة. دُورُ عبادةٍ ومجالسُ عبَث.

وحين امتلأ، أبدعَ رواياتِه الخالدة. «أربعةُ أفراسٍ حمر». «لا تنبتُ جذورٌ في السماء». «الظلّ والصدى». وفي ما بين الأخيرتين كتابٌ خارجَ التوصيف: «المظلّةُ والملكُ وهاجسُ الموت».

فماذا قال؟ وما يجمعُ بينها؟ ولماذا أحبُّه من خلالِها؟

ماذا قال؟ وماذا لم يقلْ يوسف حبشي الأشقر؟؟؟

هو أديبٌ فنّان. الأديبُ حيٌّ يُحيي. يراقبُ. يصوّرُ. يبحثُ. يتأمّلُ. يحدّدُ رؤىً ويعمَلُ عليها. ويؤثّر. والفنّان خلاّقٌ مبدعٌ. يخلُقُ ذاتَه ويُبدِعُها. يخلُقُ شخصيّاتٍ ويبدعُها. يخلقُ مواقفَ ويبدعُها. وهذان، الأديبُ والفنّانُ فيه، يتجادلان باستمرارٍ ارتقاءً إلى مثال، محاولةَ اقترابٍ من المثال. كلُّ كتابٍ له محاولةٌ جديدة. كلُّ كتابةٍ معه مغامرةٌ جديدة.

أصدرَ يوسف حبشي الأشقر الجزءَ الأوّلَ من حياتِه، أقصِدُ روايتَه الأولى: «أربعة أفراس حمر» عام ١٩٦٤، ونجدُ فيه هواجسَ عديدةً، متنوّعةً، مختلفةً، مُتراصّةً، متّسقةً، منفصلةً، متشابكة، كأنّها- معًا- توقعُه في ارتباكٍ قاسٍ وقلقٍ يتمكّنُ منه: إنسانًا وكاتبًا، إلى نهايةِ الجزءِ الأخير، أقصدُ «الظلّ والصدى».

تبدأُ الروايةُ من نهايتها، (أكان يستعجلُها؟) هكذا ومن دون مقدّمات. ماذا فعلَ يوسف؟ كتبَ ليطرحَ قضيّةً. قضيّتُه هيَ البحثُ عن الجذور. الجذورُ، هنا، انغراسٌ في الأرضِ ومؤاخاةُ التراب، امتدادٌ في التراث: فجذورُ الحاضرِ هي امتدادٌ إلى الماضي والآتي. الجذورُ، كذلك، تواصلٌ عبرَ الانسان (الأبناء)، وإن كانَ لكلِّ شخصيّةٍ أناها الأخرى، وجهُها الآخرُ المناقض.

تعيشُ شخصيّاتُه مأساةَ الصراع. الصراعُ محاولاتٌ حثيثةٌ واعيةٌ وغيرُ واعيةٍ،لتحقيقِ الذات.

ماذا تختارُ الشخصيّةُ؟

كيف تختارُ ما تختارُه؟

لماذا؟ هل هي حُرّةٌ؟

ما الحريّةُ؟

هل هي مسؤولةٌ عن خَيارِها؟

إلى أيّ درجةٍ؟

ما معنى هذه المسؤوليّة؟

يُخرمشُ يوسف حبشي الأشقر خرمشةً جميلةً. يجعلُك، كقارئ، تَعرفُ أنّ الصراعَ وجودٌ فاعل، وأنّه من أجلِ وجودٍ حرّ، خليقٍ بالحريّة ومستاهلٍ لها، ما يوحي إليكَ أنّه يكتبُ عنكَ ما تشعرُ به ولا تقولُه، فكأنّكَ في فكرِه وقلبِه، وفي فكرِ الشخصيّاتِ وقلبِها، باحثًا عن جذورِكَ، فكأنّك- بعد- تأخذ بأيدي الشخصيّات أو كأنّها هي آخذةٌ بيديك.

حتّى بعدَ إغلاقِك الكتابَ، فتطرحُ على ذاتِك أسئلةً لعلّ أبرزَها: لماذا لم يغفرْ يوسف (أحدُ أبطالِ الرواية) لأمِّه؟ ألم يستطعْ؟ لماذا هو لا يستطيع؟ ألا يريدُ الاعترافَ بواقعِها؟ كم يؤلمُه أن تموتَ قبل أن يبوحَ لها بحبِّه؟

يُوسف (بطلُ الروايةِ) يحبُّ برومنسيّةٍ حالمة. مها تطلبُ أن يقولَ لها أحبّكِ، لكنّه يعتبرُها الكلمةَ المحرّمة، القاضيةَ على المنطق. يرى أنّ التفوّه بها يعني الاستسلام. «منطِقُه» لا يريدُ ذلك. ويعيشُ هذا الصراع.

يحاولُ هذا البطلُ القيامَ بشيءٍ مختلف. فهو يبحثُ عمّا وراءَ الأشياء، هو لا يؤمنُ بها، ولا يتقبّلُ الحياةَ كما هي، لا يريدُ الاستسلام. واسكندر يخسرُ كلّ شيءٍ (الحلم والجذور)، فيلجأُ إلى حلمٍ جديدٍ: حلمِ القوّةِ وحلمِ الكتابة. ألم يكونا هاجسًا ووهمًا؟

وأصدر روائيّنا روايةَ «لا تنبتُ جذورٌ في السماء» سنة ١٩٧٢. ألا

نجدُ أنّ بحثَه عن الجذورِ، في روايتِه السابقةِ (وبينَهما ثماني سنوات) ستمرُّ هنا أيضًا، وفي العنوان؟ إلاّ أنّ الصيغةَ المباشرةَ لهذا العنوان تؤكّدُ يأسَ البحثِ. لكأنّه يدور في حلْقةٍ مفرغةٍ، منهمكًا، كبطله، في البحثِ عن الحقيقة، عن الجذور... لكن لا يتوصّلُ إلى شيء. فيرفضُ. يرفضُ ما يعيقُ تحقيقَ الذاتِ، ويتحلّلُ من مطلَقات: الله— السلطة- الشعب- المجتمع- الحبّ... تخلّى اسكندر عن الله لأسباب، فهو يشعرُ بضَعفِه أمامَه، ولا يستطيعُ التماهي به، فيُدركُ حجمَه الحقيقيّ أمامَه وعجزَه عن فَهمِ ما قام به... فرفضَ رفضًا تامًا التسليمَ بالحاجةِ إليه. هو أرادَ إلهًا يغيّرُ عالمَ الأرض، يحُلُّ مشكلاتِها... إلهًا يعيشُ همومَ الناس... لا يريدُ حلولاً في عالمٍ ما ورائيّ، يريدُ إلهَ الناس، لا إلهَ عالمٍ آخر.

وفي رفضِه بحثٌ عن الالتزام. في الالتزامِ تصوّرٌ قدسيّةٍ جديدةٍ، غيرِ دينيّة. كَشفتْ شخصيّاتُه الرافضةُ مدى حاجتِها إلى حرارةِ إيمانٍ، إلى فكرةٍ عميقةٍ، مبتكرةٍ، إلى هُويّة. هكذا بدَت تسعى إلى تكوينِ وجودٍ جديدٍ لها. اسكندر ذو منهجٍ خاصّ. يبدو قويًا أمامَ الآخر، لكنّه ضعيف. يتهاوى في ذاتِه، أمامَ ذاته، يتخلخلُ، فيقعُ في الكذِبِ، ما يجعلُه دائمَ الشقاءِ.

وأُنسي يلجأُ إلى الماركسيّةِ ويخيبُ، وإلى المخاطرةِ فيُخطئُ الوسيلةَ، والثورةِ كحركةٍ لا تسيرُ على قاعدةِ المنطقِ التقليديّ، ويخيبُ مرّةً بعد. فالثورةُ عملٌ جَماعيّ. من أينَ يأتي بجماعةٍ متناغمةٍ تُؤمِن بقضيّةٍ بعيدًا عن المصالح؟ ويعودُ إلى الحبّ كبديلٍ إيمانِه بالله، على اعتبارِه وسيلةً خلاصيّةً، يستمدُّ منه قوّةً. لكنّه يحمّلُه أبعادًا كثيرةً ينوءُ بها. الغريب أنّه رجلٌ مراهق. يتخيّلُ الحبيبةَ قبل أن يعرفَها. يتخيّلُها مطلقًا. أرادَ عبادَتَها، والعبادةُ لما لا يُطال... وخابَ. غَضِبَ وثارَ لمّا أصبحت في متناولِه.

ولم يُرِدْ اسكندر حبًّا مرهونًا بحواجزِ المؤسّساتِ القائمة. أرادَ أن يصلَ، بواسطةِ الحبِّ، إلى الحريّةِ، فلم يستطعْ. وَوُوجِهَ بمأساة: كشفَتِ المرأةُ عن نفسِها كجسدٍ بواسطةِ جسدٍ ومن أجلِ جسد. فسقطَ المُطلَقُ الجديدُ. واستمرّ الصراعُ والرفضُ والبحثُ عن الحريّة.

من هنا الاستغراقُ في الاغتراب: مكانيًا ونفسيًا.

فروايةُ «الظلّ والصدى» الصادرةُ سنة ١٩٨٩، تبدأُ بمشهدِ أثاثِ المنـزلِ مغطّىً بملاءاتٍ بيضاء، وتنتهي بمشهدِ المقبرةِ البيضاءِ في الضيعةِ، كأنّ البطلَ عاشَ في مقبرةٍ وانتقلَ إلى مقبرة. كان اسكندرُ غريبًا ومختلفًا. صار الفردَ بمواجهةِ الجماعة. الجماعةُ هي الصدى. لكنّ اسكندر لم يكنِ الفعل. هو مثقّفٌ مثاليّ. إذًا لا يفعلُ شيئًا بمواجهةِ الآخرينَ المحاربين. وحدَه ضدّ الحرب. جميعُهم معها. واقعيًا عاشَ صراعًا، عاشَ رفضًا، عاشَ غربة. ويسقطُ. إنّه «زمنُ السّقوط».

ينشغِلُ اسكندر بضَعفه، فيكفُّ عن العملِ ويعلنُ انتظارَ الموت. هذا الانتظارُ تدميرٌ للذات، وليس وعيًا. أمّا أنسي فيعجزُ بدوره. يأخذ بالقَدَريّةِ. يتنازلُ عن أحلامِه. وتصبحُ حياتُه سلسلةَ هروبٍ، ولكنْ إلى لا شيء. ينتقلُ من مطلقٍ إلى مطلَق، ويُدركُ أنّه غيرُ واصلٍ إلى الحريّة... ويفشَلُ في الانتحار. وهذا دليلُ عجزٍ آخر. ويغيب زمنُ الانتظارِ والإصغاءِ والتحفُّز.

لقد اختلَفتِ الرؤيةُ إلى العَلاقاتِ بين الشخصيّات، وانتهتْ إلى مجرىً وحيد: الافتراق. اكتشفوا زيفَ اعتقاداتِهم. هذا الاختلافُ زادَ في التباعد. أفقدَ الحوارَ الوِجدانيّ والكلاميّ، فرأى كلٌّ من جانبٍ، معنى الحياةِ ولا معناها. ما يتناسبُ والهمّ الوجوديّ الشخصيّ. فالعائلةُ أفرادٌ لا جماعةٌ، وكذلك المجتمع.

إذًا فما يجمعُ بينَ هذه الرواياتِ جملةُ قضايا هي الرفضُ والصراعُ والحبُّ والحريّةُ والاغترابُ والموتُ والوجوديّةُ العبثيّة، وهي ما قالَه يوسف حبشي الأشقر.

ويجمعُ ما بينها- بَعدُ- ذاتيّةٌ فضّاحةٌ، ورؤيةٌ ورؤيا مثاليّتان، وهواجسُ وأبطالٌ هم أنفسُهم، ولغة. ما يجمعُ ما بينها روحُ يوسف حبشي الأشقر اللّماحةُ، الشفيفةُ، الذكيّةُ، المتألّمة...

«أربعةُ أفراسٍ حمر»، «لا تنبتُ جذور في السماء»، «الظلُّ والصدى»، ثلاثُ روايات؟ بل ثلاثةُ أجزاءَ تروي يُوسف حبشي الأشقر، الفرسَ الجموحَ، الباحثَ أبدًا عن جذورٍ يعرفُ أنّها تهويماتٌ لن تكونَ في فراغ، ولا يلقاها في تربةِ الواقعِ، فيظلُّ ظلّ ذاتِه الهادرةِ فيه وصداها الخلاّقَ في نفوسِ قادِريه.

ختامًا، لماذا أحبّ يوسف حبشي الأشقر؟

- لأنّه استطاع أن ينقلَني، أنا القارئةُ، إلى الروايةِ العربيّةِ الحديثة؛

- ولأنّ له فضلاً عميقًا، مؤثّرًا، في الانتقالِ من الكلاسيكيّة البليدة إلى الرواية الطليعيّة؛

- ولأنّه أخرجَ الروايةَ من الماضي، من دونِ أن يجرّحَه، إلى الآتي الطليقِ والحرّ؛

- ولأنّ روايتَه متداخلةٌ، متفرّعةٌ، متمكّنةٌ من ذاتها ومن ذات القارئ؛

- ولأنّه أسّس لسُلالةٍ روائيّةٍ هو خالقُها؛

- ولأنّه من المستحيلِ أن يموتَ، أن يقهرَه زمنٌ؛

- ولأنّه لن يصيرَ حدثًا ماضيًا، لأنّه الراهنُ الدائم؛

- ولأنّه عبّرَ عنّي في خوفي وقلقي وضَعفي ونَزواتي ورُؤايَ...

لكنّي أتساءلُ: أمامَكم ومعكُم، هل استطعتُ أن أسوّغَ حُبّي لهذا الانسانِ الذي تَقمّصَهُ فنُّ الروايةِ؟

فؤاد سليمان بريشة فروح .

أَقلّ الايمان لفؤاد سليمان
في مئويّة مولده ١٩١٢- ٢٠١٢
تحيّة وشهادة

تحيّة من
جورج مغامس

«لم أَقلْ بَعدُ شيئًا من المقطعِ الكبيرِ الّذي أُعِدُّ حياتي كلّها من أجله».

فؤاد سليمان بالحقّ نَطق. فقد رحل عن دنيانا ولمّا يُتِمّ ربيعَه الرّابع (١٩١٢- ١٩٥١ [١٤ ك١])، بعد أشهرٍ من الألمِ المُمِضّ في مستشفى الجامعة الأميركيّة ببيروت. ولَكم كان أَغنانا بَعدُ لو أُتيحَ له من العمرِ ما يحقّقُ فيه مِلءَ قولِه الآخرَ: «هكذا أريدُ نفسي: شيءٌ من الرّجولة، شيءٌ من الكبرياء، شيءٌ من الرّزانة، شيءٌ من العاطفة». لكنّ يدَ الله فوق أيدينا، وطُرقَه غيرُ طُرقِنا!

الصّغيرُ في إخوته (أربعة)، صغيرًا مات، مخلّفًا ثلاثةً صغارًا وصيتًا كبيرًا.. إرثًا أدبيًا جَمًا أَجمعتِ الأقلامُ على جزالتِه وطلاوتِه واحترارِ جُذوةِ صدقِه في سهلٍ ممتنعٍ من حدّةِ التّفكيرِ وجَدّةِ التّعبيرِ والتّوشيحِ الشّعريّ الشّفيفِ كشّافِ الجمال!

وإذا كان بعضُنا قرأ: في «رحاب النقد» و«يوميّات ورسائل» ويا«أمّتي إلى أين» و«كلمات لاذعة»، فإنّنا جميعًا قرأنا: «درب القمر» و«أغاني تمّوز» و«تموّزيّات» و«القناديل الحمراء»؛ فله في الذّواكرِ أطيبُ الأثر!

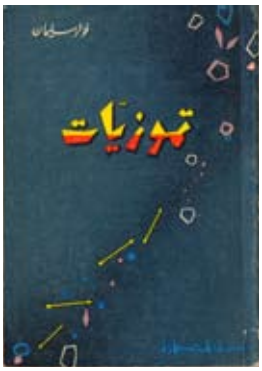

وما أُحيلاه يُغَنّى:

غنِّ.. أحبُّكَ أن تغنّي وتحدّثَ الأطيابَ عنّي
غنِّ.. فما عرفَ الهوى أحلى على النّغماتِ منّي...

وحقًا حقًا هو أَحلى النّغماتِ من «فِيع الكورة» في أدبِنا الحديثِ، وأَنقى الأصداءِ الجبرانيّة وأرقاها.. في حَفرٍ وطَمرٍ، وتقاسمِ الدّمعِ حينًا وحينًا الخبزَ والماء، وفي ترميمِ الهممِ، وحَثِّ النّهضاتِ، وقولِ القَولةَ النّبويّة.

ومَن يَعرفْ فؤاد سليمان يَعرفْ أَنّه أُعجبَ بجبران إعجابَه بإنجيلٍ وقرآنٍ وبرومنسيّين غربيّين كثيرين ثائرين ومتألّمين، فجعلَه أوّلاً موضوعَ دراستِه الجامعيّة، واقتفى آثارَه تاليًا بتوجّهاتٍ وأسلوب.

فؤاد سليمان اسمٌ على مُسمّى: فلقد كان فؤادًا يتحسّسُ الطبيعةَ والنّاسَ بالقبحِ والجمال، بالفرحِ والألم، بالرّضى والغضب، بالنّجاحِ والفشل، بالانتصارِ والانكسار..؛ وكان الحكيمَ يبلسمُ بدُهنِ الطّيوبِ أو يكوي بالجمرِ والملحِ وصوتٍ صارخٍ في البريّة، ويَخطُّ دربًا إلى قمرٍ من مطارفِ الأرجوان.. أو إلى بوّابة العيدِ وموائدِ الألم.

فيا صباحَ الخيرِ يا تمّوز، أَيّها الريفيُّ المرهفُ المترفُ المطلُّ على الورد، يا سنديانةً لم تُغلِقْ نوافذَها على الشّمس، ويا حجرًا من مرمرٍ جاورَ نجمًا وياسمينة،.. ما أحوجَنا إليكَ اليومَ، إلى ولادةٍ لك جديدة بين «أهل القلم» في زاويةٍ من زوايا «النهار» وأخواتِها...

ما أحوجَنا إلى صوتِك في الهجرةِ والطائفيّةِ والفقرِ والجوعِ والتّشرّدِ والموتِ وذُلِّ الرّصاص...

ما أحوجَنا إلى صوتِك في صوتِ المرأة وفي ربيعِ الدّمِ ودمٍ على الرّمال...

فهاتِ قلمَك نسايفِ العواصفَ، نَدرْ في دوائرِ البراكينِ، نطاردِ الهواجسَ والمواجعَ والبكارات، نَبحثْ نَعبثْ.. نَبعثْ قيمًا وجمالات...

أيّها الطّفلُ المتمرّدُ كفوحِ الوردِ أو برقِ السّماء، لوّنْ معنا الرّيحَ والحرفَ بحرارةِ وجدانِك، وامنحْنا جناحًا من هُتافِ أعماقِك لعلّها تغرينا تلك الأبوابُ المغلقة في ضمائرِنا وفي ساحاتِ الوطن!

يا ابنَ المعاناةِ، سَنّنتْ شفارَها مَجاعةُ الجَرادِ ومظالمُ الكُوجُكِ والباشا وغربةُ أَبٍ طويلاً وبعيدًا في بلادِ البونشو والسُّومبريرو والتِيكيلا والصُبّيّرِ متى أَزهرَ وأَثمر،.. أُغرزْ إبرَكَ في جُلودِنا وطَرّزْ بالخارقِ الحارقِ نعمةً ونغمةً وجنونًا بهيًا.. قماقمَ عطرٍ وبرقٍ ومساكبَ حبق.

أيّها الدّفّاقُ، أَلا إنّ الكلمةَ العذبةَ كصبيّةٍ بغِلالةِ الفجرِ دالتْ لك ودانَتْ، فَدفّقتْ كَفّاكَ بالعطاء..، والعطاءُ من روحِ العنبِ والزّهرِ والنّعناع.. قوتَ قلوبٍ وأرواح!

فؤاد سليمان- نقولُها مع أنطون قازان في مئويّةِ ولادتِك الأولى: «حَسْبُك أَنّنا، لشّهاماتِ عمرِك، بتنا نؤثِرُ العمرَ القصير!»

أيُها البلبلُ الأليفُ الطّريفُ الكَرّار.. أعطِنا زيتًا من زيتونك.

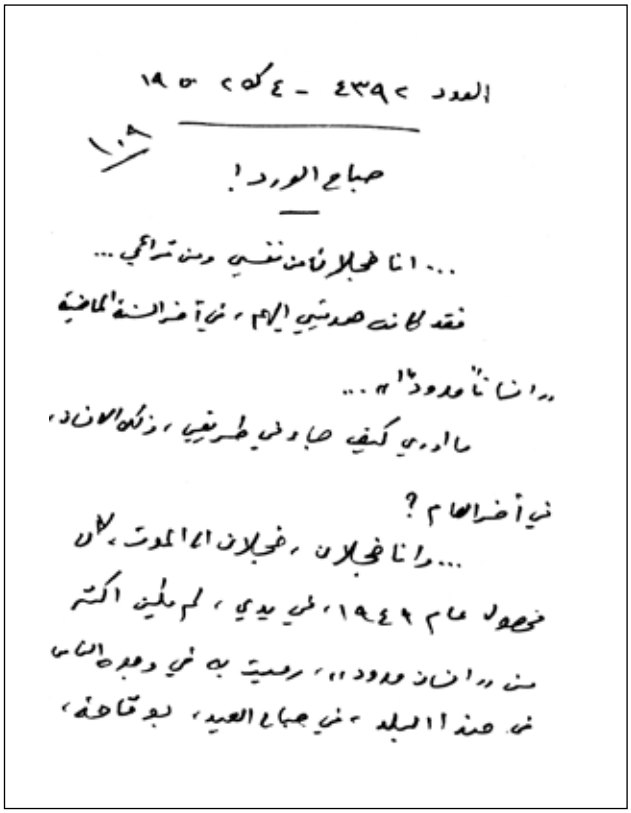

شهادة من

أنطوان رعد

بين فيع مسقط رأس فؤاد سليمان، وبيروت مركز عمله، طريق يختصر مشوار العمر ورحلة الهجرة إلى الداخل. وبين المشوار والرحلة مرآة لا تعكس صورة الأديب فؤاد سليمان فحسب، بل صورةَ الكثيرين منّا، نحن الذين توزّعت أعمارهم بين القرية والمدينة، وظلّت قلوبهم مشدودةً أبدًا بأسباب خفيّة إلى حيث الترابُ تبرٌ وضوءٌ وتاجٌ مرصّعٌ بالدموع والذكريات.

فؤاد سليمان أديب من الكورة الخضراء، جمعَ بين الصدق والحكمة. أمّا الصدق فلأنّه خطّ في مختلف نتاجه الأدبيّ ما أملاه عليه فؤاده، وأمّا الحكمة فقد أسلست له قيادَها وهامت بيراعه كما أسلست قيادَها وهامت من قَبْلُ بصولجان سليمان.

ما من مرّة ذُكِرَ أمامي فؤاد سليمان إلاّ وحضر في بالي هذا المقطعُ المحفور كالوشم في القلب وفي الذاكرة، وقد اخترتُه أوّل عهدي بالتدريس في العام ١٩٦٠ كمادّة للحفظ في السنة التكميليّة الثالثة:

«مواقد النار في الثلوج باردة حتّى الصقيع، تنطفئ الجمرات فيها على كفّ شيخة وشيخ يبست فيهما العروق، وحيدين، وحيدين إلاّ من الصورة المعلّقة في الحيط، وهذه الرسالة تنام تحت المخدّة فيها ريحة ولد ضاع في البحر.

جرس الكنيسة الكبير في العيد محنيّ الرأس، كئيب لا يدقّ دقّاته، فقد قطع الشباب حباله وراحوا.

.. أنوال الحرير في الدار يغصّ فيها الغناء، فلا يطلع في بالها إلاّ الندب.

.. بيوت القرميد معتمة تعيش في ظلام الوحشة، وظلمة الهجران، على قرميدها الأحمر غراب وفي شبابيكها المخلّعة بومة.

.. ما غصّت في الأرض أمّ مثلما غصّت أمّهات شباب بلادي ترمي بهم على كفّ العفاريت، فوق الموج، خلف الشمس، على البحار السبعة حيث لا تصل العين.

أمسِ ودّعتُ أنا أحبّاء من ضيعتيُ راحوا وراء الحكاية الرائعة إلى مغاور الزمرّد والياقوت، فليت دربَك يا بحر لم تكن علينا».

فؤاد سليمان واحد من أدباء المثلّث اللبنانيّ الذين برعوا في ما يُعرف بأدب الريف أو أدب القرية؛ ولئن أختصّ أمين نخلة بأسلوب الفانيتيزيا ومارون عبّود بالأسلوب الساخر، فإنّ فؤاد سليمان طَبعَ أسلوبَه بطابع المعاناة إذ ترك مِزَقًا من قلبه على الورق، وفجّر في نثره طاقاتٍ شعريّةً ولّدت مشاركةً وجدانيّة بينه وبين القارئ.

لقد تعدّدت الأساليب عند هؤلاء الأدباء الثلاثة، ولكنّ الإبداع واحد. ويكفي فؤاد سليمان فخرًا أنّنا نقع في كتابه «درب القمر» على حفنة من تراب لبنان ونفحة من عبير الجنّة.

كلماتٌ من بيدره

من «القناديل الحمراء»:

• قلت: لماذا أكتب؟ وما نفع أن أكتب؟

هاأنذا منذ سنوات أكتب الحروفَ من دمي ومن أعصابي، لهيبًا، وأخال أنّ حروفي تذهب في الناس صواعق، فتُرجف طغاةَ السياسة في كراسيهم، وطغاةَ التجارة وراء مكاتبهم، وطغاةَ الدين في هياكل أصنامهم!!

وما كنت أظنّ أنّ صوتي، وصوتَ العشرات من أمثالي سيذهب في الفضاء دخانًا...

ما أقسى أن تصرخ في الفضاء... وحدك، في بلد يسدّ أذنه وقلبه وعينه، ويمشي على العمى...

إنّ حرفًا، نكتبه في هذا البلد من دمائنا، نريده حقًّا وخيرًا، ونريده لهيبَ نيران، قد يكون له قيمةٌ وثمن، في غيرِ هذا البلد...

هذا بلدٌ يريد أن يفتحَ بطنه وتمتلئَ معدته... ويصغرَ رأسه وتزمّ قامته...

وليس للحرف قيمة ولا ثمن في بلاد الأقزام...

• مساكين أهل فلسطين، مساكين، لا لأنّهم فقدوا أوطانهم...

أهالي فلسطين منكوبون بمحبّة العالم العربيّ لهم.

• «صاحبة الجلالة» ما فيها شيء من جلال الملوك ولا من وقارهم.

فيها نهش لأعراض الناس!

وسمسرة بكرامات الناس!!

وأقلام أجيرة...

• بلد أردنا السياسة فيه علمًا وإخلاصًا ومحبّة، فكانت بهلوانيّة وشعوذة هنود، وكانت تجارة رابحة نبيع فيها الضمائر والذمم ولا نستحي... مزرعةً جعلناه، وجعلناه غابة...»

• أين هو الشعب الذي لم يرفع رأسًا في وجه الجلاّد، أين هو هذا الشعب الذي داسته حوافر الخيول المطّهمة وغرزت حديدها في دمه، وهو يصلّي إلى الله دون إيمان ولا معرفة. أين هو هذا الشعب الذي نجرّ أخشابَ نعشه.

• الغربة قاسية مرّة. ولكنّ غربة الانسان في وطنه أقسى وأشدّ مرارة.

ماذا يفعل الانسان في وطنٍ لا يجد فيه رغيفًا يأكله، وماءً يشربه، وقميصًا يلبسه؟؟؟

ماذا يفعل الانسان في وطنٍ تتنازعه الطوائف والأحزاب والعائلات، فلا يبقى منه للشعب غيرُ التراب اليابس؟؟

ماذا يفعل الانسان في وطن، يبصق الدم فيه ليعلّم أولاده، أو ليلبسهم حذاء في يوم عيد؟؟

• الوزير خادم الشعب... النائب خادم الشعب... الموظّف كَبُرَ أم صَغُرَ خادم الشعب...

والشعب وحده هو السيّد.

ولا سيادة فوق سيادة الشعب...

إنّه يوم عظيم في حياتنا، في حياة الشعوب العربيّة كلّها، يوم يعرف حكّامنا هذا المبدأ الأساسيّ في حكم الشعوب، فيعرفون أنّهم إنّما هم أجراء للسيادة الشعبيّة.

السلطان الذي بيدهم هو سلطان الشعب.

وإنّما هم، في مراكزهم، ليخدموا الشعب، لا ليستخدموا الشعب.

من «تمّوزيّات»:

• يا ليته كان لي، في كلّ صباح، أن أمرّ في أحياء الناس، فأزيلَ من قلوبهم بعضًا من همومها وغمومها،

أو أن أمسحَ في الناس جراحًا ودموعًا...

إذن لكان صباحُ الناس خيرًا عن حقّ.

من «درب القمر»:

• أمّي... من ألوان عود الصليب وجه أمّي... فما تعرف الألوان أنقى وأعمق وأصفى... وكأنّ الذي حاكه مرّة، حاكه، وقطع يده لئلاّ يحوك مثله.

فيل لون أمّي... يا لونها الحبيب،

وحدك وحدك أنت في دمي...

من «يا أمتي إلى أين»:

• لماذا لا تعقد الدول العربيّة صلحًا مع إسرائيل وننتهي مرّة واحدة من هذه المهزلة الدامية الحمقاء التي نمثّلها على مسمع من شعوب الأرض ومرآها؟؟

... إنّ دولة تحترم نفسها، وتحترم شعور رعاياها، تقبل واحدًا من ثلاثة أمور:

إمّا أنّها تردّ الضربة ضربتين والكيل كيلين...

وإمّا أن تعقد الصلح الذي لا يشرّفنا كثيرًا ولكنّه لا يبهدلنا كثيرًا...

وإمّا أن تعلن إفلاسها النهائيّ وتذهب من وجوهنا.

من «أغاني تمّوز»:

لون الورد

حنانَك... أيُّ لونٍ أيُّ طيبِ
يَهِلُّ، إذا خطرتِ على دروبي؟
يكادُ القفرُ يُخصبُ في خيالي
ويندى بالشُعاعِ وبالطّيوبِ
كأنّكِ أنتِ وحدَك في الصّبايا
هوىً حُلْوٌ وكَرّةُ عندليبِ
حملتُ هواكِ في هُدبَيّ حُلُمًا
أخافُ عليهِ من غمضٍ مُريبِ
وأُشفِقُ أنْ يُلِمّ به خيالٌ
من الماضي المثقّلِ بالذنوبِ
فما للإثمِ في هُدبَيّ رفٌّ
كأنّ هواكِ من طُهرِ الصليبِ
حنانَك... ما الربيعُ أحنُّ وجهًا
وأطيبُ من ندائكِ: يا حبيبي
إذا تلقينَ في عينيّ همّا
وفي وجهي اصفراراتِ المغيبِ
تَمسّحُ كفُّكَ التعبَ المُندّى
ويَغمرُني الضياءُ... على شحوبي...

السّنة ٢٠١٢، يَحتفل الشّعرُ بالمئويّة الأولى لولادة شاعر الكوخ الأخضر رياض المعلوف (١٩١٢)، والمتوفّى عن تسعين عامًا (٢٠٠٢)، حَفلت بروحِ التجديدِ في شعرِه بالعربيّةِ والفرنسيّة، وبالدّعوةِ إلى إذكاءِ هذه الرّوحِ من عَلى منبرِ عضويّته في العصبة الأندلسيّة ونادي القلم الدوليّ.

والرّياض الذي من بيتِ عيسى (١٩٦٨- ١٩٥٦)، المؤرّخِ (تاريخ الأسر الشرقيّة- تاريخ الأمير فخر الدين) وعضوِ المجامع العلميّة في مصر ودمشق وبيروت والبرازيل،.. هذا الرياض هو أَخو الأخوَين الشاعرين: فوزي (١٨٩٩- ١٩٣٠) صاحبِ مطوّلةِ على بساط الرّيح، وشفيق (١٩٠٥- ١٩٧٦) رئيسِ العصبةِ الأندلسيّة وصاحبِ ملحمة عَبقر ودواوين أحلام ونداء المجاذيف وسنابل راعوت.

وإنّي أَزعمُ أَنّ تَوادًا نشأ بيني وبينه في سنواته الأخيرة، حين سَكن في زوق مصبح على مقربةٍ من جامعتِنا، وكان يهاتفُني بدماثةٍ بصوتِه الرّقيق أو يكاتبُني بخطّه الأنيق في منـزلي المصبحانيّ أو في موقعي الإذاعيّ (صوت لبنان)، ولا يَضِنُّ لا برأي ولا بقصيدة، بل يَفرحُ بما يُعطي ونأخذ!

وها ثَمّةَ ذكرياتٌ للأستاذِ الأديبِ الأَريب جان كميد في شاعرنا، هي صورةٌ من صور الصداقة، كتلك الصورِ المولّيةِ في «صور قرويّة»...

ج.م.ض

جان كميد

رياض المعلوف وصداقة عمر

تعود معرفتي بالشاعر رياض المعلوف إلى العام ١٩٥٦، يوم اعتزمنا في مجلّة «الرسالة» إصدارَ عدد خاصّ عن شقيقه الشاعر المهجريّ فوزي، وكنّا بحاجة إلى صور له، ومعلومات، ووثائق ومستندات. ذهبتُ إليه في زحلة برفقة الصديقين غسّان خالد ورياض حنين رحمهما الله. فرحّب بنا وبفكرة إصدار هذا العدد، وزوّدنا بما يتوفّر لديه ممّا نحتاجه، مشيرًا علينا بمكاتبة أخيه الشاعر شفيق في البرازيل ليوافيَنا بالمزيد. وقد كان هذا اللقاء والتعارف مناسبة ليكتب رياض شخصيًا في «الرسالة» وينشر فيها شعره، وقد شارك هو وأخوه شفيق في العدد.

وبقيت بعد ذلك على اتصال به بالمراسلة، إلى أن حصلتِ الأحداثُ المعروفة وكان لزحلة منها النصيب الكبير، فغادرها رياض إلى كسروان، واستضافه دير المرسلين البولسيّين في حريصا، إلاّ أنّه كان يوافيني بصورة شبه يوميّة إلى بيتي في جونية، فنقضي النهار في أحاديث الأدب والشعر ويُسمعني قصائده الجديدة. وفي فترة من الهدوء الأمنيّ العابر أراد نادي لاجوكوند في الزوق تكريمَه، فطلب إليّ هو المشاركة في الاحتفال. ولمّا كنت دائمًا أطمح إلى التفرّد في ما أكتبه، فقد وجدت أنّ الموضوع الذي لن يتطرّق إليه أحد هو شعر رياض المعلوف الفرنسيّ. فإنّ له ديوانَ شعر سبق أن أهدانيه بعنوان Poêmes. وهكذا بدأت بلمحة عامّة عنه كشاعر لا يعاني صعوبة في رصف الأبيات مع بقائها من النسج الرفيع، منوّهًا بروعة الصورة عند وصفه حالةً من الحالات، كمثل وصفه لتقلّب أمّه بين الحياة والموت أثناء احتضارها بقوله:

والجسمُ نصفٌ في الترابِ موسَّدٌ
والنصفُ في دربِ الفناءِ مودِّعُ
نصفٌ يعيشُ لقاءَ نصفٍ مـــائتٍ
والموتُ بينهما يُطِلُّ ويَرجِـــعُ

ثمّ انتقلت إلى شعره الفرنسيّ، مختارًا من ديوانه المذكور قصيدةً بعنوان «حبّات رمال»، لترجمتها إلى العربيّة إثباتًا لكونه مُجيدًا في شعره باللغتين معًا.

ولكنْ ما أن أَزِفَ موعدُ الاحتفال حتّى اعتكر الأمن من جديد بصورة شديدة، فأُلغيت إقامته، لكنّ الصديق رياض فاخوري كان قد طلب

منّي نسخة من كلمتي لنشرها في «الأنوار» حتّى قبل أن ألقيَها، فكان نصيبها النشر دون الإلقاء.

وانتهت الأحداث وعاد رياض إلى زحلة. ويومًا، وكنت أحضر ندوة حول ديوان جديد صدر للشاعر راجي عشقوتي، وذلك في نادي خرّيجي «الحكمة» ببيروت، التقيت هناك بالأستاذ حنيّنا أبي نادر، زوج السيّدة كلوديا أبي نادر رئيسة «مجلس الفكر»، فقال لي: «إنّ الشاعر رياض المعلوف طلب أن تكون أنت بين المتكلّمين في حفلةٍ سنقيمها له». فاخترت لموضوعي ديوانه «غمائم الخريف»، وشاركت في هذه الحفلة إلى جانب عدد من الأدباء والشعراء، أذكر منهم الدكتور دياب يونس والمحامي ريمون عازار، وقدّمت الخطباءَ الأديبةُ الزحلاويّة نعمت نجّار، وقدّم رياض بعد انتهاء الكلمات نخبةً من شعره، ونُشرت كلمتي في جريدة «الأنوار».

وبعد حين من ذلك اتّصل بي رياض من زحلة قائلاً إنّه أصدر ديوانًا جديدًا بعنوان «نفحات الرياض»، طالبًا منّي أن أكتب عنه، وسيرسل لي بريديًا نسخة منه، فكتبت مقالاً في جريدة «الأنوار».

وتوالت اتصالات رياض بي، وأحدُها عندما قال لي إنّ «تلفزيون لبنان» يعتزم إقامة ندوة عن شعره يريدني أن أكونَ من المشاركين فيها. فعُقدت إحدى حلقاتها في منزلي بجونية، في قاعة مكتبتي، وكنت فيها إلى جانب الدكتور ميشال كعدي والشاعرة باسمة بطولي، كما عُقدت بقيّة الحلقات في أماكن أخرى. وهكذا كان رياض المعلوف يفرضني على كلّ احتفال يقام له.

وفي نطاق أنشطة ثانية لي، قرّرنا مرّة، في جمعيّة «أهل الفكر» التي أنا عضو فيها، عقدَ حلقة نقاش حول شعر شفيق المعلوف، فكان من البديهيّ أن نستعين بشقيقه رياض في المعلومات والمستندات. وعلى ذلك زرناه في زحلة أنا وفريق من أعضاء الجمعيّة بينهم الدكتور منصور عيد والأستاذ زياد أبي فارس والمحامي فيليب أبو فاضل، فكان لي من بوادر الصداقة العميقة والأخوّة معه ومع عقيلته وبناته ما لفت نظر زملائي. ولكن عندما أقيمت الحفلة خلت الكلمات، وبينها كلمتي، من ذكر رياض، ممّا كان مجلبة عتب من جانبه أَبلغني عنه أحدُ الأصدقاء. لذلك، عندما أُقيمت من بعد حفلةٌ لذكرى الشاعر الزحلاويّ نجيب دياب المعلوف، وطلبَ إليّ نجله الصديق الشاعر موسى الاشتراك فيها، ذكرت في كلمتي رياضًا كأحد طرفَي الثنائيّ الشعريّ الزحلاويّ الكبير المؤلّف منه ومن سعيد عقل.

لقد أفضتُ بذكرياتي عن مسيرتي في علاقتي بهذا الشاعر، وأختمها بذكرى طريفة هي أنّ الأستاذ لويس القسّيس، رئيس الفرقة الفنيّة في ضيعتي ساحل علما، اتصل بي يومًا ليقول أنّه اكتشف، بين رجالات «الساحل»، فنّانًا رسّامًا يدعى جوزف طرابلسي. ذلك لأنّ لويس كان يُعنى بتراث قريته وبالبارزين من أبنائها، وكانت فرقته تُصدر نشرة دوريّة تحوي مقالاتٍ عنهم. وأوضح لي أنّ مَن ذَكرَ كونَ هذا الفنّان من ساحل علما هو الشاعرُ رياض المعلوف الذي يعرفه شخصيًا، طالبًا منّي أن نَشخصَ إلى رياض للتزوّد منه بمعلومات كاملة عن الرسّام المذكور.

قال رياض، في أثناء مقابلتنا له، أنّه صادف هذا الفنّان في بعض المناسبات، وقال له هذا الأخير أنّه «من ساحل العلما» (هكذا لفظها)، وأضاف أنّه يرسم بيده اليسرى لأنّ يده اليمنى مشلولة، ثمّ سافر هذا الفنّان من لبنان ولم يعد يَعرف عنه شيئًا.

لم تكن هذه المعلومات كافيةً لباحثٍ يريد أن يستقصيَ موضوعَه. فظللنا، أنا ولويس، في حيرة لوجود فنّان كهذا من قريتنا غيرِ معروف من أحد فيها، نحن الذين لا نحصي فنّانين أو فنّانات منها غير الرسّامة بيبي زغبي في الأرجنتين الملقّبة بـ«رسّامة الأزهار»، كما أنّ عائلة «طرابلسي» لا وجود لها في ساحل علما، وليس في علم أحد أنّها وُجدت سابقًا.

وبقيت العناية به مؤجّلةً من جانب لويس القسّيس وفرقته الفنيّة إلى أن وقع في يدي عددُ جريدة غير لبنانيّة (لم أعد أذكر اسمها) تخصّص حقلاً واسعًا للأدب والفنّ، وفي هذا العدد أنّ مدينة حمص أقامت احتفالاً للفنّان الحمصيّ الكبير جوزف طرابلسي، ذاكرةً مَن شارك فيه، وأرفقت الخبرَ بنبذة عن الفنّان وفيها أنّه أقام مدّة خمس سنوات في مدينة جونية بلبنان مدرّسًا للرسم في مدرسة الأخوة المريميّين فيها، قبل أن يسافر إلى مصر ويغدو رسّام القصر الملكيّ الخاصّ، وهو الذي يُنتج الروائعَ بريشته التي يستعملها بيده اليسرى كونُ يده اليمنى شلاّء. وطبعًا عندما يُذكر في جريدة غريبة بأنّه كان يسكن جونية فلن يُفصِّل الخبرَ في أيّة ناحية منها كان يسكن، لأنّ ساحل علما هي إحدى «حارات» جونية الأربع: صربا وغادير وحارة صخر والساحل.

نقلتُ هذا الخبر إلى الأخ لويس القسّيس، وطبعًا صَرفَ النظرَ عن الاهتمام بالفنّان الحمصيّ الذي نَسب نفسَه إلى ساحل علما لأنّه أقام فيها مدّة خمس سنوات.

الدكتور منيف موسى
الميّة وميّة (صيدا - لبنان)

إعترافات أدبيّة ثقافيّة*

حبّذا اللقاء، أيُها الأصدقاء، والليلةَ نحن على أبواب ميلاد الكلمة، وقد صارت جسدًا وحلّتْ بيننا. أدركنا نعمتها خَلْقًا وإبداعًا. فبهذه النّعمة أعترف، وأمامكم أُعلن.

حبّذا اللقاء، ونحن في نعمة الكلمة، وقد جسّدْنا بكيانها ما في أعماقنا ونفوسنا وأفكارنا وضمائرنا ووجداننا ما اعتمل فينا من تصخاب وَعْي، وعقل ضاجّ ..

أقول الكلمة ولا أعني بها ما ترجمتُه بالفرنسيّة (Le mot)، أو القول (La parole)، وإنّما أعني الفعل (L'Acte)، بل أبعد من هذا فأقول هي الفعل (Le verbe) وهي في اليونانيّة «اللوغوس» (Logos) أيْ فعل الخَلْق والإبداع.

ويوم أدركتنا نعمة الكلمة، دخَلْنا حِرفة الأدب، لا طَوْعًا، بل مندفعين بجاذبيّة الفعل / الكلمة الذي جُبلنا فيه وعليه جواهرَ وكنوزًا خامًا، تبلّرت صقلاً ومضاء بَدْع بالدرس والمثاقفة والدُّربة، هوايةً ثُمّ احترافًا. هل كنّا نعي ذلك؟ لا أدري! إنّما شيء كان يجيش في نفوسنا فتقذفُهُ أقلامنا وألسنتنا. وكان فعل، وكان جمال وهو "الرّائع" الذي قالت به الفلسفة اليونانيّة في إقليم الفنّ والجمال.

درجتُ مع الفعل/ الكلمة، يومَ أخذني والدي بيدي إلى مدرستي الأولى في كنيسة الضّيْعة، عند معلّم أراني أشكال خطوط، قال:هي حروف الهجاء «الأَلِفباء»، التي أدركتُ فيما بعد أنّها كيان الكلمة .. ومعها رأيت أشكالاً وخطوطًا وألوانًا أُخَر، جميلةً كانت ومهيبة. إنّها الأيقونات في قداسة الخطّ واللون!

ثُمّ دَلَفْتُ إلى مدرسة الضّيْعة الرسميّة، فنطقتُ الكلمةَ تهجئةً ودَرْجًا. ورسمتُها حروفًا. ولفظتُها أصواتًا حلوة منغّمة. حملتُها معي بين دَفّتَي كرّاس، قيل: إنّه كتاب القراءة، حملته معي في كيس من قماش خاطته لي والدتي من نسيج ملوّن زاهٍ جميل قيل هو «الحمّال»، كنتُ أُعلّقه بين كتفي وصدري كوشاح.

انقطعتُ عن الكلمة مدّة، بسبب انتقال العائلة إلى بعلبكّ، وأبي الفارسُ في جيش الوطن آنذاك محكومٌ لأمر المعاش والوظيفة. انطلقتُ «مهوشلاً» عند أسس قلعة بعلبكّ بين غياضها ورياضها وسواقيها، في أفياء شجر الجَوْز والحَوْر. وكنتُ أرتقب مرور القطار وأنا أرى إليه مرور اللحظات في رحلة العمر. وبعد، أدركتُ أنّني كنتُ كالشّاعر «ديك الجنّ الحمّصي» (عبد السلام بن رغبان) الذي أَلِفْتُ مثلَه الحدائقَ والبساتين. وبين طبيعة بعلبكّ وطبيعة ضيعتي عِشْتُ في أحضان أُمّيَ الأرض.

وبعدُ، تتلمذتُ في مدرسةٍ أسقفيّةٍ عند خوري وراهبات في بلدة أبلح البقاعيّة. وكلّ صباح ومساء قداديس وصلوات ودروس ليليّة وخوف من خشبة بحجم الثلاث سنتيمترات، تُعطى لمن يتكلّم بالعربيّة في أثناء الفُرص، ويعاقب مساءً إذا بقيت معه، إنّها «السّينيال» (signal).

وكانت عودتي إلى قريتي، إلى صفّ «السرتيفيكا» حيث نَقَفَتِ الكلمة بذور العبقريّة، فإذا هي عندي، أمامي ومعي، أقرأها وأحفظها وأداعبها، وأختلف مع معلّم اللّغة على بعضٍ منها: تركيبًا وتعبيرًا وفصاحةً وبلاغة. لم أكن أدري ما أعني في نقاشي مع معلّمي عن كلمة ما، أو جملة ما، كلُّ ما كنت أدركه وقتذاك أنّني كنت أُسيغ هذه الكلمة أو هذا التعبير وأَنفر من غيرهما. وكان قول معلّمي لي في ذلك الحين: «شو إنْت العلايلي». لم أكن أفهم معنى قوله، حتّى وعيتُ مَنْ هو العلايلي.

إنتهت دروسي في قريتي، فاختلفت إلى مدرسة رسميّة في مدينة صيدا. تدرّجت فيها حتّى شهادة الكفاءة «البريفه» وكان أستاذي في اللّغة العربيّة من أدباء الرّبع الثاني من القرن العشرين، ومن أوائل الذين نقدوا جبران خليل جبران. في تلك الحقبة كان لنا مجلّة مدرسيّة اسمها «السجلّ الذهبيّ للطالب الرسميّ» وفيها كانت محاولاتي الأدبيّة الأولى.

* في يوم تكريمي في دار ناجي نعمان للثقافة المجّانيّة، جونيه، الأربعاء ٢١ كانون الأوّل ٢٠١١

ثمّ إلى الثانويّة الرسميّة الوحيدة في المنطقة إلى ذلك الحين. ودخولها كان عبر امتحان اجتزته بعلاماتي العالية في اللغات ولاسيّما العربيّة التي عشقتها. ولم أكن آلف من العلوم المحض إلاّ الهندسة والفيزياء. وكان أستاذي في اللّغة العربيّة آنذاك أدوار أمين البستاني الذي كان يناديني: «"مارون عبّود الصفّ". وكان أنْ أصدر خرّيجو المدارس الرسميّة في صيدا مجلّة أسمَوها «الرّابطة»، فكانت منبري الأدبيّ المدرسيّ بعد «السجلّ الذهبيّ». وأذكر أنّني نلت شهادتين في دراسة الكتاب المقدّس من مدرسة «صوت النبوّة» في بيروت، وأنا لم أتجاوز الصفّ المتوسّط الثاني والسنةَ السادسة عشرة من عمري.

في أواخر العام ١٩٥٨ تعرّفت إلى الأديب خليل رامز سركيس وتصادقنا، وصداقتنا لا تزال ممتدّة حتّى اليوم. وعبره، تعرّفت إلى الشّاعر بولس سلامة وتصادقنا أيضًا، وتجادلنا في الآداب والثّقافة، وكنت قد التقيت الشّاعر نقولا قربان والأديب الأستاذ جان كميد اللذين كانا قائمين بشؤون مجلّة «الرسالة». وامتدّت صداقتنا ولا تزال. ونشر لي الأستاذ كميد بعض أدبي وشعري في مجلّة «الرحمة».

وبين هذا وهذاك، كتبتُ في مجلّة «النحلة» المخلّصيّة وشقيقتها «الرسالة المخلّصيّة»، وفي مجلّة «صوت الشّاعر». ثمّ أَخذتْ كتاباتي طريقَها إلى مجلّة «الأسبوع العربيّ» و«ملحق النهار» وجريدته، و«ملحق الأنوار»، وكنت أكتب مقالة كلّ عام يوم ١٩ أيلول في جريدة «العمل» عن الأديب الصحافيّ فؤاد حدّاد «أبو الحنّ» لا رجلاً حزبيًا، بل أديب فذّ.

وبين الدرس والثّقافة قرأت الأدب العربيّ: قديمه وحديثه، وتعلّقت بالأدب اللبنانيّ المكتوب باللّغة العربيّة واللّغات الأجنبيّة. واطّلعت على الآداب العالميّة. وقمتُ بمحاولات ترجمات شعريّة. ثمّ درست حضارات الشعوب والأمم وآدابها وملاحمها حتّى استقامت لديّ أمور الثّقافة وعدّتُها، وتمرّستُ بالكتابة وأصول الشِّعْر والأدب.

وكان أنْ تطوّعتُ جنديًا في سلاح الطيران اللبنانيّ مدّة سنة ونصف سنة، وكنتُ أُعرف بين رفاق السِّلاح بـ«الصّحافيّ»، ولم أنقطع عن الكتابة سرًا باسم مستعار هو «ابن لبنان».

وعدت إلى الحياة المدنيّة، فالتحقت بدار المعلّمين والمعلّمات في صيدا. وقد حاولت إصدار مجلّة طالبيّة باسم «فينيقيا»، لكنّ الأمور تعثّرت. ولم تَرَ «فينيقيا» النور إلاّ بصفحات قليلات بخطّ اليد مرّة واحدة. كانت مجلّة حائط.

امتهنتُ التدريس، وقد انقطعت عن الدراسة لا الكتابة، ومارست فنّ النحت وشاركت في غير معرض للفنون الجميلة. وفي العام ١٩٦٥ صدر ديواني الأوّل من شِعْر الصِّبا «لُنَى» وقال فيه سعيد عقل في جريدة «لسان الحال»: «قرأنا مجموعة «لُنَى» لمنيف موسى. ولا كلمة نابية. هذا ألا يكفي في هذا العصر، ليكون صاحب النتاج على طريق الشاعريّة. وأحيانًا إطلالات بناء، ونغم حلو، وطرافة. ما أجمل أنْ ترى فرخ النّسر يتدرّب على تحريك الجناح».

وقال الياس رابابي في رسالة منه إليّ: «لقد قرأتُكَ قراءة راغب في اكتناه واستشفاف، ولا أحسبني مداهنًا إذا ما قلت لكَ إنّني أتوسّم فيك للقلم اللبنانيّ أملاً غضًا يكون لنا منه في المستقبل فرحة الصدق وبهاء الوجه».

وكتب فاضل سعيد عقل في جريدة الزّمان: «كتاب «لُنَى» لمنيف موسى هو مجموعة قصائد نحا فيها واضعها منحًى جديدًا، أسلوبًا وتركيبًا، فلا هي بالشّعر الحرّ أو الحديث، ولا هي بالشّعر الكلاسيكيّ المعهود ذي القافية والوزن... وفيها من وحي الرومانطيقيّة والبارناسيّة والرمزيّة والواقعيّة والانطباعيّة والغيبيّة معًا... وفيها من المستوحيات الشتّى ومن المناجاة الوجدانيّة الأشياء الكثيرة...»

ولمّا قدّمت الدكتورة نور سلمان لديواني الذي لم يصدر «أغاني التماثيل الرخاميّة» وقد ضاع وبقيت مقدّمته بخطّ صاحبتها، قالت: «... أريد لكَ مزيدًا من القلق والشوق والأرق والتّعب، فأنت... من حاملي كلمة الشّعر في بلادي...»

وجاء في قائمة منشورات المكتبة العصريّة في صيدا (العام ١٩٦٨) التي كانت قد بدأت بطبع الديوان: «منيف موسى، صوت جديد ذو نبرة حادّة أخّاذة تحاول أنْ تحطّم قشرة المفردة في نداء إلى العالم». وقيل لي إنّ الشّاعر أدونيس هو صاحب هذه الكلمات إذ كان مشرفًا على المنشورات الأدبيّة في المكتبة تلك؟! ومَنْ يدري؟!

قصدت الجامعة بعد انقطاع طويل عن الدراسة، وقد تقدّم بي العمر.. عدت بعُدّة ثقافيّة أدبيّة فكريّة. اكتسبت من الجامعة كثيرًا، ولاسيّما الفكر النقديّ والمنهجيّة. وأصبح النّقد عندي علمًا وأصولاً لا انطباعًا فقط. وأيقنت أنّه إبداع أيضًا كما الشِّعْر والأدب. وقال عني أساتذتي وزملائي قولاً حسنًا.

بالأمس، وبعد ستٍّ وثلاثين سنةً، التقيتُ في سهرة راقية في منزل صديقي الأديب جورج مغامس في مصيفه نخبةً من الأتراب والأصدقاء والأصحاب. وكان بينهم رفيق الدراسة الجامعيّة الأستاذ الإعلاميّ وليم ضاهر. تعانقنا طويلاً، واسترجعنا زمنًا

خيّرًا، زمنًا خصبًا. وما كرّره وليم في أثناء السهرة غير مرّة قوله: «كان منيف موسى طالبًا مميّزًا. كنّا نسأله، ونأنس إلى حديثه. وكان الأساتذة يتحدّثون عنه بتقدير واحترام. كان له مقام خاصّ بيننا». وفي هذا السبيل، قال عنّي أستاذي الدكتور فكتور الكك وكنت في السنة الأولى الجامعيّة (الثقافة العامّة، آنذاك)، وقد قدّمت بحثًا في مادته عن ديوان «أفاعي الفردوس» لالياس أبو شبكة: «لهذا المنبر قدسيّة، ولا يعتليه إلاّ مَنْ كان في مستوى هذه القُدسيّة، ومنيف موسى في هذا المستوى» (١٩٧٠). وقال مرّة أخرى وقد قدّمت بحثًا في الحضارة العربيّة في العصر الأمويّ: «منيف موسى باحث ثِقة».

وفي مادّة الحضارة العباسيّة وكان أستاذَنا فيها الدكتور سعيد البستانيّ، وقد خاطبَنا ذات يوم قائلاً: «أيُّها الطلاّب، أتحدّاكم أنْ يقف أحدُكم على هذا المنبر ويتكلّم بالفصحى مدّة ربع ساعة من دون أنْ يرتكب خطأً». تحدّيت. وعيّن لي أستاذي موضوعًا عنوانه: «سكّان الدولة الإسلاميّة في العصر العباسيّ». وكان شرط التحدّي التكلّم من دون قراءة النصّ. وحضّرت البحث. وفي اليومِ المضروبِ موعدُهُ اعتليتُ منبر قاعة المحاضرات، وأخذتُ بالكلام، مضى ربع الساعة... وتابعت، حاضرتُ ساعتين، والأستاذ والطلاّب يستمعون إليّ. وفي نهاية البحث المحاضرة صفّق الدكتور البستانيّ، وقال: «يا منيف، أُهنِّئُكَ. لم تترك لي مجالاً لكي أقرّظك، لقد قَرّظْتَ نَفْسَكَ».

ومثلُ هذا كان لي مع أساتذتي: الدكتور الشيخ صبحي الصالح والدكتور شكري فيصل وكان رئيس مجمع اللّغة العربيّة بدمشق في ذلك الوقت، والأستاذ ظافر القاسمي وهو من علماء سورية، والدكتور محمّد المصري، والدكتور أسامة عانوتي.

أمّا في اللّغة والنحو، فقد كان أستاذَنا اللّغويّ سعيد الأفغاني الذي قال مرّة: «آراء منيف موسى اللّغويّة يمكن أنْ تُسجّلَ اجتهاداتٍ في مجمع اللّغة العربيّة».

وبين الأكاديميّة والتدريس والشهادات العُليا لم انقطع عن الكتابة شِعْرًا ونثرًا في صحف ومجلاّت متعدّدة عربيّة ولبنانيّة. وشاركت في ندوات وأماسيّ أدبيّة وفكريّة ومؤتمرات، في لبنان والخارج. ومارست النّقد. ورددتُ على غير ناقد وأديب.

مرّة، كتبت بحثًا عن كتاب أستاذي الدكتور فكتور الكك: «تأثير صابئين حرّان در تمدن إسلامي» أي: «تأثير صابئة حرّان في الحضارة الإسلاميّة» في جريدة «النهار»، وكان أنْ وقع خطأ في تركيب بعض فِقَرِ البحث في الجريدة. فهاجمني العلاّمة السيّد حسن الأمين، ويوم ردّي عليه التقيت د. شوقي خير الله في مصعد بناية «دار النهار» في شارع الحمرا في بيروت، فتعارفنا، فقال شوقي: «إنْت منيف موسى؟ ظننتُك قَدْ عنتر وأنْتَ تناقش العلاّمة الأمين!»

وفي أثناء الدراسة الجامعيّة وما بعدها، كتبتُ كلماتٍ وخطبًا ومحاضراتٍ لأساتذة وسياسيّين وأكاديميّين ومسؤولين ولن أذكر أسماءهم احترامًا وتقديرًا، والسِرُّ يظلّ طيّ صدري.

في ذلك الزمان، أيّام المحنة، كتبتُ قصيدتي الطويلة: «مواسم الحُبّ والموت» (التي ضمّها- فيما بعد- ديواني «عاشق من لبنان») وفيها مقطّعات من تجلّيات الشِّعْر حيال الحرب في لبنان، وفيها مواقع حُبّ وعشق وصوفيّة. وكان أنْ قرأ سعيد عقل هذه القصيدة فكتب لي في جُذاذة: «حقًّا إنّها لمواسم. وسنبلُها الحُبّ. أمّا الموت فمقحم فيها إقحامًا قَصْدَ أنْ يقول الحياة. كيف لا تُحبّ؟ إنّها لبنان داسَ الاحتضار، رفعَ الوجع، إلى قوّة الجمال. غنّى. وضفر على جبينه بدلاً من إكليل مجد خضرة من جبله العالي. منذ اليوم الأرزُ في الدنيا مكانُ الغار. سلمت ريشة تكتب بالسّيْف».

وتتابعت مسيرتي الجامعيّة والأدبيّة. ونلتُ شهادات الماجستير والدكتوراه، ودكتوراه الدولة في النّقد الأدبيّ المقارن، وكان رئيس اللّجنة المرحوم الدكتور جبّور عبد النور الذي أعلن في نهاية المناقشة: «منيف موسى، يستحقّ شهادتَي دكتوراه دولة عن أطروحته: واحدة على ثَبَت المصادر والمراجع، فقد أسّس مكتبة نقديّة مقارنة عند العرب؛ وواحدة على متن الأطروحة. وقال أطروحة منيف هي كتاب العصر في النقد الأدبيّ المقارن..» وكان عنوانها: «البيانات الشِّعْريّة العربيّة الحديثة، وما فيها من جذور غربيّة وعربيّة أصيلة (١٩٠٠ — ١٩٥٠)». وقد صدرت فيما بعد كتابًا بعنوان: «نظريّة الشِّعْر عند الشعراء النّقاد في الأدب العربيّ الحديث، من خليل مطران إلى بدر شاكر السّياب».

وعندما قرأ الشيخ علي الزين كتابي «الشِّعْر العربيّ الحديث في لبنان»، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه، قال: «منيف موسى ينقد الشِّعْر بالشِّعْر».

هذا بعض ما كان أيّام الطّلب. أمّا بعد ذلك فالحديث عنه طويل والشهادات في مظانّها صحفًا ومجلاّتٍ ومنابرَ ولا تزال تترى حتّى اليوم.. ويمكن العودة إلى كتاب «مرايا الزّمان» أو «منيف موسى في ثلاث وثلاثين سنة من حياته الفكريّة والأدبيّة».

بين المدرسة الابتدائيّة والثانويّة والجامعة، والندوات والمؤتمرات والحفلات عمرٌ ثَرٌ، ورحلةٌ طويلةٌ ممراعٌ وشاقّةٌ وشائقة. وبين الصّحافة والأدب والكتابة والنّشر تراث مطبوع ومخطوط. وبين

الأدب والشِّعْر أنواع وأغراض، والنّقد معي دراسات في التراث والحداثة والأدب والنّقد المقارنين. وفي الشّعر أنا بين الكلاسيكيّة والتحديث والتجديد والحداثة والمُعَاصرة في القصيدة الحرّة وقصيدة النّثر والنثر الفنيّ الجماليّ. لكنّ الكلاسيكيّة ليست إلى انتهاء، هي أساس الفنّ وقاعدته. وأمّا الموضوعات فمتنوّعة، وهي بين وطنيّة وسياسيّة وإنسانيّة ووجدانيّة على مختلف المدارس والاتجاهات. وعندي أنْ لا خلاص إلاّ بالشّعْر.

أدباء كثر كبار أصدقاء ومعارف عشنا معًا وتناقشنا وتبادلنا الأفكار والآراء، أمثال ميخائيل نعيمه وتوفيق يوسف عوّاد وأنسي الحاج وشوقي أبي شقرا ومحمّد الفيتوري وعمر أبو ريشة وغيرهم كثير!

وعلى صعيد النضال القوميّ والوطنيّ، فقد شاركتُ في غير موقع لبنانيًا وعربيًا، ولكنّني لم التزم يومًا حزبيًا. وقد عدت من رحلتي النّضاليّة بعد نصف قرن خائبًا ومُحْبَطًا ونادمًا، لأنّني رأيت خلاف الطموح! وأمّا التزامي فلبنانيٌ محض وإنسانيّ. وولائي للبنان وعَلَم لبنان.. مؤمن غير مُتعصّب وغير ممارس... علمانيّ النهج المدنيّ والدولة والوطن. من أجل وطن سليم حرّ ليبراليّ. والمثلّث الوجوديّ الحياتيّ عندي هو: الإيمان بالله، والولاء المطلق للبنان، والحريّة المترصّنة.

وكنّا اجتمعنا ثلّةً من المواطنين، زمن المحنة، من ذوي النيّة الحسنة، والإرادة الطّيّبة والفكر والقلم، وتنادينا لإنشاء جمعيّة فكريّة ثقافيّة وطنيّة لبنانيّة جامعة، وكنتُ قد كتبتُ ميثاق «الرّابطة» وفيه: إيمان بلبنان، وطنًا واحدًا مُوَحّدًا ومُوَحِّدًا، وإيمان بثقافته، والإنسان وحقّه في حياة سلام وحريّة ورأي وانفتاح على رياح العالم وثقافته.

على بيدري الأدبيّ والثقافيّ- حتّى اليوم- وفي أهرائي، غلّة مواسم وفصول، هي ما يقارب الأربعة والثلاثين عملاً أكاديميًا وإبداعيًا، إلى عشرات الأبحاث والخطب والمداخلات، والمخطوطات غير المنشورة ومئات المقالات والأبحاث في صحف ومجلاّت مختلفة لبنانيّة وعربيّة. وكنت فقدت في أثناء الحرب في لبنان مكتبة متخصّصة ذات ستّة آلاف كتاب. واليوم مكتبتي المتخصّصة فيها ما يفي بالغرض في الوقت الحاضر.

أمّا على صعيد الجوائز الأدبيّة فأكشف لأوّل مرّة أنّني ترشّحْتُ لجائزة نقد أدبيّ عربيّة ذات قيمة ماديّة كبيرة. وبعد شهرين من ترشّحي جاءني موفد من هيئة الجائزة يخبرني أنْ قد سُحِبَ ترشّحي وأنا أستحقّ الجائزة، قال: لأنّ الهيئة ستُعطي الجائزة (لفلان الناقد) من جمهوريّة مصر العربيّة إلى ذلك العام، وإنّني سأُعَيّن في لجنة التحكيم، وفي العام التالي تُعطى لي.

شكرتُ المُوْفَد على سحب ترشّحي ورفضتُ الرّأي، إذ كيف أكون شاهد زور في تحكيم قائم مسبقًا؟ ومن يومها عزفتُ عن الترشّح إلى أيّ جائزة مهما كان موقعها وقيمتها ومانحها. أقول هذا للتاريخ ولأصحاب الرأي والتبصُّر!

هذه، أحبّائي، قطوف من جنى عمر وعمل. والحقل وفير والبيدر وسيع، وقد وضعتُ يدي على المحراث ولا ألتفت إلى الوراء إلاّ ليقين الذكرى وحنينها، واعترافاتِ مَنْ كان فتىً كاعترافات فتى العصر «ألفرد دي موسيه» في زمانه!

ويا أصدقاء، شكرًا للأستاذ ناجي نعمان على بادرته الطيّبة، وشكرًا لدار نعمان للثقافة المجّانيّة ومجلس أمنائها وعملهم، وهي دومًا في ازدهار.

وشكرًا لِلأفاضل الخطباء الذين أكرموني بعقلهم وقلبهم ووجدانهم وضميرهم وأدبهم وبلاغتهم، فكلامهم صادر من العقل والقلب معًا.

ويا حبّذا اللّقاء، أيُها الأصدقاء، وحسبيَ معكم رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكُتّاب، فهي بيان نقابيّ لأهل القلم. ولتبقَ أقلامكم خضراء وأفكاركم غيناء، وسرائركم بيضاء، ونعماكم صفّاء. وسقى الله زمان الودّ والأُلفة والإخاء. ونحن على دقائق من الفراق والوداع. أَمِنْ لقاءٍ بعد وداع؟ والعمر على مشارف نهايته، مدّ الله بأعماركم، ومتّع حياتكم بالسعادة السابغة والصّحة الرّيّا. ويقيني أنّ حصادكم عامر غامر، والمعاجن خُمرة، لا عفن فيها ولا مُرّة. وخبزكم بركة وعافية. وأنتمُ الفالحون عقلاً وقلبًا ووجدانًا وخيرَ مآل. لكم شكري وموّدتي وتقديري واحترامي. وقولي لكم قولُ أبي فراس الحمدانيّ:

«ونحن أُناسٌ لا تَوسُطَ بيننا

لنا الصّدرُ دون العَالِمِيْن أو القبرُ»

طبتم شهامةً ونُبْلَ أقلام. وبروح الكلمة نحيا ونغدو. وعليك سلام الله يا ناجي نعمان وصحبكَ في الدّار. فنِعْمَ الأصحاب ونِعْمَ الدّار. وأنتمُ المختارون الأخيار جمعًا وقيمةً. ومن المنيف ألفُ تحيّة وسلام، واستودعكم الله، ولنا الأرضُ والسماء في البقاء واللّقاء .. والله معكم!

مِتري نَعمان، الشّاعرُ والأديب
إحتفاليّةٌ في مئويّة مَولده الأولى، وثلاثيّةٌ:
أيا والِدًا استولَدَ الكَلِم...

ناجي نعمان

تهيّئُ دار نعمان للثّقافة ومؤسّسة ناجي نعمان للثّقافة بالمجّان احتفاليّةً في مناسبة الذّكرى المئويّة الأولى لمَولد الأديب والشّاعر اللّبنانيّ متري نعمان (١٩١٢-٢٠١٢) المُتَوَفّى في الثّامن من كانون الثّاني ١٩٩٤، بعد عُمرٍ قَضاهُ في مُناجاةِ القَلَم، شِعرًا ونَثرًا ونقلاً إلى العربيّة، كما دفاعًا عن الضّاد.

وسيشملُ الاحتفالُ بالذّكرى أكثرَ من نشاط، من مِثل: افتتاحِ «صالة متري وأنجليك نعمان الاستِعاديّة» في مركز الدّار والمؤسّسة، وتضمُّ الصّالةُ أعمالَ الرّاحل، وصُوَرًا له، ومكتبَه، ومكتبَته، وكتاباتٍ بخطّ يَده، وبعضَ أشيائه الأخرى؛ وإطلاقِ اسمِه على الشّارع المُؤدّي إلى منزله في حريصا، حيث كانت له صَولاتٌ وجولات، ولاسيّما لدى استِقبال البلدةِ رجلَ الاستِقلال، الرّئيسَ بشارة الخوري، والأمرُ بهمّة مجلس بلديّة درعون-حريصا؛ وصدورِ كتابٍ جديدٍ فيه بقَلَم ابنِه ناجي، يُضافُ إلى كتاب «متري نعمان: الرّجل والمَآثر» الّذي وضعَه الدُّكتور ميشال كعدي؛ إلى فَتحِ مستودعاتِ الدّارِ والمؤسّسة، في المناسبة، بقَصد توزيع الكتب بالمجّان لمَن يرغَبُ من الجمهور، وذلك للمرّة الثّالثة بعد عامَي ١٩٩٩ و٢٠٠٩.

ونستبقُ الاحتفاليّةَ، ههنا، بسيرةٍ مختَصَرَةٍ للأديب والشّاعر الرّاحل، وصُوَرٍ له في مختلِف مراحل العمر، وبثلاثيّةٍ بقَلَم ابنِه ناجي: الأولى لدى غيابه، عامَ ١٩٩٤، والثّانية لدى طباعةِ الكتاب الأوّل فيه، عامَ ٢٠٠٨، والثّالثة في مناسبة التّهيئةِ لطباعةِ الكتاب الثّاني فيه خلال العام الجاري.

سيرةٌ مُختَصَرَة:

وُلِدَ مِتري نَعمان بتاريخ السّادس والعشرين من تشرين الأوّل ١٩١٢ في باب توما، بدمشق. والدُه النّحّات عبد الله نقولا نَعمان، ووالدتُه آجيا حلاّق. أَمضى حياتَه العَمَليّة شبهَ الكاملة في إدارة مصالح الآباء البولُسيّين في حريصا وجونيه وبيروت (١٩٣٣-١٩٨٧)، فارتبطَ اسمُه باسم المطبعة البولُسيّة؛ وكانت له رحلاتُ عملٍ ولقاءاتُ ثقافةٍ في أكثرَ من دولةٍ عربيّةٍ وأورُبّيّة، وصداقاتٌ مع أدباءَ وشُعراءَ كُثُر، مِن مِثل بولُس سلامة ورياض المعلوف وسعيد عقل. تزوّجَ أنجليك حنّا باشا في الرّابع والعشرين من شباط ١٩٤٦، ورُزقَ أربعةَ صبيان: عبد الله، جهاد، نبيل، ناجي، وابنتَين: سعاد، حياة.

مؤلّفاتُه المَطبوعة: «التّلاقي بعدَ الفِراق»، مسرحيّة شِعريّة من ثلاثةِ فصولٍ، ألّفها في الرّابعةَ عشرةَ من العُمر، وطبعَها عامَ ١٩٣٠؛ «في سبيلِ الثّأر»، مسرحيّة شِعريّة من خمسةِ فصولٍ، طُبعت عامَ ١٩٣٨؛ «هَينَمات ذِكرى الحَبيب»، ديوان شعر، ١٩٥٢؛ «مِن الجحيم إلى النّعيم»، قصّة، ١٩٥٢؛ «أَنقذوني مِن أَهلي»، نقد لغويّ، ١٩٧٩؛ «السّيرة الذّاتيّة»، وقد عُنِيَ بتحقيقها والتّعليق عليها واختيار مُنتَخباتها ابنُه ناجي، وصدرَت في ذكرى ولادةِ الرّاحِل التّسعين، في الثّامن من كانون الثّاني ٢٠٠٢، بعنوان «متري نعمان: السّيرة الذّاتيّة ومُنتَخَبات»، وفي نسخةٍ مجلّدةٍ واحدةٍ مَحفوظةٍ في دار نعمان للثّقافة.

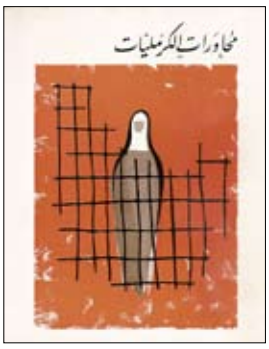

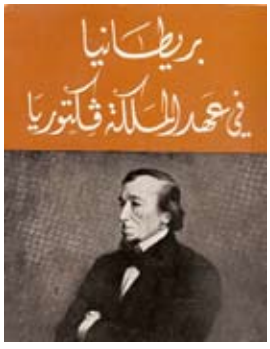

له مَخطوطاتٌ غير مكتَمِلَة و/أو مُنَظَّمَة، هي: «نَعمانيّات»، مجموعة أشعارٍ له في مناسباتٍ متفرّقَة؛ «خواطر» أو«خواطرُ من شُرفة الشِّير»، مجموعةٌ من الكِتابات النّثريّة نُشِرَت له بخاصّةٍ في مجلّة «المَسَرّة»؛ «عشرون يومًا في العراق والكويت»، ذكرياتُ سفره إلى هذين البلدَين مَندوبًا من قِبَل مطبعة الآباء البولُسيّين ومكتبتهم، ١٩٥٣، نُشِرَ في دوريّات مختلِفَة؛ «الرّحلة الفضيّة»، ذكرياتُ سفره مع زوجه في ذكرى يوبيل زواجهما الفضِّيّ إلى بعض دول أوربّا عامَ ١٩٧١؛ «الرّحلةُ القسريّة»، ذكرياتُ سفره مع زوجه إلى ولدَيهما في فرنسا هربًا من جنون الحرب في لبنان عامَ ١٩٩٠؛ «عمرٌ في مُناجاة القلم»، حياةُ الرّاحِل شِعرًا حتّى عام ١٩٤٧، وقد ضَمّنَه بالكامل في سيرته الذّاتيّة؛ «العقد المنظّم من الأَمثال السّائرة والحِكَم»، حَصاد في مَيدان الشِّعر العربيّ، قام بإعادة خَطِّه ابنُه ناجي؛ «إخوانيّات»، مجموعةُ رسائِل خاصّة.

وأمّا الكُتُب الّتي نقلَها إلى العربيّة، فهي: «شركة الكهرباء بدمشق»، ١٩٣٢؛ «قوانين الرّهبانيّات الباسيليّة المَلَكيّة» (عن اللاّتينيّة)، ١٩٣٣؛ «الأُمّان»، مسرحيّة نثريّة من فصلٍ واحدٍ، طبعة أولى ١٩٤٠، وثانية ١٩٥٥؛ «الخوف من الدّير»، مسرحيّة نثريّة (للبَنين) من خمسةِ فصولٍ، طبعة أولى ١٩٤٤، وثانية ١٩٥٧؛ «الفتاة الظّليم»، مسرحيّة نثريّة من ثلاثةِ فصولٍ، ١٩٤٦؛ «محاورات الكرمليّات» (عن الثّورة الفرنسيّة)، لجورج برنانوس، المنشورات العربيّة، ١٩٦٣؛ «الأَمل» (عن الثّورة الإسبانيّة)، لأَندره مَلْرو، المنشورات العربيّة، ١٩٦٤؛ «دفاع سقراط وكريتون» لأفلاطون (إلى اللُّغة اللُّبنانيّة)، من ضمن سلسلة «أجمل كتب العالم» لسعيد عقل، ١٩٦٨؛ «بريطانيا في عهد الملكة فيكتوريا» (سيرة دزرائيلّي)، لأَندره موروا، المنشورات العربيّة، ١٩٦٩؛ «العلاقات الإنسانيّة»، لفرَنسيس بو، سلسلة ماذا أعرف؟، المنشورات العربيّة، ١٩٧١.

وثمّة كتابان نقلَهما إلى العربيّة ولم يُنشَرا بَعد: «الخوف من الدّير»، مسرحيّة نثريّة (للبنات) من خمسةِ فصولٍ؛ و«إيحاءات إلى الأُخت خوسيفا مِنِنْدز» (لدى المكتبة البولُسيّة). ويَذكرُ ابنُه ناجي، في الكتاب الأخير، أنّ المكتبةَ خَيّرَتِ الرّاحِلَ بين نَشر كتابه المُترجَم ذاك، أو نَشر كتابٍ في السِّلسلة عَينها (سلسلة «الشُّهود») لِشَقيقه حنّين نَعمان بعنوان «مارغريت سنكلير»، ففضّلَ نَشرَ كتاب شَقيقه، لا بل وقدّمَ له!

وللرّاحِل إسهاماتٌ مختلِفةٌ لجهة إصدار سلاسل مدرسيّة، ولاسيّما سلسلة كتب «المشوّق»؛ ولجهة تصحيح «المعجم العربيّ الحديث» (لاروس)، في طبعته الأولى، ١٩٧٣. وقد عملَ في تصحيح عشراتِ الكتب، ومئاتِ المَقالات، من دونِ أن يَبْرُزَ اسمُه، ومن دون أيّ مُقابِل؛ كما عملَ في وضع فهرس مجلّة «المَسَرّة» الهجائيّ المثلّث؛ وله كثرةٌ من المقالاتِ النّقديّة، والقصائد، نُشِرَت في المجلاّت والجرائد، مِن مِثل: «المَسَرّة» (حريصا)، و«الصّلاح» (القاهرة)، و«الزّمان» (بيروت)، و«الحبّ والسّلام» (حِمص)، و«جوبيتير» (بعلبك)، و«الضّادّ» (حلب)، و«كوميديا» (دمشق).

هذا، وكرّمَتِ الدّولةُ اللُّبنانيّةُ الرّاحِلَ بِمَنحه وسامَ المَعارِف عامَ ١٩٨٥، فيما كرّمَته الدّولةُ الفرنسيّةُ بتَقليده وسامَ فارسٍ في الفنون والآداب عامَ ١٩٨٩.

* * *

عاطِفَة:

... وإنّا لَعَلى مَوعِد

وأَطَلّ عامُ ١٩٩٤، فإذا بمَغيب الثّامن من شهره الأوّل يُسَجِّلُ غِيابَ الأستاذ مِتري: لقَد خَطَفَ ذاك السّبتُ نورَ أبي عبدِ الله، فانْطَفَأ.

* * *

ما عَرَفْتُه إلاّ عامِلاً في إدارة المَطبعة البُولُسيّة، نَهارًا، حتّى«قَتَلَتْه الأرقام» بحَسَب تَعبيره، أو مُنْكَبًّا على التّأليف والتّعريب والتّنقيح، ليلاً، لوَجهِ الله إجمالاً، أو حتّى يَزيدَ مَدخولَه على أملِ أنْ يُوَفِّرَ لعائلته رَفاهيّةً أكبر.

* * *

حاوَلْتُ، عَبثًا، أنْ أَجِدَ له، خِلالَ حَياتِه المَديدة- ولَيتَها كانَتْ أطوَل-، ولَو مُبغِضًا واحدًا، فلَم أُوفّق. ولا غَرْوَ، فـ«أبو الدّكاتِرَة»لم يَشْتَهِ يَومًا ضَرَرًا لِقَريبٍ له في الإنسانيّة.

* * *

فاجَأْتُه، في أيّامه الأخيرة، حَزينًا، قَلِقًا، فسَأَلْتُه عَمّا يَقَضُ مَضجَعَه، وهَل هو المَوْت؟ فأَجابَني أنّه لا يَخْشى المَوْتَ، بَل خَسارةَ رؤيَةِ مَن أحَبّ ويُحِبّ، فطَمْأَنْتُه قائِلاً أنْ لا مَكانَ، بعدَ المَوْت، ولا زَمان، وأنّا، في اللّحظَة، نَكونُ معًا؛ وأُرَجّحُ أنّه اطْمَأَنّ.

* * *

أَرادَ أنْ يَكونَ لأبنائه وابنتَيه، و«همُ نِصفُ الرُّسُل»، رُسُلاً اثنَي عَشَر، فتَحَقّقَتْ أمنيتُه، قُبيلَ رَحيله، إذْ أَطَلّ رَيّانُ، فنَظَمَ له آخرَ أبيات شِعره، وأَنْشَدَها على أفراد عائلته ليلةَ عيد الميلاد، صَوتًا وصُورةً، وأَشارَ إليهم بيده مُوَدِّعًا.

* * *

وأَوْصى الأبُ أبناءَه الأربعة- وقد «أَوْرَثَهم عِلمًا، ووَهَبَهم جِهادَه وقلبَه»- بالاستِمرار على «الأخلاق والمِثاليّة»، و«التّضامُن»، و«نَجدَة القاصِر والعاجِز والمَحروم». وطَلَبَ إليهم أنْ «يُجَلّلَ رُفاتُه بكُتُبه»، وأنْ يَضَعوا بينَ يدَيه «سُبحَةً وقَلَمًا»، ويَنْقُلوه، على أكتافهم، إلى المَثْوى الأخير.

وكما أَوْصى الوالِدُ، كانَ له؛ ولحظةَ وَضَعْتُ القَلَمَ بينَ يدَيه شَعَرْتُ بثِقَل الأمانة؛ وإذْ كُنْتُ آخرَ من دَفَعَ بنَعْشه إلى ذلك الجارورِ الرُّخاميّ، أَحْسَسْتُ أنّي خَسِرْتُ ذاكَ الأنيقَ الّذي كُنْتُ أَضَعُ رَبطَةَ عُنُقه السّوداء، وبيني وبينَ الرّبَطات، على العَكس منه، خِصام.

* * *

واليَومَ، وقَد غابَ أبو عبدِ الله، أَسْتَعِدُّ لاستِقبالِ الكُهولةِ من دونه، وأُمَلي أنْ أَنْقُلَ، ذات يَوم، وَصِيّةَ الجَدّ، وأمانتَه الفِكريّة، إلى حَفيدَيه منّي، وحفيدته.

وأمّا أبو عبدِ الله المُطمَئِنّ، فمِن تَلّة حَريصا حيثُ يَرْقُد، يُطِلُّ عليّ يَوميًا، حيثُما أَكون، ومن الجِهاتِ الأربَع؛ وفيما أَنْتَظِرُ لِقاءَه، لأنّا على مَوعِد، أَراني قَد غَدَوْتُ، اللّحظةَ، عندَه، وفي البال قَولُه:

ما المَـرءُ إلاّ صَفحةٌ تُطـــوى
أسطـورةٌ في مُصحَفِ الدّهـرِ
يَروي الحَيـاةَ وبعدَها يُـــروى
وعسى ينـوّرُ في دُجى القَبـــرِ

فإلى مَوعِدنا يا أبا عبدِ الله!

* * *

إعتِذار:

«لا خَيرَ إلّمْ يَسْمُ فِعْلُ»

أبا عبدِ الله، عُذْرَكَ!

نَعَم، اِقبَلْ، والدي، عُذرًا أرفعُه إليكَ عن نَفسي وعمّن يرغَبُ في ذلك من أفرادِ العائلة التي أنشأتَ وشريكةَ حياتِك بنَدى ريشةٍ وجَبين.

عُذرَكَ، أبا عبدِ الله، لتأخيرٍ في تحقيق وَعدٍ قَطَعتُه لك حين سألتُكَ إكمالَ سيرةِ حياتِك التي بدأتَها شِعرًا في همزيّتك التي- لعَدم قَبولك تكرارَ أيّ ضَربٍ فيها- خانَتْك، فاقترحتُ عليكَ وَضعَ السّيرةِ نَثرًا، وتطعيمَها شِعرًا، فأَقدَمْتَ، وعُمرُ الجَسَد المتبَقّي لك، كما أَسَرّ إليّ شقيقٌ طَبيب، إلى أفول؛ أَقدَمْتَ، أَنهَيتَ، ضَرَبتِ المُساعِدَةُ الأمينةُ على الآلة الكاتِبَة، صحّحتَ، رحلتَ.

سيرتَك، علّقتُ عليها، اختَرْتُ مُنتَخباتٍ لها من عِطر يدَيك، لكنّ «اللاّأسبابَ» حالَتْ دونَ نشرِها وتوزيعِها بالمَجّان، وإذ سلّمتَنيها أمانةً، ووَعدتُك، كانَ مجلّدُ «متري نعمان: السّيرةُ الذّاتيّةُ ومُنتَخبات»، عامَ ٢٠٠٢، وفي الذّكرى التّسعين لولادتك، وهو مَحفوظٌ منذُها في دار نعمان للثّقافة، وإنّما في نسخةٍ واحدة!

«أُذكروني في أُوَيقات الصّفاء، ومجالِس الأدب، وندواتِ الشّعر»، بهذه العبارة أنهَيتَ وصيّتَك عامَ ١٩٨٢، وها إنّ السّماءَ، بعد صراعي مع الدّيون، مع تلك الأوراق التي قُلتَ في إلَهها ذات يوم:

وبِئسَ المـالُ لا يُروي غليـلاً
وعِنـدي أَنّـه أَصلُ البـــلاءِ

أقول، ها إنّ السّماءَ تكافئُني على صَبري وجهدي وتسامحي وأنشِطَتي الثّقافيّة المجّانيّة، فتتكرّمُ عليّ بأصدقاءَ من مِثل الدّكتور ميشال كعدي، وهو من مُحبّيك ومُحبّي الحرف عندما يَنسابُ شِعرًا أصيلاً وكتاباتٍ مُضيئَة؛ وتُمطِرُني ببعضِ خَيرها، فغَدَوتُ كما لَطالما ردّدتُ «فقيرًا بين أغنياء» بعدما كنتُ «غنيًّا بين فقراء»، وتمكّنتُ، أخيرًا- أنا القائِلَ «ليستِ الذّكرى في الأشياء، وإنّما في الأحشاء هي»- من أنْ أَفِيَ بوَعدي لكَ، وأحافِظَ على ذِكراكَ وذكرى الحبيبة الوالِدَة، وذلك في اتّجاهاتٍ ثلاثة: جائزتَين سنويّتَين، «جائزة الأديب متري نعمان للدِّفاع عن اللُّغة العربيّة وتطويرها»، و«جائزة أنجليك باشا لتَمتين الرّوابط الأُسَريّة» (منذ عام ٢٠٠٧)، وكتابٍ فيك هو هذا «متري نعمان: الرّجل والمآثِر»، و«صالةِ متري وأنجليك نعمان الاستِعاديّة» لعرض بعضٍ من ذكرياتِك وذكريات «ستّ الحبايب» الوالدة، هَينَماتٍ بين حريصا وصربا، في ما يُلَخِّصُ جهادَ عُصفورٍ وعُصفورةٍ في سبيل صغارٍ كبروا، وأنتَ مَن أنشدَ عامَ ١٩٦١:

هـذا أَنـا وحليلتي أَصــلانِ أَفْــ
رَعَ منهما وُلْدٌ هُمُ نصفُ الرُّسُلْ
وُلْـدي سُعـادُ وعبدُه وجهادُنـــا
ونبيلُ، ناجي، والحياةُ همُ الأَمَلْ

ومن أَنشَدَ أيضًا:

أُناجي الخَيـالَ وأُحْيي الذِّكَـرْ
فيُطرِبُني نصفُ الإثنَـي عَشَـرْ

أبا عبدِ اللهّ، عُذْرَك، ولا تَقلَقْ، فحِصنُكَ، وعَرينُ الحَبيبة أمّ عبدِ الله، في أيدٍ أمينة، والصّلواتُ منه تنطلِقُ لِتُسَبّحَ الخالِق؛ وما حَفَرتَ يومًا على عُشّ حبّكما:

هـذا لِرَبّـي فيه فَضــــلُ
ولي أنـا في الفَضـلِ فَضـلُ
فَضـلُ الجِهـادِ فهـو أصــلُ
لا خَيــرَ إلّـم يَسـمُ فِعــــلُ

لَمَحفورٌ في قلوب أبنائك وابنتَيك، وأحفادِك وحفيداتِك، ومحبّيك، وهم كُثُر. فهل بغَير الفِعل يكونُ **سَعدُ حياة؟ وبغَير عَبيد الله، والجِهاد**، يَسمو فِعل؟ ومن دون نُبلِ أخلاقٍ يَنجو بَشَر؟ *

* بالإشارة إلى ابنتَي الرَّاحِل، سعاد وحياة، وأبنائه، عبد الله وجهاد ونبيل وناجي.

* * *

رَصْف :

أيا والِدًا استَولَدَ الكَلِم...
أيا والِدًا استَولَدَ الكَلِم،

إرتَأيتُ، في مئويّة مولِدِك، أنْ أنظِمَ فيكَ شِعرًا، على نَسَقِ ما دأبتَ على صناعته، عُمرًا، وكَم سَلّفتَ منه غيرَك، فنَهَشَكَ، وبقيَ واعِظًا ما اتّعَظ!

فَكّرتُ وعَدَلْتُ، كَيما تَظَلّ وَحدَك النّاظِم؛ ورَصَفْتُ فيكَ، أيا الشّاعرُ، أنا النُّوَيثِرَ، وعلى نَسَقي، وهو نَسَقٌ جديدٌ ابتَكَرْتُه لك، كلماتٍ ليست تَكفي، إليكَها:

أبا عبدِ اللهِّ، من حيثُ تَنظُـرْ
هلاّ تَرى دَمعَ العَينِ **يَقْطُـرْ**
يَقطُرُ على مُحَيّا لا يَغيـبْ
مُحَيّـا فـي كلِّ آنٍ **يَعبُـرْ**
يَعبُرُ المَوْتَ، ألوُجودُ يَطيـبْ
أللُّقيا مـع الحَبيـبِ يَسْبُـرْ
يَسْبُرُ الشِّعـرَ، ألأدَبَ يُعيـدْ
منَ الجَبينِ المُنـدّى **يَعْطَـرْ**
يَعْطَرُ الحبّ، حِبرُ اليَراعِ طِيبْ
ليس مِن كلِّ ريشـةٍ يَـجـدُرْ

***

أبا عبدِ اللّـهِ، عَفْـوَكَ قَـدِّرْ
باقةً من وَجْدي فـيكَ **أنشُـرْ**
أنشُرُ، وقـد تَقَصّدْتُهـا كـيـ
مـا فـي مِئَويَّتِـكَ **أُمْطِـرْ**
أُمطِـرُ شَوقًا لِمَـن لهُ وَحـدَهْ
دانَ القَريضُ، فيـهِ **تَمَـحْـوَرْ**
تَمَحْوَرَ البَشـرُ علـى مـالٍ
لِغَيـر العَطـاءِ لَمَّـا يُـؤثِـرْ
يُؤثِـرُ الوجـودَ عـلى عَـدَمٍ
حيـاةً بـبَـيْـتَـيـنِ يُنَـوِّرْ:

"ما المَـرءُ إلاّ صَفحةٌ تُطـوى
أسطورةٌ في مُصحَفِ الدّهـرِ
يَروي الحَيـاةَ وبعدَها يُـروى
وعسى ينـوِّرُ في دُجى القَبـرِ"

البابا شنوده الثّالث
١٩٢٣- ٢٠١٢

رأس الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة هوى صُعُدا. صعد إلى سمائه الّتي صنعها بصلاته وجهاده طَوالَ أيّامِ حياتِه، وخلّفَ وراءه ذكرًا طيّبًا وتيّارًا روحيًا ووطنيًا تَشبّعَ بالمعرفةِ والحكمةِ والشّجاعةِ والثّباتِ في الموقفِ وصفاءِ الرّؤيا وحسنِ التّقديرِ والتّدبيرِ والتّبصّرِ في المصير.

ابن أسيوط هو اليوم ذخيرةٌ في وادي النّطرون، يَحجُّ إليها، ليس القبطيُّ الوفيُّ فحسب، بل كلُّ مصريٍّ يؤمنُ بما أَنزلَ الله في أديانه من دعوةٍ إلى المحبّةِ والسّلامِ والصّلاح، وبأنّ مصرَ هي كلُّ مصريٍّ منذ الفرعونيّةِ فالمسيحيّةِ فالإسلام.. منذ البردى والهيروغليفيّة إلى مكتبة الإسكندريّة والأفلاطونيّة الحديثة حتّى الأزهر وأحمد شوقي وطه حسين ومحفوظ.

شنوده الثّالث شخصيّة تاريخيّة في تاريخ مصر الحديث. فقد كان رمزًا، ويبقى قدوةً، ويُفتقَدُ في الملمّات...

هذا المصلحُ في كنيسته على مدى أربعين عامًا من بطريركيّتِه، دانت له مصرُ كلُّها، يُشرقُ في لياليها شمسَ حقٍّ تَشهدُ لكلِّ حقٍّ وأَنّ حقًا لا يموتُ ما دامَ وراءه مُطالِب، ولا يتردّدُ في كلمةٍ تَحقنُ دمًا وتحفظُ وحدةً وتَضمنُ دوامَ العيشِ معًا. ولقد برهنَ أَنّه بقَدْرِ ما كان راهبًا يُمضي ثلاثةَ أيّامٍ من أسبوعه في عزلةِ الدّير، كان بالقَدْرِ نفسِه ملءَ الرّحابِ العامّةِ يَسهرُ على مصالحِ رعيّتِه، ولاسيّما متى استشعرَ مَسًّا بها أو خطرًا عليها، ولو كلّفه ذلك «تحديد» إقامتِه على ما أمرَ به الرئيسُ السادات، يوم تصدّى له برفضِ التّطبيعِ وبعدمِ تهدئةِ الأقباطِ الغاضبين...

إنّ بعضَ الرّجالِ يَصنعون تاريخًا؛ والتّاريخُ الّذي صنعه البابا شنوده الثّالث يشرّفُ تاريخَ القبطيّةِ ومصرَ والانسانيّة!

أمّي كما عرفتها

د. جورج لبكي

أبصرت أمّي النور عام ١٩٢٤ في بلدة الجديدة، في قلب جبل لبنان، في بيت مؤلّف من طابقين وروف من القرميد الأحمر، تحيط به أشجار الزنزلخت والتوت وزهور الزنبق والمنتور. هذا البيت الجميل حلّ مكانه اليوم بناء شاهق قبيح من الباطون، أراده أصحابه شاهدًا على التقدّم التقنيّ المزعوم.. ويشهد ضدّهم لأنّه قضى على الأخضر واليابس.

ترعرعت والدتي وسط عائلة كبيرة، على المألوف في تلك الأيّام. فالعائلة كانت تعتبر بركة، والولد «يخلق ورزقته معه».انتقلت مع عائلتها إلى بعبدات، بلدتي الحبيبة، لانّها كانت معروفة بمناخها الجافّ الموصوف للمصابين ببعض أمراض التنفّس كالرّبو وما شابه.

كانت أيّام قلّة بالنسبة لعالم اليوم الاستهلاكيّ الذي غزت عوارضُه كلّ مدينة وشارع في لبنان... ولكنّها أيضًا أيّام بركة وعون وطيبة قلوب، ساعدت على تخطّي شظف الحياة. الشابّة اليافعة ذات الشعر الذهبيّ وقعت في حبّ زوجها وهي ابنة عشرين. أحبّته... أحبّت فيه ذلك الشابّ، ابن العائلة المعروفة بأخلاقها العالية، وعلمها وثقافتها الرفيعة، ولم يخب أملها يومًا... ارتبطت به، وانطلقا في الحياة لا يملكان سوى بيت متواضع...

شقّت العائلة حياتها بصعوبة، ولكن بعزم وإيمان. فكانت الزراعة المصدر الأساسيّ للدخل، وقد امتدّت على كلّ شبر من أسفل وديان القرية إلى أعلى قممها. الزوجة تعمل يدًا بيد مع زوجها، فتبذر البذور، وتحصد الغلال، وتخبز على الصاج، وتطعم دود القزّ ليل نهار، وتفرط وتفقّي الصنوبر، وتحضّر المونة تحسّبًا لأيّام الشتاء القارصة، لأنّ بعبدات تقع على ارتفاع ٨٥٠ مترًا من سطح البحر ولأنّ أمّها التي عايشت مأساة الحرب العالميّة الأولى أوصتها بتوضيب المونة مردّدةً كيف اجتاح الجراد لبنان فقضى على كلّ المواسم سوى القلقلاس البلديّ.

كانت والدتي صاحبة يد خضراء، فصحّ فيها القول اللبنانيّ: «تزرع عودًا فيزهر...». وغالبًا ما كانت تفاخر بهذا أمام النساء، عندما كنّ يجتمعن حول المعجن أو حول فنجان القهوة في أوقات الاستراحة وما أقلّها!.. فالنهار يبدأ ويبدأ معه العمل المضني! وكبرت العائلة شيئًا فشيئًا، وكبرت معها التحدّيات والصعوبات. أحبّت العائلة الكبيرة، وعشقت الأولاد حتّى لَتسمعها تردّد على «كناينها» وهي في الثمانين من عمرها: «إسمعي يا ابنتي، أنا أنجبت ثمانية أولاد! إيّاك والتخاذل!!!»

مع ازدياد أفراد الأسرة، يزداد عمل ربّ العائلة، عمله هو وعمل زوجته. وما أدراك ما صعوبة العمل المنزليّ في وقت لم تكن تتوفّر فيه وسائل الراحة، فيما خصّ تحضير الطعام كالعجن والخبز والطهي..، أو سائر الأعمال المنزليّة، ولا داعي لأن نذكر أنّ التسهيلات غير موجودة من غسّالات ونشّافات وجلاّيات وشفّاطات وكوّايات وما يحزنون... فكانت إيزابيل كغيرها من النساء، تقوم بتلك الأعمال، ولكنْ مع سائر أعمال الزراعة والاهتمام بالدواجن والمواشي وتربية دود القزّ، فضلاً عن الحياكة والخياطة والتطريز بعد خلود الأولاد للنوم.

بعد الاستقلال بدأت المدينة تقترب من الريف. فمع توافد العائلات البيروتيّة إلى بعبدات طلبًا لصحيّة مناخها، ومع مجيء الجيش الإنكليزيّ إلى المنطقة خلال الحرب العالميّة الثانية، بدأت مرحلة جديدة، حوّلت بعبدات من بلدة زراعيّة إلى بلدة اصطياف. عند هذا التحوّل، أيقن الأهالي أهميّة العلم كوسيلة للترقّي الاجتماعيّ ولتخطّي حالات العوز والفاقة. وكان أن رأت إيزابيل نفسَها أمام تحدّ جديد وصعب، وهو تأمين العلم لأولادها مهما غلا الثمن.

فضاعفت جهودها تعمل مع زوجها الذي محضَها كامل ثقته منذ بداية المشوار، فإذا بتلك الثقة مفتاح نجاحها، حسبما كانت تردّد كلّما ذكَرت شريك حياتها! وإذا كان مزاجها صافيًا أخبرتك عن تلك الثقة العمياء: «الله يرحمك يا طنّوس، لم يسألني مرّة شيئًا...» وتكمل عن ذلك النهار المِشوب الحارّ من آب اللهّاب، عندما كانت مع طنّوس تهتمّ بـ«الزرّيعة»، فإذ بحيّة شقراء تشبّ بوجههما، سمّرت طنّوس في مكانه محتارًا لا يعرف ماذا يفعل... فما كان منّي إلاّ أن أتناول عصًا صلبة أبرّحها بها ضربًا على

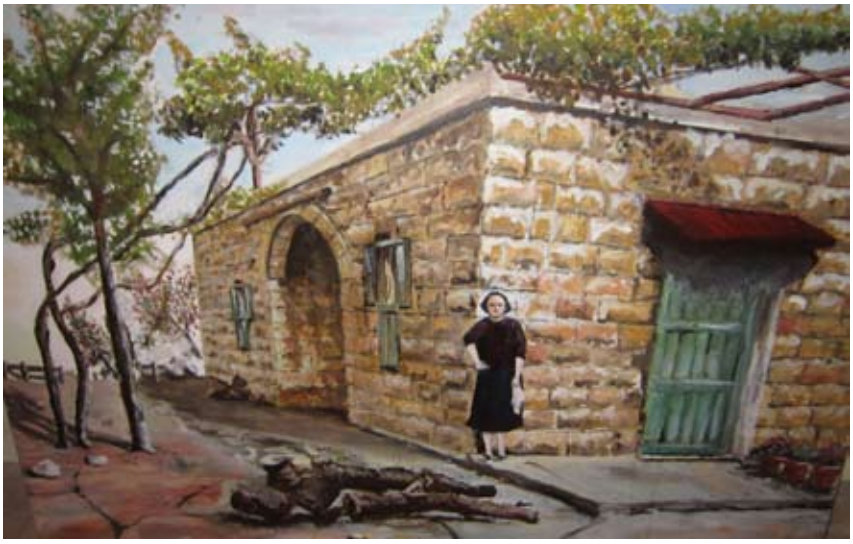

رأسها حتّى قتلتها، فيصرخ قائلاً: «أنتِ حقًا أخت الرجال، يا أمّ نجيب!»

تأمين أفضل ظروف تعليميّة لأطفالها كان الهدف الذي وضعته والدتي نصب عينيها، فراحت تعمل ليل نهار لتحقيقه، ولم تعرف الراحة يومًا حتّى بتربيتها الصارمة وبصلابة إرادتها... لم يكن أحد منّا يجرؤ على العودة إلى البيت إذا كانت علاماته ما دون الممتاز، إلى حدّ أنّها صارت تمازح أحفادها بأنّ عمّهم «أكل قضيبين» ذات يوم، وصار يصرخ: «نتائجي ممتازة... أنظري إنّها ممتازة». لقد كانت تؤمن بالتربية الصارمة والحنونة معًا، وتلعن مبادئ التربية الحديثة المبنيّة على التراخي والكسل والتخاذل. «فالقضيب يفيد ولا يضرّ أحد من وقت إلى آخر»...

سَهرتْ على أن يتلقّى أولادها العلم في أفضل المعاهد، مهما بلغت التضحيات. ووسط هذا النشاط المدعوم بالايمان في المستقبل، وجّه القدر لعائلتها ضرباتٍ قاسيةً وموجعة. فقد فقدت «إدوارد» في الرابعة عشرة من عمره، غرقًا في بركة ماء وهو يلعب مع رفاقه. ذهب إدوارد ولم يعد... كانت المصيبة كبيرة على العائلة بأكملها، وأضحى قلب الأمّ جريحًا يبكي الفقيد الغالي، يئنّ ويتألّم بصمت... ثمّ لَكأنّ القدر أراد أن يسحقها بضربة ثانية عندما مرض «مارون»، ذلك الطفلُ المفعمُ بالنشاط والحيويّة، ذو الوجه الملائكيّ المكلّلِ بخصلاتٍ ذهبيّة. حارب المرض سنةً بأكملها. لازمته إيزابيل دقيقةً دقيقة في المستشفى، وأبت أن تتركه ولو لثانية... ولكنّ «مارون» قضى في ربيعه الخامس!

بعد فقدانها ولديها كم أخبرت هذا الحلم: رأيت ملعبًا جميلاً، أبيض، ناصع البياض، في وسطه أولاد شبه ملائكة، يركضون، يمرحون، يضحكون... وفي زاوية صغيرة على أعلى الدرج، يقف ولد حزين، ينظر إلى بقيّة الأطفال وهم في قمّة السعادة. تَرى في عينيه رغبته الشديدة في المشاركة باللعب والمرح والضحك، ولكنّه لا يتحرّك... فوقفتُ مذهولةً وصرخت: «ما حال ذلك الطفل الملائكيّ؟ لماذا لا تدعه يلعب ويفرح مع الآخرين؟» عندها نظر إليّ ملاك وقال: «أنتِ لم تقبلي حتّى الساعة أن تتخلّي عنه ... ففتحت عينيّ للحين وفهمت الكثير، الكثير...»

كانت الضربة قاضية بالفعل، إذ أنّ السواد لبس حياة والدتي ولم يعد يفارقها... لم تخلعه منذ ذلك التاريخ... لم تعد تشارك في أيّة مناسبة اجتماعيّة أو حتّى عائليّة، بل لازمت منزلها، تهتمّ بعائلتها. اعتبرت موقفها من عدم المشاركة في أيّ مناسبة مفرحة أو سعيدة بمثابة وفاء لذكرى ولديها. لم أفلح يومًا في إقناعها بتغيير رأيها، لأنّ الجرح كان عميقًا، حاضرًا ينزف عند كلّ طلعة شمس وعند كلّ غياب... أمّا يوم الجمعة العظيمة، فكانت أمّي تعيش آلامه المجيدة بكلّ ما في الكلمة من معنى، مردّدةً مع العذراء مريم: «أنا الأمّ الحزينة...»

كانت أمّي قليلة الكلام، لا تحسن المجاملة المجّانيّة، تقول الكلمة المفيدة من دون زيادة أو نقصان. وبيتنا كان مفتوحًا للأقارب والأصحاب والجيران، يجتمعون فيه، لاسيّما لأنّ والدي هو أيضًا لازمه بعد فقدان ولديه. في هذه الفترة كانت الحرب اللبنانيّة تعصف بوطننا، فكان القصف ينهمر على قرانا وبلداتنا من دون رحمة. وفي يوم مشؤوم أصابت قنبلة قاتلة بيتنا، فسقط والدي شهيدًا، وكأنّ المصائب أصبحت لعنة تلاحقنا!!! أضحى القلق على الأولاد هاجسًا لدى والدتي. فمسبحة الصلاة لم تعد تفارقها، تصلّي وتستغيث من دون أن تُظهر ذلك متّبعةً قول المسيح: صلّوا بصمت فتُقبل صلاتكم...

ويوم قرّرتُ السفر لمتابعة دراستي العليا، رحت أبحث عن طريقة أطلعها فيها على قراري من دون أن أسبّب لها ألم الفراق. رحت أتصوّر الحجج المقنعة والوعود المزهرة... وكم كانت دهشتي كبيرة عندما سمعتها تقول لي: «إمضِ قُدُمًا يا بني! فالانسان الذي لا يسافر ليكتشف العالم بحضاراته المختلفة، لا يتقدّم، بل يبقى متخلّفًا و متقوقعًا على ذاته!» عندها اكتشفت في أمّي، تلك المرأة الجبّارة التي استطاعت التغلّب على عاطفتها مع كلّ المصاعب التي عاشتها. إنّها إنسانة جبّارة لم أشاهد كثيرين مثلها.

ورغم تقدّمها في السنّ بقيت على حيويّتها وصلابتها، تطالع الصحف والمجلاّت. بقيت امرأة عصرها تتابع التطوّرات العلميّة والنشاطات الثقافيّة. وثابرت على تلاوة فرض الصلاة كلّ يوم وقراءة سير القدّيسين والكتاب المقدّس. وفي آخر أيّامها، عندما اشتدّ المرض عليها لازمت الفراش على مضض. لقد عزّ عليها ذلك ولم تتقبّله، وهي التي عملت طوال حياتها، ليل نهار، ولم تتّكل إلاّ على نفسها رافضةً حتّى وأخيرًا أن يكون لديها مساعِدةٌ منزليّة.

وفي آخر المطاف استسلمت. استسلمت تلك المرأة الفولاذيّة ومضت إلى زوجها وأولادها الذين سبقوها إلى السماء. رحلت من دون أن تكلّف أحدًا عناء الاهتمام بها. رحلت بصمت تاركةً فراغًا مرّا...

ولكنْ عشيّةَ وفاتها، طلبت أن ترى أحفادها وكأنّها أرادت أن تودّعهم فردًا فردًا، ثمّ ودّعتني وهي تشدّ على يدي طالبةً أن يكون لها جنازة متواضعة. ولكنّ ما أرادته لم يتحقّق! أرادت جنازةً بسيطة، إلاّ أنّ الناس جاؤوا من كلّ صوب. القاصد الرسوليّ حضر شخصيًا مشيدًا: «إنّ المرأة الفاضلة أغلى من ذهب الأرض ومن كنوز الدنيا»... فما أغلاك يا أمّي!!!

في يوم غيابك، دعيني يا أمّي أناديك بكلّ الأغاني والألحان... دعيني أسكب دموعي والطيوب من قوارير عمرك الريحان... أنت عالم المحبّة والحنان الذي لم أكتشف طاقته العجيبة المعطاء إلاّ ليلة الفراق... فكتبت لك بعض السطور، وليتني أفيك بعضَ بعضِ حقّك...

فذكراك تبقى كالقنديل المضيء بالبال كما قال الكاتب الفرنسيّ Jean Jacques Rousseau

Souvenir, souvenir, douce vie de l âme
Quel est le cœur de fer que tu n'as jamais touché
Quel est l'infortuné mortel
A qui tu n'arrachas jamais de larmes ?

وبعد وفاتها كتب حفيدها ليونار القصيدة التالية:

J'ai pensé tant de fois que cela pouvait arriver plus tard
J'ai pensé tant de fois… hélas, il est déjà trop tard
Ces mots faciles qu'on dit pour se déculpabiliser
Hélas, les gens qu'on aime ne sont point éternels
Regardez, aujourd'hui je parle en levant les yeux au ciel
Longtemps, je me souviendrais de ces yeux sans pareils
Qui brillaient pour cette terre fébrile
Ta peau bronzée gorgée de soleils,
Respirait d'amour et de gaieté
Tu es partie laissant une empreinte sur la ligne du temps
Une marque indélébile de 88 printemps.

***

Qu' est-elle devenue cette maison de pierre ?
Dans cette campagne isolée, recouverte de lierre
Au milieu des chemins rocailleux
Qui abritait tous mes moments heureux
Dans ce cadre de silence ou l'être cher vous manque
que l'on t'accorde une pensée
Qu'on te donne une étoile et une douce rosée

****

Sans nous avertir par cet après-midi d'hiver tu es partie
Tu nous as laissé pour retrouver en chemin ton mari.
Du ciel sur ton doux nuage blanc
Tu surveilles tes enfants et leurs descendants
J'espère que les anges t'ont donné la main
Qu'ils t'ont donné du courage tout au bout du chemin
Retourne-toi une dernière fois, regarde tes bonheurs et tes joies passées
Un nouveau chemin là-haut commence
Là-haut dans les cieux, entre et fais ta révérence
D'un caractère décidé on entendait au loin
L'écho d'une voie pure et claire s'exclamant:

«La mort n'a plus rien à prendre à celle qui a sue se défaire de tout ce qui la retenait sur terre»

Dr Georges LABAKI
Ecolier

بلسموا جراحها... طبيعتنا تنـزف

نور زاهي الحسنية
- فرع الشوف -

فؤادُها لم يعد يحتمل
حزنُ السنين أضناهُ وأرهقهُ
خيبةُ الأملِ طعنَتهُ في الصميم
تشجّعَ، أعلنَ الثورة، العصيانَ فالتمرّد
فكان ما كان...
من مآقيها جرى الدمع
بخطًى قويّة حفرَ في وجنتيها طريقَهُ
وسقطَ مدوّيًا مزلزلاً
تأوّهت...ارتعدت...زمجرت...
أطلقت لنفسها العَنان
فكّت أسرَ غضبها المكبوت
استسلمت لصراخِها وأنينِها المنسيّ
فشغلتهم، لفتت انتباهَهم
أوقفت بنوبةِ جنونِها سيرَ أعمالهم
أولئك سكّانُ وطنٍ، مواطنو آخر
لم ينظروا إليها يومًا كما شَخصتْ إليهم
ما برحت تعطيهم من ذاتها
وهم بجشعهم يردّون
إنتزعوا منها عذريّتَها
استنـزفوها، استثمروها لمنافعهم الخاصّة وما يزالون
شوّهوا تضاريسَ جسدها النقيّ بمخلّفاتهم القذرة
صَبرت كثيرًا، كابرت على وجعها
تجلّدت، واليوم آثرتِ الخروجَ عن الصمت

«كفاني انصياعًا ورضوخًا
كفاني لأهوائكم مداراةً
إسمعوا صراخي، لن تنَجو منه آذانُكم
التفتوا نحوي! تعبتُ منكم
من صراعاتكم السخيفة
حروبكم المدمرة، مطالبكم التي لا تنتهي
جرّحتموني بأنانيّتكم وغروركم
وأنتم لولاي ما استمرّت حياتُكم
منّي وإليّ ستعودون
في ترابي ستُدفنون، يومَها لن أرحمَكم
سأصفّي حسابي معكم
سأجرّدكم وأطرحُكم عظامًا باليةً باردة
علّي أَشفي غليلي منكم، أُنزِل بكم العقابَ وأنتقم
أنتقم...أنتقم...أنتقم...»

على الشاطئ الأبيض

نور زاهي الحسنية

تُعانقُ أناملُكَ القلمَ...
تداعبه بلطفٍ وصبابة
يكابرُ هو كأيّ عاشقٍ أضناه الإنتظار
عاشقٌ يقف كلّ ليلةٍ على شاطئ الورقِ وحيدًا
متأمّلاً الرمالَ البيضاء بلوعةٍ...
هي تدركُ ما أحدثتْ في ثنايا قلبه من ألم
كما يدرك هو أنّها ليست سيّدةَ قرارِها
وأنّها تسير بأمرٍ من صاحبها
يُعاتبها بشجنٍ ويَمضيان على الرمال البيضاء يتسامران
إلى أن تحينَ لحظةُ الجنون
لحظةٌ يَنسيان خلالها العتاب
ويمجّدان اللقاء
فينصهرُ جسداهما في رقصةٍ مثيرة

يجوبان شاطئَ الورق
يرسمان على رماله كلماتٍ وكلمات
حتّى تكتملَ اللوحة...
لوحةٌ من الكلمات.
تطرحُه صريعَ نوبةِ عشقٍ جارف
وتنسحبُ هي،
تبتعدُ أناملك دونَ وَداع
تشيح بنظرها...
عن حبيبٍ يتأمّلُ لوحةَ الكلمات
حبيبٍ حزمَ أمتعته...
استعدّ لرحلةِ انتظارٍ جديدة
على شاطئ الورق... الورق الأبيض...

أكتبني حبيبي...

أكتبني حبيبي...
إجعلني قصيدتك،
إنسجْ منّي أبياتًا،
أبياتَ شعرٍ حديثٍ.
إيّاك أن تكبّلَني بقافيةٍ،
أنا أكرهُ القيود، أمقتُها...
دعني حُرّةً، طليقةً على شاطئ حبّنا الأبيض.
لكنْ امنحني قيدًا واحدًا،
قيدًا أعشقُ استسلامي لحنانه.
عانقني بقوّة، حاصرني بذراعيك حبيبي.
لن أطالب بفكِّ الحصار أبدًا.

أكتبني حبيبي...
بعثرني على أوراقك،
كما تبعثر رياحُ الشتاء خصلاتِ شعري.
إأتركني أرتعشُ من أمطار النقاط فوق الحروف.
كحِّلْ عينيّ بقلمك،

لوِّنْ شفتيّ بحبره الأزرق،
وبعطره المميّز وشّحْني...
أعشقُ نفسي في مرآة الكلمات،
وكلماتُك وحدَها تروي نرجسيّتي.

أكتبني حبيبي...
إزرعني طيفًا بين الحرف والحرف،
بين الكلمة والكلمة،
بين الجملة والجملة.
وأنا سأزهرُ لك ربيعًا من الأفكار،
سأراقصُ قلمَك حتّى طلوع النهار.
أنا لم أرحل عن خيالك،
هو أضاعني وأنا أمام عينيك أنتَ،
مستلقيةٌ على شاطئنا الأبيض.
قصيدةً كتبتني أنتَ،
وأنا أكتبُك الآن حتى يتمّ اللقاء

دينا ذبيان
- فرع الشوف -

لآخرِ مَرّة!

إليك سأكتب الليلة...
إليك سأكتب... و...لآخر مرّة!
كان عليك يا سيّدي، أن تعلم:
إنْ كنتَ أنتَ آدم، أنا لست كأيّ حوّا
لن أسامَحك! تأكّد!
فكيف لي أن أسامحَ من أبكى عيوني
وأسقطَ الدمع أسًى على حين غَرّة؟!
غبيّةً كنتُ!
غبيّةً...
أعترف! لكنْ صدّقني... لن أعيدَ الكرّة!
وعدٌ منّي أن أنساك...
وعدٌ أن أمحوَ ذكرياتِك المُرّة!
لن أهربَ من نظراتك بعد اليوم...
فعيونُك لا تخجل... ولا تَحمِلُ من الحياءِ ولو ذَرّة!
إضحك، إفرح، إلعب، إفعل ما تشاء...
لكن... دعني وشأني، دعني... فأخيرًا... أنا... حرّة!

لغة الشباب العربيّ: العربيّة أم الازدواجيّة؟!

ميسم الزعر
هندسة كومبيوتر وإتصالات-
السنة الخامسة/ الشوف

أجمع المفكّرون على أنّ الجماعة لا تكون أمّة إلاّ إذا كان لها لغة واحدة. وها هي اللغة العربيّة تجمعنا نحن العرب قومًا وأمّة. وهي تاليًا كبرى لغات المجموعة الساميّة من حيثُ عدد المتكلّمين بها، وإحدى أكثر اللغات انتشارًا في العالم. أكثر من ٤٢٢ مليون نسمة ينطقون بها من العراق إلى أقصى جنوب الصومال/السودان، فالشواطئ الأفريقيّة الشماليّة للمغرب، فضلاً عن إيران وتركية وتشاد ومالي والسنغال وسواها.

العربيّة لغة القرآن الكريم؛ بها تقوم الشهادة والصلاة، تردّدُ أصداءها المآذن في شرقٍ وفي غرب. والعربيّة أيضًا لغة طقسيّة رئيسيّة لدى عدد من الكنائس المسيحيّة الشرقيّة.

عرفت هذه اللغة عصرًا ذهبيًا إثر انتشار الإسلام وتأسيسه دولاً، إذ أصبحت لغة السياسة والعلم والأدب لقرون طويلة في الأراضي التي حكمها المسلمون. فبها ألّف ابن سينا، وابن يونس، والفارابي، وابن الهيثم، والخوارزمي، في الفلك والهندسة والطبّ والجيولوجيا والجغرافيا والكيمياء، ما أدهش العقول بأسلوبهم العلميّ ولغتهم المشرقة الرصينة. وهي كانت العقلَ المنيرَ لقيس ليلى، والجرْسَ الساحرَ لنبض شعر المتنبّي. وقد قال «السيوطي»، وهو من كبار علماء المسلمين: «اللغة العربيّة أفضل اللغات وأوسعها».

لكنّ التحدّث عن اللغة العربيّة في عصرنا هذا، عصر العولمة والانفتاح، بات مختلفًا، إذ تغلغلت اللغات الأجنبيّة في مجتمعنا وهيمنت على جميع مناحي حياتنا، ما أدّى إلى تراجعها. وهذا ملموسٌ في الازدواجيّة اللغويّة في التعليم ووسائل الإعلام. فبتّ تسمعَ التحيّة مثلاً في ثلاث لغات في عبارة واحدة كـ: «Hi، كيفك؟ Sa va؟». وسعى الأهل لتعليم أولادهم اللغة الأجنبيّة منذ نعومة أظافرهم، فباتت كلمة الولد الأولى «mummy» و«daddy» بدل أمّي وأبي. وهلاّ رأينا ابتسامات الفخر والاعتزاز لدى الأهل عندما يلفظ أبناؤهم الإنكليزيّة؟!

إذا سألنا طالبًا عن اللغة العربيّة، تُدهشنا قسوة الجواب؛ معظم الشباب يعتقدون أنّ هذه اللغة عفا عليها الزمن، ولذلك يحلمون بلغات أخرى!

وإذا ما نظرنا في الأسباب وجدنا أن أبرزها:

- نظرة الشباب وأهلهم الدونيّة إلى اللّغة العربيّة.
- العلوم والتكنولوجيا (قصور التأليف والبحث بالعربيّة).
- النظرة الاجتماعيّة المثمِّنة للّغة الأجنبيّة.
- الاختصاصات وفرص العمل.
- سياسة الأقوياء.

النظرة الدونيّة

يعتقد معظم الناس أنّ اللغة العربيّة تصلح للعلوم الدينيّة، وللتخصّصات الأدبيّة، وأنّ اللغة الأجنبيّة، وبخاصّة الإنكليزيّة، للطبّ والهندسة والرياضيّات... ولعلّ معظم هؤلاء فاتتهم حقيقة تدريس الطبّ مثلاً في بعض الدول بلغاتها القوميّة كأرمينيا، واليونان، وكوريا الجنوبيّة، وأوكرانيا، واليابان، والصين، وألمانيا.

ولمعرفة إمكانيّة تعليم هذه الموادّ بالعربيّة، أُجريت أبحاث تجريبيّة مقارَنة ما بين نتائج تعليم مقرّرٍ ما بالعربيّة وبالإنكليزيّة؛ ومن ذلك، مبحثان في الجامعة الأميركيّة ببيروت وفي الجامعة الأردنيّة، مع مجموعتين من الطلاّب، دَرست إحداهما الطبّ بالعربيّة، والأخرى بالإنكليزيّة، فتبيّن أنّ درجة الاستيعاب لدى المجموعة الأولى كانت أفضل من المجموعة الثانية.

وبالرّغم من أنّ النتائج تشير إلى إمكانيّة التدريس بالعربيّة، فثمّة مَن يعتبرون أنّ المصطلحات العلميّة التي هي أصلاً بالأجنبيّة، هي الوسائل المباشرة لتوصيل المعرفة.

أَضِفْ إلى هذا أنّ سياسة الدراسات العليا في الجامعات تُلزم عمومًا بوضع الماجستير أو التقارير بالإنكليزيّة.

قصور التأليف والبحث العلميّ بالعربيّة

وفي حال قرّرت الجامعات إمكانيّة وضع الأطاريح بالعربيّة، فالسؤال يراودنا حول إمكانيّة وجود مصادر ومراجع لازمة بالعربيّة. فهل يوجد أبحاث في الرياضيّات بالعربيّة؟ وإن وُجد، هل يمكن الرجوع إليها عبر صفحات الإنترنت؟ وإلى أيّ سنة تعود؟ أليست معظم المؤلّفات العلميّة تصدر أوّلاً بالإنكليزيّة، ويمكن بالتالي الحصول على أحدث المعلومات وبالسرعة المطلوبة عبر الإنترنت؟

النظرة الاجتماعيّة المثمِّنة للّغة الأجنبيّة

بعيدًا عن الحياة المدرسيّة والجامعيّة، فإنّ أهل المجتمع يعتبرون أنّ مستوى مَن يدرس أو يتحدّث بالأجنبيّة هو أفضل من مستوى ذاك الذي يدرس أو يتحدّث بالعربيّة.

الاختصاصات وفرص العمل

إنّ النظرة التفضيليّة أعلاه لها حسابُها أيضًا لدى المؤسّسات العامّة والخاصّة، إذ إنّ الشرط الأوّل ويكاد يكون الأهمّ، هو إتّقان الموظّف للّغة الأجنبيّة باعتبارها لغة التواصل العالميّ. فهي إذًا من متطلّبات النجاح في الحياة.

سياسة الأقوياء

والسياسة تلعب هي أيضًا دورًا محوريًا؛ إذ إنّ القويّ يفرض لغته. وممّا لا شكّ فيه أنّ الاحتلال والاستعمار أثّرا في البلاد العربيّة، وخصوصًا في لغتها.

تجربتي مع اللغة العربيّة

عندما أتحدّثُ عن الطلاّب واللغة العربيّة لا أستثني نفسي؛ فتجربتي تشبه تجربة العديد منهم. من مرحلة الدراسة الابتدائيّة والثانويّة لا يسعني إلاّ أن أتذكّر التكرار والملل وقولَ المعلّمة: «إنّ اللغة العربيّة من أصعب اللغات، وتعليمها يتطلّب الدقّة والتحليل». لا يسعني سوى أن أتذكّر بيوت شعرٍ طُلب منّا تقطيعها عَروضيًا، ونحنُ ما زلنا نحاول فهم الأوزان. لا يسعني سوى أن أتذكّر شرح أفعال وأسماء شذّت عن القاعدة قبل فهم ما هو أصل القاعدة... وروايات أخرى أشعرتني أنّ العربيّة عبء ومعضلة يصعب حلّها. ولا أخفي أنّي ومع كلّ هذا، كانت لي هواية كتابة خواطر بالعربيّة والانكليزيّة على حدٍّ سواء، ولا أعلم لماذا عندما كنت أسلّم هذه الخواطر لمدرّسة اللغة الأجنبيّة كانت تعلّقها على لوح التقدير وتنشرها في المجلّة وتطلب منّي قراءتها أمام الجميع، في حين أنّ خواطري باللغة العربيّة يُكتفى بأن يُكتبَ عليها جيّد من دون أيّ اهتمام آخر أو تحفيز في سبيل المزيد.

في الجامعة، لم أتعلّم أيّ مقرّر بالعربيّة طوال أربع سنوات، ولم أتصفّح أيّ صفحة إلكترونيّة عربيّة عدا المجلاّت والصحف. كلّ شيء من حولي ينبض باللغة الأجنبيّة. ولا أذيع سرًّا إن قلت إنّني عندما أُلزمت بأخذ مقرّر اللغة العربيّة كنتُ خائفة؛ فهذه اللغة باتت عندي كالعقبة، وقد تصعّب عليّ إنهاء تحصيلي العلميّ، وأنا على عتبة التخرّج نهاية هذا الفصل. ولكن، ما إن بدأ الفصل، وبدأت معه ساعات اللغة العربيّة، حتّى صرتُ أشعر بالارتياح وحسن الاقتراب من لغتي الأمّ. صرتُ أتصفّح الإنترنت باحثةً عن الأصول والمبادئ والأمثلة والشروحات. وباشرت الطباعة بالعربيّة. فأنا الآن أشعر وكأنّ الحاجز الذي بنته السنوات بيني واللغة العربيّة قد انهدم فباتت جزءًا لا يتجزّأ منّي.

الخاتمة

للّغة العربيّة تأثيرها في جميع لغات العالم، إذ لا يوجد لغة في العالم إلاّ وتتضمّن كلماتٍ منها؛ ففي الإسبانيّة نحو خمسة آلاف كلمة، وفي الإنكليزيّة نحو ثلاثة آلاف كلمة...

والدراسات أثبتت بأنّ نسبة المصطلحات العلميّة في المراجع الإنكليزيّة هي ٣،٣٪ من مجموع الكلمات، والباقي هو من الكلام العاديّ غير المتخصّص، وبالتالي، فإنّ العائق هو ترجمة الكتب والأبحاث لتُعلّم بالعربيّة.

وإذ كان هناك من قصور في مواكبة التطوّرات التكنولوجيّة والعلميّة، فليس السبب في بنية اللغة العربيّة، بل في تقاعس أبنائها ودولهم؟ وليتنا ندرك كم يُعيبنا أن نتعرّف إلى تراثنا ونستطلعَ مستقبلَنا بلسانٍ غيرِ عربيّ!

في النهاية، لكلّ لغة مضمون ثقافيّ وحضاريّ، فاللغة وعاء الثقافة والحضارة؛ وعندما نتعلّم لغة ما، فإنّنا نتعلّم صيغًا ومفاهيمَ وثقافاتٍ وطرقَ تفكير وأساليبَ تعبير. فنحن منفتحون على جميع اللغات والحضارات، ولكن ليس على حساب لغتنا الأمّ : «اللغة العربيّة».

ألغيابُ المُضيء

إيلي مارون خليل

وحيدًا، أجلس إلى طاولةٍ ترتدي الأبيض، في المطعم الصّغيرالفاخر الدّاكِن. ألطّاولةُ الدّافئةُ المُزقزِقةُ نفسُها الّتي كنّا نجلسُ إليها، وتُطِلُّ على مستديرة تُفضي إلى شارعَين فخمَين، وبلدةٍ مميّزة. بمواجهتها مكتبةٌ تضجُّ بالحركة، بالحياة.

ذات زمانٍ، كنتُ مغرمًا بسارة. ذات زمانٍ مستغرِقٍ في البُعد الحميم. أكانت سارة مغرَمةً بي، حقًّا؟ مَن يدري! فالفتاةُ، عينُها، لا تدري إن كانت مغرَمة أم لا. تعرفُ أنّها تلتقيني. تستمع إليّ. تُطيل النّزهاتِ معي، أينما كان، إلى أيّ مكان، في أيّ زمان. لكنّها لا تعرف الأكثر. وهل يمكن أن تعرفَ، إلّم تحاول؟ ولماذا تحاول!؟ هي تدع الأمورَ تحدثُ تلقائيًا. تترك الأيّامَ تكرّ عفويًا. سعيدةٌ، هي، كما تُمضي حياتَها، كما تَمضي حياتُها.

وأنا نفسي، ما كنتُ لأتساءلَ هذه التّساؤلاتِ، أو مثلَها. لا أعرفُ لماذا. ولماذا أعرفُ؟ كنتُ مأخوذًا. ألمأخوذُ بالأنثى الجميلةِ، لا يرى سواها. لا يسمع إلاّ صوتَها. لا يحسبُ ما تقوم به، إلاّ مِثاليًا. ألمِثاليُّ كامل. لَكأنّ المأخوذَ بالأنثى، الذّاهِلَ أمامها، «مُشرِكٌ». فهي «تمتلكُه» كلّه. كانت إلهتي.

صَعَقْتِني، سارة. كيف استطعْتِ!؟ كنتُ «مُكَهْرَبًا». أراكِ، تحتزّ شراييني بنبضِ دمائك، بغيوم أسرارك. أصافِحُك، يَسْري، بي، جسدٌ آخرُ، طافِحٌ بأحلامه. ألمِسُكِ، ينسابُ، بي، دَفقٌ عاصفٌ، بالآهاتِ يكتنِز. أغادرُكِ، يرتديني حضورُكِ. أبتعدُ، يطلُعُ صوتُك، منّي، نايَ الحنين، وآهاتِ الرّجاء. أنامُ، تفترسين كِياني. أصحو، تُفَجّرين تَكَرُّسي. فماذا كنتُ أستطيعُ!؟

هزّني صوتُ النّادِل:

- أتنتظرُ أحدًا، أستاذ، أم تريدُ أن تطلبَ شيئًا؟

- ومن أين لي أن أدري!؟

- عذرًا، أستاذ، لم أفهم!

- ولا أنا!

طَفَحَ الارتباكُ على مُحَيّاه. لبستْه الحَيرة. نظر إليّ بعينَين فارغتَين، وذهنٍ مُرتَجّ. قلتُ له:

- أتعرفُها؟

ذُهِل الشّابُّ. قلبَ شفتَه السُّفلى فغطّتِ العُليا. وَدّ لو يسألُني:

= مَن هي، أستاذ؟

لذلك أجبتُه:

= هي، سارة، مَن كنتُ آتي بها، أو معها، أو تأتي هي بي، أو معي. لا أعرف!

إندفقت الحيرةُ من عينَي النّادِلِ ووجهه، تأتأ:

= لكنّي لا أركّز في الوجوه، أستاذ.

كان يكذب. أنا على يقينٍ من أنّه كان يعرفُها. كان يركّز في الوجوه، يعرف زبائنَ المطعم/المقهى، وجهًا وجهًا، خصوصًا الصّبايا. يكذب لئلاّ يُحرَج. لئلاّ يُزعجَني. أعدتُ السّؤالَ عليه:

= أتعرفُها؟

حرّك رأسَه يمينًا ويسارًا، غيرَ مرّةٍ، قاصدًا النّفْيَ. سألتُه:

لماذا؟ لماذا لا تعرفُها؟ كثيرًا ما كنّا نأتي، وكنتَ تهتمُّ بنا.

إختفى النّادلُ. كأنّ ساحرًا مقتدِرًا أخفاه. لم ألحظْ كيف حدثَ هذا. بدوتُ كمَن يحادثُ نفسَه.

«مجنووون»! قال بعضُهم. «حرام»! همسَ آخرون.

أمّا «المجنونُ» الّذي هو أنا، فحارَ فيهم، وفي نفسه. جمعْتُ رأسي، منخفِضًا، بين كفّيّ، زفرتُ آهةً عميقةً، رافقتْها نهدةٌ تتألّم وتؤلِم. ماذا أفعل!؟ علامَ أقدر!؟ كيف أتصرّفُ، وأنا في مرمى نظرِ الجميع!؟ ربتتْ كتفي أنثى(عرفتُ قبل أن ألتفتَ). أنثى دافئةً، كانت. تتجلّى بالأسود الموحي، وهي بيضاء تختلج شراييُنها بدمٍ حارٍّ، صاخب. سألتْني بحنوٍّ حميمٍ، دافىء:

= أتنتظر أحدًا؟

تلبّكتُ. إكتشفتْ تَلَبُّكي. صَخَبت عيناها فرحًا. همستْ:

= أنثى، مثلاً! أنثى جميلة!

قلتُ بشجاعةٍ أذهلتْني:

- أنتظرُك!

- شكرًا. مع أنّك... لا تنتظرُني. أنت تنتظرُها!

- مَن هي؟

- أنثى ما. حبيبة. صديقة. عشيقة. وقد تأخّرتْ.
- لمَ ليست زوجًا؟
- ألرّجلُ لا يواعدُ امرأتَه في مكان عامّ! ألأمكنةُ العامّةُ للصّداقة. للحُبّ. للعشق. أو للعمل!
- أنتظرُكِ، لِمَ لا تُصَدِّقين؟
- أأنتَ تعرفُني؟
- تمامًا! إنّي أنتظرُك لأنّي لا أعرفُكِ!
- يبدو أنّك فهمتَني! ألإنسان ينتظرُ ما لا يعرف. ينتظر المجهول. ينتظر المُتَوَقّع. ينتظر المُفاجىء.
- وأنتِ مفاجَأتي المُفرِحة!
- ألأنّني... ألأنّك رسمتَني في خيالك؟
- لأنّكِ اقتحَمْتِني! لأنّكِ تُشبهينها...

سكتُّ. قالت بصوتٍ حميمٍ، خفيضٍ، آسِر:

- أرأيتَ أنّك تنتظر أنثى رسمتَها في ذهنك، أو تَخَيّلْتَها، أو حلُمتَ بها، ولا تزال!؟
- كلُّنا ينتظرُ حلمًا، أليس كذلك؟ مَن تنتظرين، أنتِ؟
- حُلمي!
- هنا!؟
- في أيّ هنا! أنتظره أينما كان! لا بدّ أن أجدَه! إنّه يُشبهك!
- لكنّه ليس أنا. ولستُ هو!
- مَن يدري! قد تكونُه، أو قد يكونُك!
- أليس غريبًا أمرُك، آنستي!؟
- ألغرابةُ ألاّ نحيا الغرابة! ها نحن نتحدّث. نُقيمُ حِوارًا. نَعقِد وعدًا بلقاءٍ جديد. نتابع حوارًا. أستهويك. تستهويني. نرتبط بعلاقة، لا نعرف إلى أين تؤدّي بنا. لكنّنا نكونُ عِشنا. فَرِحنا. انتظرنا. أروح أنتظرُك. تروح تنتظرُني. نحيا، فترتذاك، عمرَين. أليس جميلاً أن...
- ماذا تأكلين، أو تشربين، الآن؟
- ألن تنتظرَها، بعد؟
- قلتُ إنّي أنتظرُكِ!
- أرغب في تصديقكَ! لكنّك حزين!
- تأخّرتِ. كنتُ قد قطعتُ الأملَ من مجيئك.
- ولا تعرفُني!
- وهل تعرفينني، أنتِ!؟ أنا «مجهولُكِ»، وأنتِ «مجهولتي»! ماذا نتناول الآن؟
- ما تريد!
- إختاري!
- أرى أن تختار أنت!
- أنا اخترتُك! وأنتِ؟
- ماذا ستفعلُ بي؟
- ما أرى أنّه يناسب!
- يناسِبُ مَن، أنتَ أم أنا؟
- ما يناسبُكِ، أنت؟
- أن ننطلق من هذا المكان، وبسرعة.
- غريب... لماذا؟ إلى أين؟
- أكاد أختنق، هنا. خذني إلى أيّ مكان. إلى الشّاطىء. إلى الجبل. نزهة في السّيّارة. إفعل ما تشاء. أريد أن نتركَ المكان.
- وإن أطلّ، الآن، مَن تنتظرين...
- لا أنتظرُ أحدًا. كنتُ أبحثُ عنك!
- ولا تعرفينني!
- مَن يقول!؟ ليست المعرفةُ مادّيّةً فحسب.
- بصراحة؟
- قلْ!
- كنتُ أفكّرُ فيها! وما كنتُ أنتظرُها!
- ألآن، أنا هنا؛ هيّا بي!

بسرعةٍ، عَجلى، فكّرتُ: ماذا أفعل؟ لماذا؟ وسارة؟ دائمةُ الغياب. لمَ أفكّرُ فيها؟ منذ اختفت، لا أزال أحِنُّ إليها. أحلُمُ بها. لم أستطعْ نسيانَها. كيف أستطيعُ أن أنسى غيابَها؟ أأستطيع؟ أيقظَني صوتُ الغريبةِ «المجهولةِ»:

- هيّا بي، أقول. ما بك؟

قلتُ، مُفَكّرًا في سارة:

- هلُمّي!

وإذ استدرْتُ، ناسيًا مَن معي، أشرقتْ سارة في الباب! غيابُها يصخَبُ حضورًا عاليًا، منيرًا، مثيرًا، موحيًا... لم أتساءل: ماذا عليّ أن أفعل،

خرجتُ... وحيدًا... ولم ألتفت إلى وراء!

أنطوان رعد

أشتاتُ حوارٍ مع زِنجيّة في بوارتوباريوس

كَدَمْعَةٍ مِنَ البِلّورِ الأَسْوَدِ يَبِسَتْ في مُقلةِ الغَجر
كانَ قلبي
وكانَ اللّيلُ طِفلاً زِنْجيّا
يَتَسَكّعُ حافِيًا على الأَرصفةِ وفي الشّوارع
ويُلطِّخُ بالحِبرِ أَشرعةَ السُفنِ ونَوافذَ الحانات

بوارتوباريوس
نَجمةٌ شاحِبةٌ تَتَعرّى بكسلٍ على ضِفافِ العَتمة
واللّيلُ فيها يَنبعُ مِنْ قَلبي
يَتدَفّقُ عَبْرَ الطُرُقِ والسّاحات
ليَصُبّ في الحاناتِ الّتي تُلقي شِباكَها
لِتَصطادَ البحّارةَ والغُرَباء

مُنذُ ثَلاثةِ أَيّام
وأنا أَقِفُ أَمامَ أَسوارِ مَملكةِ اللّيلِ في بوارتوباريوس
كسائحٍ أَضاعَ جَوازَ سَفَرِه
كَطِفلٍ يَتيمٍ يَنتظِرُ بطاقَةَ دَعْوَةٍ
إلى عُرْسٍ أُرجِئَ حتّى إشعارٍ آخرَ.

في حانةٍ صَغيرةٍ يَغسِلُ أَقدامَها البَحْر
كُنْتُ أَعُبّ الخَمْر
وفي عَيني دَمعةٌ مَقهورةٌ بِحَجْمِ الغُربَة
فأنا رَجُلٌ لا وطنَ لي ولا وِسادَة
وأنا قَصيدَةٌ تَبْحَثُ عن عُنوانِها في دَفترِ اللّيل.

أَيُّ سَفينةٍ تَحملُني إليك
أَيُّها الوطنُ المُتوّجُ بالرّصاص
المَصلوبُ على خَشَبَةِ الحِقْد
أَيُّ سَفينةٍ تَحملُني إليك
أَيُّها الوطنُ الذّي يُطاردُني حُبُّهُ كَاللّعنَة
أَيُّها الوطنُ الذّي يُدمّرُني حُبُّهُ كالزِلزال
أَيُّها الوطنُ المَزروعُ كالخَنْجَرِ في القَلْب
وكاللُغْمِ في الذّاكرة.

اللّيلُ في بوارتوباريوس يَجْتاحُني
تاركًا بَصماتِهِ فَوْقَ قلبي
المُثْخَنِ بِجراحِ الأَيّام
وقُبالَتي تُحْفَةٌ مِنَ الإبنوس
في نَظراتِها شَيطانٌ يُصَلّي
لإلهٍ أَضاعَ هُوِيّتَهُ في مَتاهاتِ الوُجود.

- مَنْ أَنت؟
- أنا اللّيلُ صارَ جَسَدًا
جَسدًا أَبيعُهُ مِنَ البحّارةِ والغُرَباء
جَسدًا يَمنَحُ المِتْعَةَ
مَنْ يَدفعُونَ ثَمَنَ المِتْعة.
- ما اسْمُك؟
- إسْمي نَسِيْتُهُ مِنْ زَمان
(آهِ لَو تَنتَقِلُ إليّ عَدْوى النِّسْيان
آهِ لَو كانَ في وُسْعي أَنْ أَنْسَى
أَنْ أَنْسى إسْمي وَطَني
عَلاقَتي بالأَرْضِ وبالأَسْماء)
أنا لا اسْمَ لي
وَلِكنّني الأَسماءُ جَميعًا
إنّني أَخْتَصِرُ نِساءَ الأَرْض.
- ما هِيَ حَقيقَتُكِ أَيّتُها الّتي لا اسْمَ لها؟
- الحَقيقةُ دَعْكَ مِنْها
إنّها أَكْبَرُ كِذْبَةٍ اخْتَرعَها الإنْسانُ في الوَجود
صَدِّقْني أَيّها الرّجُل
لَيسَ في الكَوْنِ سِوى حَقيقةٍ واحِدَة
حَقيقةِ المَوْت.

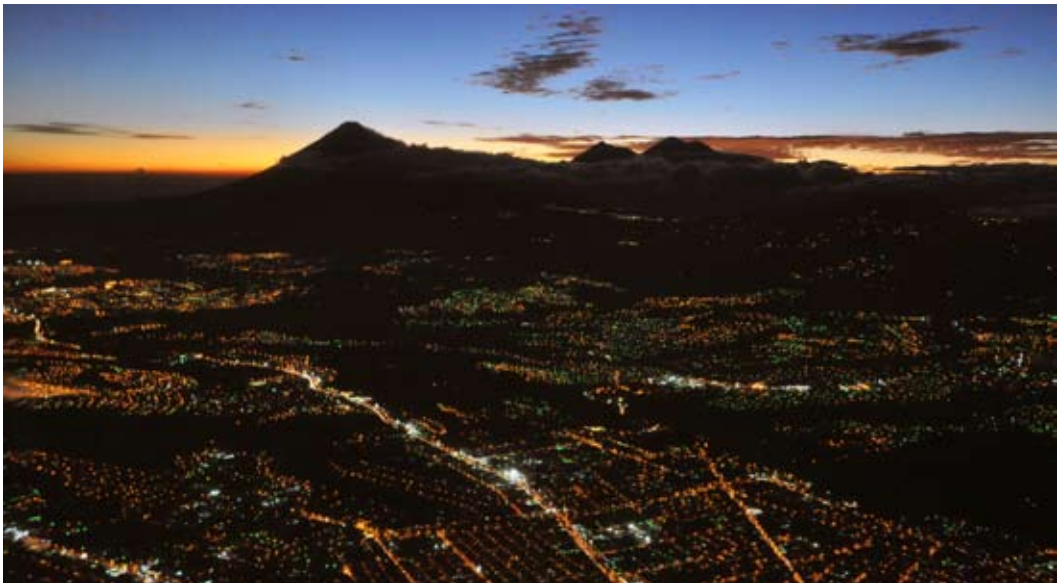

وبَعْدَ لحظاتٍ مِنَ الصّمْتِ
المُشْبَعِ برائحةِ التّبْغِ والخَمْرِ والبَحْر
يَصلُني صَوْتُها دافِئًا شَهَيّا حَنُونا
- إنّي أَلْمَحُ في عَينيكَ
حُزْنًا جارِحًا وكآبةً وَحْشِيّة
فَلِماذا أَنْتَ حَزينٌ يا رَجُل؟
- أنا حَزينٌ لأَنّ وطني يَحْترق
لأَنّ بِلادي واحةٌ تَحْتَلُّها الغربان
وشَعبي قَطيعٌ يُصَفّقُ
لِلذِّئْبِ الّذي جاءَهُ مُتَنَكِّرًا بِثيابِ الرّاعي
أنا حَزينٌ لأَنَّهُ لن يَعُدْ لي وَطَنٌ يا امْرأة.

- جَسَدي وَطَنُكَ أَيّها الغَريب
جَسَدي هو المَرْفَأُ الذّي تُلْقي فِيهِ مِرْساتَكَ
لِنُبحِرَ اللّيلةَ مَعًا
إلى جُزُرٍ لا اسْمَ لها
إلى قارّاتٍ لَمْ تُوْلَدْ بَعْد.

وعِندَما رَحَلَتْ عَنّي مَعَ الفَجْر
وأَفلَتَتْ مِنْ يَدي
آخِرُ خُصلةٍ من خُصَلِ شَعْرِها
شَعَرْتُ بأَنّ آخِرَ حَبّةٍ مِنْ تُرابِ الوَطَنِ
تَنْزَلِقُ مِنْ بَيْنَ أَصابعي
وبأَنّ آخِرَ شَمعةٍ
تَنْطَفِئُ في مَعْبَدِ اللّيل
فَقَدْ كانَ جَسَدُها وَطَنًا لي وكَنيسَة
وَطَنًا شَهَقْتُ كالعُصفورِ فَوقَ صَدْرِه
وكَنيسَةً على رُخامِها الأَسْوَدِ
رَكَعْتُ وَصَلّيْتُ.

الطّبيعَةُ في بوارتوباريوس
تَمْسَحُ عَنْ أَهدابِها كُحْلَ اللّيل
والحُزْنُ يَتراكمُ في قَلْبي
وعلى يَدي رَمادُ الوَطَنِ والهُنَيْهاتِ السّعيدَة.
وداعًا أَيّتُها الّتي لا اسْمَ لها
فأنا مِثْلُكِ بلا اسْمٍ ولا عُنوان
أَمْسي قَطْرَةٌ مِنَ الزِّئْبَقِ
عَبثًا أُحاوِلُ التِقاطَها
وغَدي كحاضِري مِرْآةٌ سَوْداء
وَدَاعًا أَيّتُها الّتي لا اسْمَ لها
فأَنا بحّارٌ ضائع
يَنْتظِرُ فَوْقَ شُطآنِ اليَأْسِ
سَفينَةً لَنْ تَأتيَ
لِتُقِلّهُ إلى وَطَنٍ
تُذَرّي جَحافِلُ المَغُولِ الزّاحفَةُ إليه
رَمادَ جُثّتِهِ مَعَ الرّيح.

* بوارتوباريوس مرفأ في غواتيمالا على الأطلسيّ.

د. جميل الدويهي

صورة ضبابِه

عن مَطرَح الإنتِ، بعدْ مـــا صـــارْ ... جِسمِك حطب، وجْنينتِك إعصـــارْ
حالي سألنـي، مـــا عْرفتْ ردَّيـتْ ... إنُّـــو الزعَل بيخَـــزّق المِشـــوار
عْزمتِك عَ بيتـي، وما التقى لي بيـتْ ... كان الـتـّلج عَ البـاب عَشر مْـتار
يـــا شجـــرة التا دُوقْها صلّيـتْ ... مـــا قْطَفْتْ منها غير جمر، ونـار
يـــا نبعةِ اللي أرْوَق من الزيـت ... بْموسِم عطش عبّيتْ دمـــع جْـرار
غصّيْت فيكِ بحـــــزن أوّل بيت ... وحَردَبْ كلامي عـــا طريق غْبـار
وتـــا يكون عندي كْنوز شو تمنّيـتْ ... كْمَشْت الدهب، صـار الدهب فخـّار
وتا إشرب خْوابي الهوى استحليـتْ... ... نقطه مـــا شفت بكاسة الخمَـــّار
ولمّا "عـتـابـا" ع السطـح غنّيت ... صـــوتي وقَع، وتفركشو الأوتـــار
إيدِي عَ خصرِك مـــا قدرتْ مدّيت ... خصرِك مَـديـنِـه مْقفّله بِـــزْرار
وفستانِك المِن ريحـتـُـــو جنّيتْ ... زهرو اختنق عـــا مصطَبة نـــوّار
ضِيعان يـــوم اللي قلت: «حبَّيـتْ» ... ضْرَبتو عَ وِجُـــو بْقلّة الدبّـــار
غـْمـــار الحصيدِه شلْتها وحطَّيـتْ ... تاري العشب عـــا بيدري قنطـــار
صَفـْوِة عَـــدم عا مَقعَدي صفَّيـت ... تْطلّعت فيكِ، لـْقَـيـتْ فـوق الحَيْـط

صُـــــورة ضَبابِه مْعلّقه بمِسمار.

المحامي رفيق غانم

بـيروت

عندما سقطتْ بـيروت
عندما سكتتْ بـيروت
اجتاح الشرقَ غموضٌ رهيب
كانت محطّةَ الهاربين
وكانت شوقًا وعاصفةً ورياحًا٠٠٠
لكنّها سقطت
لكنّها صمتت
أذكرُ مقاهي الحرّية على الأرصفة في الشوارع المنوَّرة
كان لها طعْمٌ ، نكْهَةٌ ولونٌ
يستقرُّ فيها الفكرُ والمفكّرون
الشعرَ والشعراء
الثورةَ والثائرون
الحريّةَ والأحرار...
تحوّلَتْ بـيروت
أصبحتْ جامِدةً
تغيّر فيها لونُ الجدرانِ ولونُ التراب...
كـم عشقْناها
وعشقْنا تحلُّقاتٍ صاخبةً في زواياها الحميمة
الهورس شوّ
والمودكـا
كافي دي باري
الأقلامُ والقهوةُ والدخان
النقاشاتُ الحادّةُ والحواراتُ الساخنة
كلُّها صمتت... غابت أو صمتت
صارت بـيروت: نارًا بلا دخان
نورًا ساطعًا بلا لون
ضجيجًا بلا مضمون
جنونًا سطحيًّا

وكانت تعيش في أعماقِ الجنون...
حزينةٌ أنتِ يا بـيروت
شوارعُك تبكي
الدمعُ يملأ المقاهي
ولا يصدِّقون
يَهيجون بلا غضَبٍ
يَصرخون بلا ثورةٍ
كالأجراسِ بلا قبابٍ
كالأديرةِ الممتلئةِ بالخوابي الفارغة
كالرهبانِ بلا سُبُحات
كالجوامعِ بلا مؤذّنين...
فارغةٌ أنتِ يا بـيروت
ولو عمّروا
لأنّ الكلمةَ رحَلَتْ عنكِ
لأنّ الشِّعرَ هاجرَ منكِ
لأنّكِ لـم تعودي معبدًا يلتجئُ إليه مشرّدو الشرقِ المقهورون...
تُراكِ تعودين يا بـيروت
تنبتين في الظِّلال
تخترقين الصّمتَ والفراغ
تستقرُّ الطيورُ المهاجرةُ في أوكاركِ وفي شقوقِ الجدرانِ
القديمة...
أم تُراكِ
سقطتِ إلى الأبد
صمتِّ إلى الأبد
تحطمّتْ خوابي الأيّامِ على صدرك
يا فاجعةَ الشرق
يا بـيروت...

من منشوراتنا